بلقيس شرارة و رفعة الجادرجي

جدار
بين ظلمتين

@ketab_n
Follow Me
9.4.2016

دار الساقي

بلقيس شرارة و رفعة الجادرجي

جدار بين ظلمتين

دار الساقي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جدار بين ظلمتين

لوحة الغلاف: محمد سعيد الصكّار

Twitter: @ketab_n

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٣

ISBN 1 85516 760 3

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

Twitter: @ketab_n

الإهداء

إلى أم رفعة

إلى العينين الدامعتين عندما اختفى رفعة أمام ناظريها، و إلى العينين المغرورقتين اللتين انسابت الدموع منهما بصمت و لم تجفّا بعد أن صدر الحكم المؤبد عليه في سجن «أبو غريب».

و إلى نصير

الذي كان سنداً لي طوال المدة التي قضاها رفعة في المعتقل و السجن، و شاركني الأجواء المعتمة التي عشتها، أجواء القلق و الشك و الخوف و الانتظار!

بلقيس شرارة

Twitter: @ketab_n

المحتويات

هذا الكتاب - بلقيس ٩

تمهيد - رفعة ١١

الفصل الأول

ظلمة في الوجود - بلقيس ٢١

نحو الظلمة - رفعة ٣٣

الفصل الثاني

في ظلمة خارج جدران المخابرات - بلقيس ٥١

في ظلمة المخابرات - رفعة ١٠٧

الفصل الثالث

خارج جدران «أبو غريب» - بلقيس ١٨٥

داخل ظلمة «أبو غريب» - رفعة ٢٤١

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

المكرمة و نحو شارع طه - بلقيس ٣١٧
الرحمة و المرحمة و المكرمة - رفعة ٣٢٩
في شارع طه - بلقيس ٣٣٥
في شارع طه - رفعة ٣٤١

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

هذا الكتاب سيرة ذاتية واقعية لمرحلة زمنية لا تتجاوز أكثر من عشرين شهراً، و سرد للأحداث التي عانى فيها كل منا - أنا و رفعة - من وطأة الاعتقال و الحكم المؤبَّد الذي صدر بحقه. و هو تسجيل لما عانيته من الحالة النفسية كزوجة معتقل و سجين في العراق، و وصف لما عاناه رفعة كمعتقل و سجين.

يحتوي الكتاب على أربعة فصول، و يتألف كل فصل من جزء كُتب من قِبَل رفعة، و جزء آخر كُتب من قِبَلي، و هكذا كُتبت الفصول متتالية على هذه الوتيرة.

عسى أن يكون هذا الكتاب وثيقة أخرى من الوثائق التي تصف معاناة الناس في العراق.

بلقيس شرارة

شباط ٢٠٠١

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تمهيد

تعرضنا ـ بلقيس و أنا ـ و عائلتنا و أصدقاؤنا لمحنة دامت عشرين شهراً. كنا نادراً ما نتحدث عنها بعد أن خرجت منها و مرت الأيام، بالرغم من أنها كانت تجربة قاسية و محنة لا يمكن للذاكرة أن تتغاضى عنها و تنكرها.

دوَّنت بلقيس في بداية الثمانينيات من القرن العشرين ملاحظات حول أحداث تلك الحقبة التي مرت في حياتنا نحن الاثنين. و بعد أكثر من خمس عشرة سنة، قررنا أن ندوِّن تلك الأحداث لكي لا تضيع في متاهات النسيان و الزمن.

في ربيع العام ٢٠٠١، اتفقنا، قبل الشروع في الكتابة، على صيغة الكتاب و دور كل منا فيه. و اتفقنا كذلك على عنوان المذكرات، أي عنوان الكتاب، و فصوله و أجزائه و مضامينه.

في أحداث تلك المحنة كان يفصلنا جدار غير قابل للاختراق، جعل كلاً منا في ظلمة بمعزل عن الآخر. لذا، قررنا أن يكتب كل منا من موقعه من ذلك الجدار الذي فصلنا. فكتبت بلقيس ما كان يجري من أحداث و مشاعر و محن و إثباطات في ظلمة الجهة الخارجية من الجدار، و كتبتُ أنا بدوري ما كان يجري في ظلمة الجهة الداخلية

Twitter: @ketab_n

منه، من غير أن نسعى إلى ربط أحداثهما، إذ لم يكن هناك في واقع الأحداث ما يربطها. كان كل منا يواجه الأحداث بمفرده، و لا يستعين بالآخر، لا لأننا لم نرد تلك الاستعانة، و لكن هذا ما تحتمه ظروف الفرد في العراق عند مواجهة القوى السلطوية، و سلطة مستبدة، لا تمنحه حق التشاور و الاستعانة القانونية و الإعلامية و تحرمه حتى من العاطفة الإنسانية.

و بسبب واقعية هذا الفصل بين الحالتين من الوجود نسبة إلى موقع كل منا من الجدار، يصبح هذان النصفان مكملين أحدهما للآخر.

كما اتفقنا على أن يكتب كل منا ما يتذكره بمفرده، من غير أن يطّلع على ما يكتبه الآخر، و من غير الاعتماد على ذاكرة الآخر حتى تكتمل النصوص و تأخذ صياغاتها الأخيرة، أي إلى أن تفرّغ الذاكرة ما عندها و تدوّن أحداثاً دامت عشرين شهراً.

باشرت بلقيس قبلي في كتابة مذكراتها. و بعد أن أكملت صيغتها الأولى، قمت بعدها بكتابة ما أتذكره، في خلوة بعيدة عن هموم المعيش الآخر. و لكن، كنا بين حين و آخر، نجلس معاً و نتحدث عن بعض الأحداث، من غير أن يطّلع أحدنا على ما دوّنه الآخر، أو ما كان في طور كتابته. إن الهدف من هذه الطريقة هو أن يعرض كل منا للقارئ ما جابهه منفرداً، أي أننا لم نسع إلى التعبير عن موقف تأملي لاحق. فالهدف، إذاً، أن نتذكر وقائع الأحداث و نسجلها و نعرضها بنصوص من دون مراعاة للظروف الاجتماعية و السياسية و العائلية القائمة في الوقت الحاضر.

لقد سعى كل منا بمفرده إلى تسجيل وقائع الأحداث و ما تعرَّض له بمعزل عن الآخر، و ما تعرَّض له أفراد العائلة و أصدقاؤنا، فسجلنا

Twitter: @ketab_n

القلق و الخوف و الإثباط و الإرهاب من سلطوية السلطة، تلك المشاعر التي هيمنت علينا و على بعض الأصدقاء و المعارف، كما سجلنا العاطفة الإنسانية و الدعم المعنوي اللذين أفعمنا بهما البعض من الأقارب و الأصدقاء و المعارف.

نحن نكتب هذه المذكرات ليس من موقف ممارس للسياسة، بل نكتبها لأن لنا موقفاً ذاتياً منها، كما أن لنا موقفاً من مختلف الظواهر الاجتماعية الأخرى. و لذا، يتضمن تسجيلنا هذا، ضمناً، موقفاً سياسياً واضحاً، يستنكر أي نوع من السلطوية على إرادة الإنسان، سواءً أكانت من مصدر علماني أو ديني.

لقد أقدمنا على تسجيل هذه الأحداث متمنين أن تؤلف و لو جزءاً ضئيلاً من الخزين المرجعي السياسي بمرور الزمن. و نحن نعتقد أن الفكر السياسي في العراق لن ينمو و يتطور و ينضج ما لم يتكون خزين مرجعي صادق و محلِّل للأحداث. نقول هذا لأن المجتمع العراقي عامة، لم يزل لا يمتلك الخزين المناسب، ليتمكن من تفعيله، و الاعتماد عليه، و ليتمكن من إحداث النقلة المتطلبة نحو الحداثة، حيث يتمتع المواطن بحقوق الإنسان. فهو مجتمع لم يزل تقليدياً في مرجعياته و مواقفه من الوجود، و أغلبه غارق بغيبيات و أساطير فات زمانها، و أصبحت تؤلِّف معوّقاً فكرياً فعّالاً يمنعه من مواجهة متطلبات الحداثة، و قبولها و التكيُّف معها و تنميتها و إنضاجها و ابتكار الجديد منها. هذا ما لم يُقْدم الكثير من المفكرين و يساهموا في تكوين خزين مرجعي سياسي لكي يستطيع الإنسان العراقي الرجوع إليه بهدف الدراسة و التحليل و النقد الموضوعي الجريء، و ينبني بالتالي على ذلك خزين مرجعي لفكرٍ سياسي معاصر، مع ممارسة متفاعلة مع هذه المرجعية.

Twitter: @ketab_n

و بدلاً من أن يبقى في معيش مفعم بمتخيّلات الماضي، و يجتر أحداثها بصيغ غالبها مشوّه، لذا، سوف لن يتمكن من بناء حاضر معاصر، و ستبقى مساعي القلة من الأفراد معوّقة و مثبَطة.

حاولنا أن يتصف تدويننا للأحداث بالأمانة و الدقة و الموضوعية. فبغير هذه الموضوعية، أو السعي إلى تحقيقها، سيفقد العمل دوره في تأسيس مرجعية فعّالة سياسية و تاريخية للفكر العراقي. و بقدر ما سنتمكن من الموضوعية، نتمنى أن يصبح عملنا هذا سجلاً واقعياً لحالات اجتماعية من الإرهاب و الإهانة يتعرض لها جلُّ أفراد المجتمع العراقي، في مختلف عهود تاريخ الدولة العراقية، و إن بدرجات متفاوتة.

قد يرتاح البعض إلى الصيغة الموضوعية لعرضنا للأحداث، كما قد يؤدي الأمر إلى غضب البعض علينا، لكننا بالرغم من ذلك نعتقد أن هذه الصيغة، إن تمكّنا من تحقيقها، قد تؤدي بالنتيجة إلى تكوين الخزين الفكري السياسي الذي نطمح إليه. على أنه ربما سيكون بعض من هذا الخزين قاسياً و غير مقبول بالنسبة إلى بعض الناس في الوقت الحاضر.

نحن لا ندّعي أننا حققنا الموضوعية في هذه المذكرات، و إنما ندّعي أننا سعينا إليها من موقف واعٍ لأهميتها و ضرورياتها لتكوين فكر عراقي سياسي. فمن غير هذه الموضوعية، و بقدر ما يخلو النص منها، سيفقد من أهميته كمقوم في الخزين المعرفي السياسي.

نقصد بالسياسة تلك الممارسةَ بين الأفراد حيث تنتظم العلاقات الاجتماعية عن طريق الحوار الشفاف، الإقناع و التقنيع، في مختلف مجالات التعامل، ضمن كيان الدولة، معها و خارجها. و حيث يسخّر

Twitter: @ketab_n

هذا الحوار في اختيار رجال الحكم، و تأسيس المؤسسات المدنية و المنظمات المهنية و التمتع بحرية العقيدة و الانتماء و التعبير عنها.

نقول هذا لأننا نعتقد أن المجتمع العراقي لم يمتلك فرصة لممارسة السياسة قبل تأسيس الدولة العراقية، و ما حصل عند تأسيسها جاء ناشئاً، و أخمد في مهده. و بقيت هذه الدولة الناشئة، تابعة لهيمنة سلطة رجال الحكم، و مبتلَعة من قبلها، و ذلك لأسباب متعددة. و ما يهمنا منها هنا اثنان:

أولاً، إن المجتمع العراقي لم يمارس السياسة في السابق و لم يمتلك دولة مبنية على المؤسسات بالمفهوم المعاصر. و لذا، لم يدرك أهمية السياسة بالنسبة إلى تنظيم إدارة معيشه، و الحرية التي يمكن أن يتمتع بها و يمارسها، فلم يطالب بها، إلا قلة منه؛

ثانياً، لأن المجتمع العراقي لم يحظَ بقيادة سياسية فكرية، تحاول توعيته بموقف سياسي حرّ شفاف، و تدريبه على ممارسته، إلا ما ندر. فظل مستلَباً منها، تحت إدارة سلطوية، سواءً أكانت دينية أو دنيوية. و هنا تكمن، في اعتقادنا، أهمية تأسيس مرجعية فكرية سياسية معاصرة.

لا شك في أن الإنسان العراقي، مستلَب الإرادة، و معرَّض للإهانة في مختلف مجالات معيشه، بما في ذلك المدرسة و الجامعة و القضاء و مختلف دوائر الدولة، و كذلك في المصارف و الأسواق، في الممارسات الحزبية، و في المستشفيات و دوائر الرعاية. و حتى إن أراد السفر أو الهجرة، فهو مهان في مختلف المراحل لتحصيل موافقة السفر و تحويل المبالغ المالية و تسهيل أمره في دوائر شرطة الحدود، و لا نبالغ كثيراً إن قلنا إن معظم أفراد المجتمع، كل من موقعه، يهين إرادة الفرد الآخر و يستلبها.

Twitter: @ketab_n

لا ندري كم من أفراد المجتمع العراقي ـ من مثقف و عالم و فنان و جامعي و عسكري و رجل قضاء و لاهوت، تعرَّض لإهانات السلطة و ممارساتها اللاأخلاقية و اللاإنسانية. و كم منهم تعرض لمحن مشابهة لتلك التي تعرضنا لها، أو ما هو أشد منها. و لكن سؤالنا هو: كم من هؤلاء يمتلك الشجاعة المعنوية الكافية، و يكون صادقاً مع نفسه و يسجل ما تعرضت له عاطفته و وجدانه و إنسانيته من إهانة و عنف و إرهاب! أو كم من هؤلاء آثر إخفاء ذلك و كتمانه.

لا ننكر أن هناك من أقدم على هذه الخطوة، و لكن نعتقد أن ما تم نشره لحد الآن، أو ما نحن واعون به، لا يؤلف إلا القَدْر الضئيل لما يتعين تسجيله و نشره ليؤلف خزيناً مرجعياً فعالاً في تكوّن فكر سياسي عراقي معاصر.

نُفي في بداية الثمانينيات ما لا يقل عن مئة و خمسين ألف عائلة عراقية على دفعات متقاربة، من أطفال و نساء و رجال، و رُموا على الحدود الإيرانية بعد أن تمت مصادرة أموالهم. و لا بدّ من أن بينهم الكثير من المفكرين و المثقفين و المتعلمين من هؤلاء المبعَدين. و لكننا لم نسمع عن تسجيل المحن النفسية و المعنوية و المادية التي تعرَّضوا لها هم و الآلاف من أمثالهم، لا على صيغ روايات أو مسرحيات، و لا على شكل تحليل سياسي موضوعي، و لا حتى على شكل تدوين محنهم و مآسيهم. و بدلاً من ذلك، أقدم البعض منهم على تأسيس مراكز و تجمعات في المنفى، كملاجئ يرجعون إليها لتطمين الذات مسخِّرين طقوساً لاهوتية، بهدف سلوى نفسية غيبية. إننا لا نشك في أن هذه التجمعات تؤمّن السلوى النفسية، وْ حتى الاطمئنان الخلاصي، إلا أنها لا تؤلف ممارسات تؤمّن تأسيس مرجعية موضوعية عقلانية سياسية. بل العكس، قد تكون معوّقة لذلك.

Twitter: @ketab_n

نعتقد أنه ما لم يُقدم الفكر العراقي و يكوّن بدقة و شجاعة و صدق و أمانة خزيناً معرفياً موضوعياً لتاريخه، و يقف من الأحداث ناقداً، فإنه لن يستطيع تهيئة الفكر المهيَّأ لإحداث النقلة نحو مجتمع معاصر، و سيبقى معوَّقاً و مثبَطاً و مستلَب الإرادة، متنقلاً من حكم سلطوي إلى آخر، أقل أو أكثر سطوة.

لم نُقْدم على تحريك كلمة الظلمة التي جاءت في عنوان الكتاب، فيمكن أن تقرأ بدلالة معنيين: الظَّلم: الليل شديد الظّلام و ظَلِمَ، أظلم الليل و اسودّ، الظُّلْمة: ذهاب النور، بينما دلالة الظُّلم: ظلَم، هي عدم الإنصاف، و انتقاص الحق، و الجَور.

فالظُّلمة هي دلالة على سلطوية النظام و انتقاص حق الفرد، مما يجعل معيش أفراد المجتمع ظُلمة، شديدة العتمة و البؤس. لذا، يتداخل المعنيان في تكملة متممة، فدلالتهما هي ظُلمة السلطة و عتمة الحياة.

رفعة الجادرجي

آذار ٢٠٠١

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ظلمة في الوجود

كنا نسافر - رفعة و أنا - في رحلات لزيارة المناطق الأثرية في العالم. كانت آخر رحلة لنا زيارتنا أفغانستان، في خريف عام ١٩٧٨. لعلنا كنا من بين آخر الوفود الأجنبية التي زارت أفغانستان قبل احتلالها من قبل الجيش السوفياتي. أعادت إلى ذهني تلك المظاهرات التي شاهدناها في العاصمة كابول، مظاهرات عام ١٩٥٨ في بغداد. تغطي حشود الناس الشوارع و تتدافع كأمواج البحر الهائجة، و يتعالى هدير الهتافات من حناجر الجماهير المؤمنة بمستقبل جديد، ممزوج بالتصفيق للزعيم الجديد! امتدت الأذرع ملوحة بالأعلام و اللافتات البيضاء و الحمراء و الصفراء التي كُتب عليها بجميع الألوان، الأحمر و الأسود و الأزرق. مظاهرات متواصلة يومياً، تعطلت بسببها الأعمال اليومية و المدارس في العراق، و أغلقت أبواب الأسواق و الحوانيت. و كان المذياع يعيد إذاعة البيان الأول و البيان الثاني! ثم تعددت الانقلابات، و تلتها، كما كل انقلاب، إذاعة البيان الأول و الثاني! و تلاها منع التجول اليومي عند أفول الشمس، و أُغرق العراق في بحر من الظلام.

ما أشبه الليلة بالبارحة، فالصورة نفسها تتكرر أمام عينيّ بعد

Twitter: @ketab_n

عشرين عاماً، و لكن في عاصمة أخرى، و بلد آخر. حشود من الأجساد المؤمنة بمستقبل أفضل! أمواج من الناس حاملين اللافتات، علت حناجرهم بالهتافات المتواصلة، و التهبت أيديهم من شدة التصفيق. مظاهرات يومية ملأت شوارع المدينة. أعلام حمراء، لافتات حمراء، ملابس طلبة المدارس حمراء. كل ما حولنا أحمر. جو مكفهر ملبَّد بالغيوم الكالحة ينذر بالانفجار، نحسّه في ثقل الهواء الذي نستنشقه، و نذير ببحر الدماء الذي سال و ما يزال يسيل في أرض أفغانستان، التي حُوِّلت جبالها و سهولها إلى مقابر منذورة لقراءة الفاتحة على أرواح أولادها الذين قُتلوا في تلك الحرب الطاحنة. الحرب التي اقتاتت على الجثث و أطفأت ظمأها بالأكفان البيضاء، و ذابت في أوارها أجيال من شباب أفغانستان.

منع تجول يومي في مدينة كابول عندما يسدل الليل ستائره الكثيفة. تخلو الشوارع من البشر فجأة. و أتساءل: أين اختفت تلك الحشود من الناس عندما أذنت ساعة الغروب؟ شوارع موحشة، مخيفة بصمتها الرهيب، كما كانت مخيفة بضجيجها و صخبها قبل ساعات. لا يطرق أسماعنا في فندق الإنتركونتننتال إلا وقع خطوات و أصوات الجنود و سيارات الجيش المتنقلة في عتمة الليل.

تركنا العاصمة كابول صباحاً، لنستمر في زيارة الأماكن و المدن الأثرية. الحياة هادئة، بطيئة، رتيبة، و كأن أفغانستان بلدان منفصلان لا علاقة لأحدهما بالآخر.

عدت إلى لندن مع المجموعة التي رافقتنا في رحلتنا، و ذهب رفعة إلى أبي ظبي لحضور مؤتمر عن العمارة. ثم التقينا ثانية في لندن، للذهاب إلى فيينا.

وصلنا بغداد ليلاً قادمين من فيينا في ١٤ كانون الأول عام

Twitter: @ketab_n

١٩٧٨، بعد أن أقيم لرفعة معرضان عن أعماله و تصاميمه المعمارية في جامعتي فيينا وإنز بروك في النمسا، ألقى خلالهما محاضرتين عن تطويره العمارة في العراق. كانت الحفاوة و التقدير اللذان أحيط بهما من قِبَل الأساتذة و التلاميذ مدهشين، فمعلوماتهم عن المنطقة قليلة، و كانت مفاجئة بالنسبة إليهم، فلم يتوقعوا مثل هذا التقدم الفني و المعماري في بلد مثل العراق! شرح لهم في محاضرتيه تطويره للعمارة في العراق باستعماله التكنولوجي الحديث، و صَهره بالتراث العراقي.

في صباح يوم السبت ١٦ كانون الأول ١٩٧٨ زارنا المقاول علي عندما كنا نتناول طعام الفطور، ليبحث مع رفعة الأعمال التكميلية في دارنا الجديدة، و أخبره أن شخصين مهندسين يطلبان مواجهته. أجابه: ليس لي موعد مع أي شخص، ولا أحد يعلم أنني وصلت إلى بغداد أمس.

قلت له: «لِمَ لا تذهب و تستفسر منهما، لكي تستطيع أن تقضي وقتاً كافياً مع علي؟»

ذهب رفعة و رافقه علي إلى بوابة دار والده كامل الجادرجي، حيث كان شخصان واقفين بانتظاره أمام سيارة بيضاء اللون، مرتديين ملابس أنيقة. و لا عجب أن المقاول علي خطر له أنهما مهندسان، فقد كنا نجهل في رجال الأمن هذا النوع من المظهر الأنيق و السلوك المهذَّب. كنا معتادين على رجال أمن بملابس رثّة، فقراء و بسطاء، يجهلون في معظم الأحيان الكتابة و القراءة. لذا، كانت أم رفعة تعتني بالمسؤول عن مراقبة دار كامل الجادرجي أثناء العهد الملكي، و تبعث له الشاي و المرطبات، و أحياناً تطعمه كبقية العاملين في الدار.

توقفتُ عن الأكل بانتظار عودته، و لكن بعد دقائق، رن جرس

Twitter: @ketab_n

التلفون الداخلي، و إذا بصوت أم رفعة المرتجف، المتقطع، تخبرني: «الأمن أخذوا رفعة!» شعرت بجسامة اللحظة، و عشت منذ تلك اللحظة في شك و قلق و خوف على مصيره.

كنت في ذلك الحين أطلق كلمة الأمن على كل من له علاقة بتلك الدوائر، و لم تكن لي خبرة بالمديرية الجديدة التي أُطلق عليها اسم «المخابرات». عاد علي منكِّس الرأس، شاعراً بالخيبة، بعد أن حاول اللحاق بسيارتهما، فقد أضاع أثرهما في زحمة السير في بغداد، و اختفت السيارة عن ناظريه و لم يعد باستطاعته اقتفاء أثرها.

أخبرني عن الحديث الذي جرى بين رفعة و الشخصين اللذين اعتقلاه:

قال رفعة: «ماذا تريدان مني، أخبراني الآن.»

أجاباه بصوت خافت وقور: «أستاذ، لن يطول غيابك أكثر من عشرين دقيقة، يريدون الاستفسار، بعض الأسئلة فقط، و ترجع إلى بيتك و أهلك.»

كانت هذه هي الطريقة المتَّبَعة في إلقاء القبض على الفئة المثقفة و المتعلمة في البلد: خداع للمعتقَل و عائلته، فالمعتقل يجهل تماماً ما ينتظره من أساليب التعذيب النفسي و الجسدي، بالرغم من الشائعات التي كانت تدور في المجتمع عن التعذيب، و يهمس الناس بها همساً.

لقد اعتدتُ على الأجواء العاصفة. لم يكن الاعتقال و السجن بالشيء الغريب في حياتي، فقد غُرست في أعماقي منذ طفولتي مداهمةُ الشرطة لدارنا و اعتقال والدي و عمي، في ساعة متأخرة من الليل. كنت أصحو مع إخوتي و أخواتي من النوم مرتعبين خوفاً و فزعاً من الحركة و الضجة غير الطبيعيتين اللتين يثيرهما مجيئهم، و اختفاء

Twitter: @ketab_n

والدي و عمي بعد لحظات أمام أنظارنا في سيارة الشرطة الزيتونية اللون.

لم يزل التصفيق لرفعة في جامعتي فيينا وإنز بروك مدوياً في رأسي، عندما بدأنا في حل لغز خيوط الملحمة الجديدة. أمسكت بالتلفون، أدير الأرقام التي أمامي في دفتر التلفونات، كان أول رقم في الدفتر رقم نصير، شقيق رفعة، الذي جاء حالاً إلى دار والديه، و تقع داره في الجهة المقابلة من دار والده في شارع طه. بان القلق و الارتباك عليه. كان نصير محامياً، و له صلة بشريحة واسعة من المجتمع، فبدأ حالاً بالاتصال تلفونياً بالأصدقاء و الأقارب.

شعرت بالجو المشحون بالتوتر حولي، فأمامي أم رفعة، ترتعش السيجارة بيدها، تنفث دخانها المتصاعد في جو مجاز الدار، تقف تارة و تتحرك تارة أخرى بخطوات وئيدة، ثم تتكئ بظهرها على الجدار المواجه للتلفون، لا تستطيع الجلوس على كرسيها الذي اعتادت أن تجلس عليه عندما تدخن سيجارتها. سيطرتُ على أعصابي، حاولت أن أتماسك و ألا أُظهر ضعفي أمامها.

واصلت أنا و نصير مخابرة الأقارب و الأصدقاء، محاولَين الاستفسار و إيجاد الطرق و التدابير التي علينا أن نقوم بها لحل المشكلة في مثل هذه الحالة. و لكن بعد مضي ساعة أو ساعتين وجدت نفسي كأم رفعة لا أستطيع الجلوس على الكرسي من شدة التوتر و القلق، فكلما رن جرس التلفون كنت أقفز إلى السماعة. ارتبطت علاقتي بسماعة التلفون باختفاء رفعة. و منذ تلك اللحظة بدأ الانتظار، انتظار ينخر الأحاسيس تدريجياً، و يُشعر الفرد بالتمزق البطيء من القلق و الحدس والانتظار، ثم الملل و اليأس!

شعرت بوطأة العاصفة. إنني أجابه مشكلة تختلف تماماً بحجمها

Twitter: @ketab_n

عما كنت أجابهه سابقاً. تصورت في البداية أن الأمر هيّن كسابق عهدي به، خاصة أن الاعتقال ليس بجديد على عائلة الجادرجي، بل جميع أعضاء العائلة، من الكبار و الصغار، معتادون على سِيرة القلق هذه، وعلى حياة أقبية السجون. كانت أم رفعة في مثل تلك الحالات تتماسك و لا تنهار كما انهارت اليوم، بل تدعو رجال الأمن إلى شرب القهوة، و تُقدّم إليهم السجائر، خلال الفترة التي كانت تحضّر بها حقيبة مملوءة بالملابس و الأدوية التي كان يحتاج إليها عادة والد رفعة ليأخذها معه أو تُبعَث له مع السائق في اليوم التالي لاعتقاله.

كان الدكتور ليث أول صديق وصل إلى دار أم رفعة عندما علم باعتقال رفعة، فترك عمله في المستشفى، و قضى معظم نهاره معنا، يشاطرنا ساعات القلق التي هيمنت علينا منذ ذلك الحين، وسعى إلى مساعدتنا بالاتصال بأصدقائه الذين لهم نفوذ مع بالسلطة.

تعرفنا إلى الدكتور ليث من خلال صداقته الطويلة لنصير، فأصبح من الأصدقاء المقرَّبين الذين يترددون على دارنا دائماً. كان مرحاً، له القدرة على تحويل المأساة إلى ملهاة، بأسلوب شيّق في نقلها و ابتكارها. لا يبدأ في سردها حتى تتحول الضحكات في معظم الأحيان إلى قهقهات عالية. مما يطيب لأصدقائه الجلوس بصحبته و الإصغاء إليه و الاستمتاع بالجو المرح الذي يخلقه حولهم. كانت تجمعه برفعة هواية التصوير، فقد كان متمرساً بتقنية التصوير، متتبعاً للتقدم التكنولوجي في هذا المضمار.

* * *

اتصلت بالدكتور علي كمال أحد الأطباء المكلَّفين من قبل القصر آنذاك، فأبدى عدم الارتياح من طلبي و حاول تغيير الموضوع عندما

Twitter: @ketab_n

أخبرته باعتقال رفعة، بل استغربتُ في بداية الأمر عندما قال لي: «هل رفعة مريض و هل هو بالمستشفى؟» تجنب استعمال كلمة الاعتقال، خوفاً من أن يكون التلفون مراقَباً. دخلت منذ تلك اللحظة كلمات جديدة في قاموسنا، فكلمة «معتقل» حلت محلها كلمة «مريض»، و كلمة «المخابرات» حلت محلها كلمة «مستشفى». كان الفضل يعود في إنشاء تلك المصطلحات الجديدة إلى الدكتور علي.

شعرت بجسامة الموقف و خطورة الوضع. عليّ أن أكون أكثر حذراً في طلب المساعدة من الناس. فكرت بإعادة النظر في قائمة الأسماء التي أمامي، و أحسست بوخزة الألم الدفين عندما شطبت اسم الدكتور علي من القائمة. كانت بداية درس قاس و دراسة للمجتمع العراقي من خلال التجربة التي مررتُ بها.

كان الدكتور علي من الأصدقاء المقرَّبين لنا، تربطنا به علاقة وثيقة، و من الأطباء اللامعين في حقل اختصاصه، وله مؤلفات عديدة، و مطّلع على الأدب الغربي بعمق و له هواية بالتصوير. كان من الأطباء الذين يترددون على دار كامل الجادرجي، مع مجموعة من الأطباء العراقيين المعروفين، و كانت هواية التصوير أحد الأسباب في التقارب بينهما.

التقينا بالدكتور علي في بداية الستينيات في دار الأديب جبرا إبراهيم جبرا الذي كنا نزوره صباح الجمعة، و توطّدت أواصر الصداقة و الروابط الفكرية العميقة بيننا في تلك اللقاءات، خاصة في ما يتعلق بالأدب الحديث و الفنون عامة. أخذنا نقوم بسفرات أثرية معاً إلى بعض المناطق في شمال العراق و جنوبه. كما كان رفعة و الدكتور علي يقومان بجولات فوتوغرافية في بغداد و ضواحيها. تغيرت علاقته

Twitter: @ketab_n

بنا فجأة بعد اعتقال رفعة، و أصبح يتجنّب اللقاء بي، و لم يزرنا إلا مرة أو مرتين طوال تلك الفترة.

كان الدكتور علي يشعر بمرارة عميقة لفقدانه وطنه فلسطين، و ازدادت تلك المرارة باندلاع الحرب الأهلية في لبنان التي كانت سبباً في نفي «منظمة فتح» إلى تونس. كان من الصعب عليه بعد أن عانى الغربة القاسية و الحنين إلى وطنه، أن يُغضب السلطة، أية سلطة، و يضطر إلى الهجرة ثانية و الإقامة في بلد آخر، فليس عنده بديل لوطن آخر. لقد أقام في العراق منذ العام ١٩٤٨، و قد جعله شعوره بفقدان الأرض و الوطن، دائمَ الحذر.

* * *

ازدحمت غرفة أم رفعة بالضيوف القلِقين مثلنا من الأقارب و الأهل و الأصدقاء، عصر ذلك اليوم. وجوه قلقة و مضطربة، جامدة بلا تعبير، و أخرى كئيبة بائسة. كانت جميع الوجوه في تساؤل وانتظار، انتظار المجهول! شعرت و كأن جو الكاتب التشيكي «كفكا» قد خيم على أجواء دارنا.

استمرت هذه الحالة بضعة أشهر. تبدأ الزيارات عند الساعة التاسعة صباحاً و تستمر حتى منتصف الليل. كنت أحس بأنني أدخل إلى مأتم جديد كل صباح، فالوجوه التي أتطلع إليها من حولي عابسة متجهّمة، أو تتظاهر بالعبوس و الوجوم، جامدة التقاطيع، و كأن الابتسام حرام، و الضحك جريمة.

كانت زيارات جيران أم رفعة و صديقاتها صباحاً أو عصراً، أما زيارات أصدقائي و أصدقاء رفعة فكانت مساءً. كانت أجواء المساء أخف وطأةً وتجهماً من أجواء الصباح و العصر، إذ كان من الممكن

Twitter: @ketab_n

كسر ذلك الطوق من الأحاديث الرتيبة، المملة، إلى أحاديث تحرك الركود و تعيد النشاط الفكري، و تُنسيني الأجواء المكفهرة التي كنت أعانيها.

جعلني موقف الدكتور علي، أعيد النظر في علاقتي ببعض الأصدقاء و المعارف. حاولت تجنب نظرات الشماتة و الفرح على محيّا بعضهم، من الذين شعروا بتلاشي المنافسة المعمارية، و جاءت الفرصة المناسبة للحصول على المشاريع، بعد أن خلا الجو من منافسة المكتب الاستشاري العراقي.

أما البعض الآخر، فكان يتتبع أخباره و ما حلَّ به لما يكنّونه له من ودٍّ و محبة. يسمعون أخباره من الأصدقاء المشتركين بيننا و بينهم، و لكنهم ابتعدوا عن دارنا و الاتصال بنا حتى أنهم تجنّبوا الاتصال بنا تلفونياً، لئلا تحوم حولهم الشكوك، و سرى بينهم الخوف و الفزع من العدوى و إصابتهم بـ«الوباء»، فقد خدّر الرعب أحاسيسهم، و دفع بعضهم إلى الهجرة من العراق.

بقيت مجموعة صغيرة من الأصدقاء مواظِبة على إخلاصها و وفائها السابقين، متألمة من التعدّي على حقوق رفعة كمواطن. كانوا يطلّون علينا، و يزورننا مساءً بعد الانتهاء من أعمالهم اليومية، ليقضوا سهرتهم معنا، و يخففوا من القلق الذي هيمن علينا، بل منهم من عرّض نفسه للخطر، في سبيل مساعدتنا. كانت مواساة أولئك الناس لي كرذاذ المطر عندما يتساقط على أرض جافة مشققة عطشى، فيرويها، و يعينني على الاستمرار في مجابهة مشاكل الحياة.

تمر الساعات بطيئة و يزداد القلق تدريجياً، و لم نتوصل إلى شيء ملموس، فما نزال في قلق و خوف على مصير رفعة. زارنا عصراً

Twitter: @ketab_n

المحامي محمد و رجل الأعمال عدنان. كان القلق بادياً على عدنان، أما محمد فأبدى عدم الاكتراث، و حاول رفع معنويات عدنان الذي أخبرته زوجته تلفونياً ألا يعود إلى الدار بعد مجيء رجال المخابرات لإلقاء القبض عليه. كان عدنان مرتبكاً و خائفاً، لا يدري كيف يجابه المشكلة، فقضى تلك الليلة عند شقيقته، هرباً من المشكلة.

طلبت مني أم رفعة ألا أنام في الدار وحدي، خوفاً من مجيء رجال الأمن لتفتيش الدار.

نمت تلك الليلة الأولى في غرفة الاستقبال الواسعة، بعد أن خلت من الزائرين، و عانق دخان السجائر رائحة ألوان الطعام التي قُدمت إلى الضيوف و ملأت أجواء الغرفة برائحتها الغريبة. لم يكن باستطاعتي تهويتها و فتح نوافذها لشدة البرد. أغمضت عينيّ، حاولت النوم لكن النوم جفاني، و هيمن عليّ أرق طويل. تراءى أمامي رفعة، ملتفاً ببطانية قذرة، على أرض رطبة، عارية بلا فراش أو وسادة، في زاوية غرفة صغيرة معتمة موحشة، لا ترى النور، و لا يميز فيها السجين الليل من النهار.

قفزت من فراشي و فتحت عينيّ ثانية، عركتهما بيديّ محاوِلة أن أتحسس الغرفة التي أنام فيها، حاولت التنفس بعمق، فقد شعرت بالاختناق و ثقل أنفاسي. كأن سحابة مظلمة جثت على صدري، فقد ذاب نور التفاؤل الذي كنت أعيشه و زحف اليأس ببطء و حلت عتمة ليل طويل لا أدري متى تنتهي، و متى يعود النور إلى دنياي. شعرت برغبة في البكاء. تمنيت أن تنساب دموعي، لتغسل جرحي و تخفف من قلقي، و لكن علا صوت والدي من أعماقي قائلاً: «البكاء ضعف!» فمنذ زمن بعيد، منذ أيام الطفولة الحالمة، أصبحت الدموع

Twitter: @ketab_n

مرادفة للضعف و الاستكانة و الخضوع، و ليس غريباً أن جفّت الدموع في عينيّ و تحجرت!

أغلقت الستائر و نمت بعدما بزغت الشمس، و أزاحت أشعتُها ضبابَ الشتاء الذي جثم بثقله على نوافذ غرفة أم رفعة، و كسا نورها فراشي. فتحت عينيّ. نور خافت يتسلل من بين الستائر السميكة. نظرت إلى ساعتي معلنة التاسعة صباحاً، قفزت حالاً من الفراش لاستقبال ما يخفيه يومي الجديد.

بلقيس شرارة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نحو الظلمة

اليوم الأول: نحو المخابرات

عدنا إلى بغداد من سفرة خارج العراق مساء الخميس، و في صباح السبت التالي المصادف ١٦ كانون الأول و في الساعة التاسعة صباحاً، أبلغني علي أن هناك شابين يدّعيان أنهما مهندسان لهما موعد معي. لم يتمكن علي من إخفاء ارتباكه كلياً، بل ظهر ارتباكه و الشك في صحة الموعد من طريقة كلامه و إشارات يديه، و اختفت الابتسامة المعتادة من وجهه.

علي مقاول بناء، و الأعمال التي يتعهد بها صغيرة، و لكنه دقيق في عمله و مواعيده و يتمتع بكفاءة حرفية عالية. فقد عمل معي لمدة طويلة، و شيّد غالب المتطلبات التعميرية في دارنا و دور العائلة، و أصبح يزور العائلة كصديق. جاء في ذلك الصباح في زيارته المعتادة ليتناول القهوة مع الوالدة. نوّه لي ألاّ أتأخر، و من المستحسن أن أذهب إلى الشابين. تركت الفطور، و قطعت الحديقة و وصلت باب الدار الرئيسي حيث وجدت شابين بملابس أنيقة نسبياً و هذا عادة ما يتصف به المنتمون إلى دوائر الأمن و المخابرات.

Twitter: @ketab_n

قالا لي إنك مطلوب للاستفسار، و المسألة بسيطة.

أجبتهما: سأجلب نظاراتي و ألتحق بكم.

قالا: لا داعي لذلك لأن المكان قريب و لا يستغرق الاستفسار أكثر من عشرين دقيقة. شعرت بأن الاستفسار هو من جهة أمنية، فصعدت في سيارتهما الصغيرة في المقعد الخلفي.

عندما وصلنا إلى نهاية شارع طه التفت أحدهما و قال لي: أرشدنا إلى بيت محمد. بينت لهما الاتجاه نحو بيته الواقع في الصليخ شمالي بغداد. وصلنا الدار و نزل أحدهم فضغط على زر الجرس أكثر من مرة من غير جواب، كما لو كانت الدار خالية، و استغربت من ذلك.

فالتفت الآخر نحوي، و قال: إذاً، فلنذهب إلى محل محمد، هل تعرفه، فأجبته: نعم و يتعين علينا الذهاب إلى سوق الصفافير و ثم إلى الخان الذي يعود له و المجاور للسوق. وصلنا الخان و صعدنا إلى مكتب محمد. ضغطنا على زر الجرس. لم يرد علينا أحد، فزادت حيرتي، حيث كانت الساعة تقارب العاشرة، فكيف لا يوجد أحد في المكتب!

ثم اتجهت السيارة نحو جنوب بغداد، و قضينا في تلك الجولة أكثر من عشرين دقيقة. كنا متجهين إما نحو إحدى دوائر الأمن أو المخابرات و هما تقعان في منطقة السعدون، الحي الذي يقع فيه مكتبي أيضاً، لذا أعرف المنطقة جيداً. لم تكن هذه الزيارة للأمن أو المخابرات جديدة عليّ، فقد استُدعيت إليها مرات عديدة في الماضي، و كان الاستدعاء من قبل الدائرتين في مواعيد متقاربة، و لا تتجاوز المدة بينهما الشهرين.

ففي مساء أحد الأيام، في عام ١٩٧٧، و في حوالى الساعة

Twitter: @ketab_n

الخامسة و النصف، زار المكتب شاب و طلب مواجهتي، و أبلغني أنني مطلوب لبعض الاستفسارات، قلت له: لِمَ لا يكون هذا الاستفسار بعد الدوام، أي بعد الثامنة؟ أجاب: السؤال لا يتطلب أكثر من عشر دقائق.

لا تبعد مسافة الدائرة عن المكتب أكثر من مئة و خمسين متراً. فسرنا معاً مشياً على الأقدام. أُجلست في غرفة صغيرة عند وصولنا الدائرة، و خلال فترة الانتظار التي طالت لبضع ساعات، كان يطل بين الفينة و الفينة أحد الموظفين برأسه من الباب، كما لو يتأكد من وجودي. و بعد أن مدّ رأسه أكثر من مرتين، قلت له: إلى متى أنتظر؟ و ما هو سبب هذا الانتظار؟

أجاب بأنهم بانتظار المدير، و هو على وشك القدوم. مرت بضع دقائق مملّة، ثم ساعات طويلة، و أنا في دوامة الانتظار. فأخذ القلق يساورني. لم أكن أدري سبب استدعائي. و لكنني كنت أعلم، و الجميع يعلم، أن المستدعى إلى دوائر الأمن العراقية هو مجرم قبل أن تثبت إدانته.

رافقني حوالى الساعة التاسعة مساءً، أحد الموظفين إلى غرفة المدير. كان المدير الوقور جالساً خلف المنضدة الكبيرة، متعالياً و جافاً في أسلوب كلامه. قال بصوت يتصف بالجدية أو يفتعلها من غير أن يعتذر عن التأخير: «من هو ناجي؟»

أجبته: «هل هذا هو سبب استدعائي و انتظاري أكثر من أربع ساعات؟»

قال مؤكداً: «نريد أن نعرف من هو ناجي؟ و ما هي علاقتك به؟»

أجبته: «السؤال يدل على عدم كفاءة جهاز المخابرات.»

Twitter: @ketab_n

قال بصوت محتد: «كيف؟» قلت: «السيد ناجي هو في الواقع جعفر ناجي، و هو مقاول معروف في العراق، و يسكن في منطقة المسبح القريبة من موقع دائرة المخابرات، و له تلفون في داره، و في مكتبي كذلك رقم تلفون داره، فكان من الأسهل لي و لكم أن يتم هذا الاستفسار عن هوية هذا الشخص عن طريق التلفون. إن السيد جعفر ناجي يعمل متعهد بناء و مشاريع في العراق و السعودية، و هو شخص طيب يسعى إلى مساعدة العراقيين في الحصول على أعمال فيها، و يسعى إلى مساعدة مكتبي في هذا المجال، و قد هاتفني ظهر اليوم من السعودية، و قال لي: إنه يسعى إلى ترتيب مقابلة لي مع أحد المستثمرين هناك. فهل أقلقت هذه المخابرة التلفونية جهاز المخابرات؟ و أقلقتكم إلى درجة يتم استدعائي و إبقائي في الانتظار لمدة أربع ساعات؟»

ظل صامتاً و لم يجبني بل أخذ يفكر في ما قلت، و تحول فجأة الجفاف و الوقار المفتعل إلى صوت هادئ مجامل، قائلاً: «أستاذ احسبها علينا، نحن مضطرون إلى القيام بمثل هذه الإجراءات لكثرة أعداء الثورة.»

غادرتُ دائرة المخابرات و ذهبت مباشرةً إلى دار أخي نصير حيث كانت عنده دعوة عشاء، أثناء احتجازي في دائرة المخابرات. كان من بين الضيوف الحاضرين الوزير السابق فؤاد عارف، و إحسان شيرزاد الذي كان وزيراً للبلديات آنذاك. و منذ أن علما باستدعائي لدائرة الأمن، حاولا منذ الساعة الثامنة، لغاية وصولي إلى الدار في التاسعة و النصف، أن يحصلا على معلومات عن موقع الدائرة و السبب الذي استُدعيت من أجله، و لكن بلا جدوى، بالرغم من إلحاحهما الشديد. و فؤاد عارف رجل عسكري و له معارف في أجهزة الأمن و المخابرات

Twitter: @ketab_n

بحكم علاقاته السابقة مع الرجال العسكريين. و بالرغم من ذلك لم تؤدِّ معرفته الواسعة و موقعه الوظيفي القديم، إلى معرفته موقع الاستدعاء أو حتى لماذا استُدعيت؟ لأن السؤال الأخير سؤال أمني و يخص جهاز الأمن حصراً.

إن علاقاتي مع أجهزة الأمن متعددة و متنوعة، منها علاقات مربكة و مفتعَلة لأنها لا تبيّن أسباب الاستدعاء إلا بعد انتظار طويل، و بعضها علاقات واضحة منذ البداية. ففي أحد هذه الاستدعاءات من قبل أجهزة الأمن، كنت أقود سيارتي متجهاً نحو مدينة الحلة مسرعاً بعض الشيء، فأُوقفت و تم سَوقي إلى مركز حزبي و أمني. و بعد انتظار أكثر من ساعة، و موظفو المركز مشغولون بمخابرات تلفونية متعددة، و كأنهم يتكلمون عن مسألة خطيرة من خلال كلامهم الجدي، و اسمي يتردد في كل نداء تلفوني، و أنا طيلة هذه الفترة، اجهل كلياً ماذا يحدث، و حائر و مرتبك في هذه المخاضة الأمنية. و أخيراً، بعد انتظار طويل، تقدم المسؤول الأول في المركز قائلاً: «احسبها علينا.» و قيل لي إن سبب اعتقالي لأنني كنت أقود بسرعة، فحصل شك بأنني في طريقي للهرب من البلد! كان ذلك في منتصف العام ١٩٦٣.

اقتربت السيارة من الحي الذي يقع فيه مكتبي، محلة السعدون، و أدركت أن اعتقالي هذه المرة يختلف عن المرات السابقة لأنه في دائرة المخابرات. وصلنا أمام باب حديدي يقع ضمن سياج عالٍ جداً، من دون حرس أو إشارة. لا يقل ارتفاع الباب عن ثلاثة أمتار. طرق الباب أحد الشابين، ففتح، و دخلت السيارة إلى حيز صغير محاط بجدران عالية، و أغلق الباب وراءنا. ثم رافقني شاب آخر، من دون أن ينبس ببنت شفة، إلى غرفة الانتظار التي ينتظر فيها المستدعون أو

Twitter: @ketab_n

المعتقلون. ليس هناك علامة تشير إلى وظيفة هذه الغرفة. لا يجرؤ على أن يتكلم في هذا المكان أحد بصوت مرتفع، إنما المعتاد عليه هو الهمس، و هذه ليست المخابرات التي أعرفها والتي استُدعيت إليها في السابق.

جلست في هذه الغرفة على مصطبة بجانب شخص آخر، لم أنتبه إليه. لم أتمكن تقدير سبب استدعائي في اللحظات الأولى التي شعرت فيها بالارتباك. تزاحمت الأسئلة في ذهني: هل كان اعتقالي بسبب علاقتي بمحمد؟ أو هل كانت محاولة اعتقال محمد معي صباح اليوم تتعلق بالأعمال التي كلفته بها كمحامٍ؟ إن محمد دقيق و حذر، و يتمتع بمعلومات حقوقية عملية واسعة.

كانت غرفة الانتظار صغيرة تحتوي على مصطبة تتسع لشخصين و فيها منضدة جلس خلفها موظف الاستعلامات. تطل الغرفة على فناء صغير. طُلب مني أن أجلس على المصطبة، فنظرت إلى ذلك الشخص الجالس في الطرف الآخر منها، متأملاً ملامح وجهه، و أحسست بأنها ليست غريبة عني. بعد لحظات تذكرت أنني أعرفه، إنه زهير الذي التقيت به منذ أكثر من عامين حول مشروع «عكاشات» الذي كانت الشركة الإنكليزية «ويمبي» تنوي تقديم عرض حوله إلى الحكومة العراقية. فاتحتني تلك الشركة بموضوع مشاركة المكتب «الاستشاري العراقي» الذي أرأسه، معها، بصفته المكتب المحلي. و اخترت زهير ليكون أحد أعضاء المجموعة التي نظمتها، من خارج أعضاء المكتب، لتقديم الاستشارة و تنظيم التعهدات المحلية إلى الشركة المذكورة. كانت الكآبة مهيمنة عليه، أو ربما هكذا تراءى لي. لم تكن ملامحه تدل على أنه مستعد للكلام و لم يُظهر استعداداً لذلك، فلم أكلمه. و شعرت بالمقابل بما كان ينتابه من قلق للوضع الذي كنا فيه، و الذي

Twitter: @ketab_n

لا يشجع على الكلام، و ربما لو حاولنا لتم منعنا من ذلك، فتمسكت بالصمت و الانتظار. انقضت ساعتان أو ثلاث و أنا في هذه الحالة بين الشك و التردد، جالس على المصطبة حائراً، هل أحيّيه و أكلمه، أم ألتزم الصمت؟ كما كان هو صامتاً و عابساً! و مرّ الوقت، و نحن في جمود من الصمت المطبق و أصبح واضحاً بالنسبة إلي، و بالنسبة إليه، أن كلانا يتجنب النظر نحو الآخر أو الكلام معه.

طال الانتظار و الصمت، و تزايد القلق، فدخل أحد الحرس و طلب من زهير أن يرافقه. اختفى زهير من أمام عينيّ من أحد أبواب الفناء الصغير المجاور لغرفة الانتظار، التي تؤدي إلى متاهات بناية المخابرات و التي كنت قد اطّلعت على بعضها في الماضي، حينما تم استدعائي هناك مرتين في السابق. تتألف بناية المخابرات من عدة بيوت سكنية تم فتحها و إيصال بعضها ببعض من خلال ممرات.

* * *

أخذت الساعات تمر ببطء في ظل الانتظار، و أنا جالس أمام منضدة الاستعلامات، و رجال الاستعلامات يتغيرون بين حين و آخر. بعد فترة قصيرة ظهر أمامي في الفناء رجلان، أحدهما بعِصابة فوق جبينه تحجب عينيه، و الآخر يضربه بقسوة على وجهه، فيصرخ المعصوب صراخاً مكبوتاً من شدة الألم. لم أكن أعرف إن كان هذا الصراخ حقيقياً أم مفتعلاً و مقصوداً. تكرر الضرب و طالت مدته، فأخذت أشك بأنها خدعة في البداية، و لكن خدعة لمن! و ازداد الضرب، فسال دم من تحت عِصابة العينين. كنت أنظر خلسة إلى ما يجري أمامي، و لم أجد من المناسب أن يرى رجل الاستعلامات علامات الاشمئزاز على قسمات وجهي. انتهت العملية فجأة كما لو

Twitter: @ketab_n

كان هنالك دور يجب إكماله، و غاب الرجلان خلف أبواب الفناء، و خيم جو من الصمت بيني و بين الجالس وراء المنضدة.

بدأت أشعر بثقل الزمن. عند الغروب، عندما دخل رجل من الفناء بيده صحن مملوء بالأرز، و ملعقة في وسطه، قال لي: ربما تكون جائعاً. أخذت الصحن. لم أتمكن من مضغ لقمة أو لقمتين، ربما لأن الأرز كان بارداً و جمد عليه دهن أصفر اللون و أصبحت حباته تُقرَض تحت الأسنان، أو ربما لسبب آخر و أهم و هو الانتظار الممزوج بالقلق النفسي. فقد كنت مثبط العزيمة بهذا الاستدعاء الذي طال من غير مبرر بالنسبة إلي، و كنت أتوقع أن ينتهي في أي لحظة كما انتهت الاستدعاءات السابقة المتعددة من قبل و التي كانت سرعان ما تستنفد طاقاتها و تكتمل دورتها، و أعود إلى الحياة اليومية المعتادة.

التحقيق الأول

طال الانتظار و طال معه القلق، و لم أر أثراً لـ«زهير» بعد ذلك. حوالى التاسعة مساءً، جاء حارس و قادني إلى الفناء الصغير، و شعرت بالفرح عندما طلب مني مرافقته، بالرغم من وجهه العبوس. و قلت لنفسي لقد أوشكت أن تستنفد هذه الدورة من الاستدعاء طاقاتها و تنتهي. و مع ذلك امتزج هذا «الفرج» بشك و خوف، فلم كل هذا التأخير و التجويع و الصمت القاتل!

سلَّمني الحارس عِصابة العيون، كالتي على عيني الرجل الذي ضُرب أمامي، و طلب مني أن أضعها على عينيّ. فعلت كما طلب، من دون سؤال أو استفسار، و أخذت أتخيل أنواعاً من التعذيب. و لكن لماذا! هذه العِصابة مصنوعة من قماش أبيض اللون، فقدت لونها من كثرة الاستعمال و حال لونها إلى السواد لقذارتها، و قد تهرأت بعض

Twitter: @ketab_n

أطرافها و أصبحت ممزقة، و ملطخة ببقع من دم جامد عتيق. لم أشمها، أو لا أتذكر أني شممتها، و لم أعرف إن كانت رائحتها كريهة. كانت هذه أول تجربة لي أن أضع فيها عصابة على عيني.

قادني هذا الحارس إلى داخل البناية. مررنا بعدة ممرات، حتى وصلنا إلى حيز وسطي، فقادني إلى جدار وقفت مواجهاً له على بعد عشرة أو خمسة عشر سنتيمتراً، و قال لي ألا أتحرك أو ألتفت، وأن أجمد في مكاني، و يداي إلى الوراء. جمدت في مكاني لا أجرؤ على أن أتحرك. كنت أكتفي بأن أترنَّح ذات اليسار و ذات اليمين، و بالعكس، و العصابة ملفوفة على عيني فلم أكن أتمكن من رؤية أي شيء من تحتها، لأنني لم أعرف كيفية وضعها لأستفيد من فتحة ضيقة في أسفلها، غير مفضوحة بالنسبة إلى الحرس.

لا أدري كم طال هذا الوقوف أمام الجدار. كنت مرتعباً لأنني كنت أسمع صوتا غريباً جداً، يتردد بين حين و آخر، في هدوء غريب، لا يقطعه سوى صوت خطوات بصاطيل (جزم) الحرس. لم أتمكن من تشخيص هذا الصوت. كان أشبه بصوت صياح طاووس، يتكرر بين حين و آخر، من دون أن يكون لهذا التكرار نمط لأتمكن من تصور ما يمكن أن يكون. كيف يمكن وجود طاووس هنا، و لِمَ يتردد صوته في وقت متأخر من الليل؟ هل هو صوت لنوع جديد من التعذيب؟ أو صوت أداة للتعذيب؟ بقيت ملاصقاً للجدار و ملتزماً بالوقفة التي أمر الحارس بها. طالت هذه الوقفة لمدة تزيد على الساعة، أو ربما أقل، فلم أتجاسر على النظر إلى ساعتي، لأن رؤية الساعة كانت تتطلب حركتين: حركة اليد إلى الأمام، و حركة إحداث فجوة بين العصابة و وجهي، فلم أجرؤ على الإقدام على تلك الخطوة، إذ لا أدري إن كان ثمة حارس يراقبني في الحيز نفسه الذي أقف فيه.

Twitter: @ketab_n

لم أعرف ما عسى أن يكون سبب استدعائي، و لكن أحسست في قرارة نفسي بأن له علاقة بمشروع «عكاشات» و شركة «ويمبي» الإنكليزية، و هي علاقة مرّ عليها أكثر من عامين. كانت علاقة علنية و مشروعة، و كل ما تم من قِبَلي و المجموعة التي شكلتها للقيام بتلك المهمة التي يتطلبها دورها في ذلك المشروع، لا تعدو أن تكون إجراءات و تنظيمات متوافقة مع التعليمات و الأنظمة القائمة و ضمن اختصاصي كاستشاري. كنت أفكر في هذه الدوامة حينما جاء شخص و أخذ بذراعي و قادني خلال ممر طويل. تكرر ثانية ذلك الصوت الغريب و نحن في طريقنا إلى غرفةٍ ما. دخلت الغرفة و طلب مني بصوت هادئ و لطيف أن أرفع العِصابة عن عينيَّ و أجلس على أريكة. واجهت في تلك الغرفة محققين اثنين، أو ثلاثة. كان سؤالهم الأول: هل لك علاقة مع شركات أجنبية؟ فقلت: نعم، لي علاقة مع شركات أجنبية متعددة، و متعددة الاختصاصات و الجنسيات، منها الإنكليزية و اليابانية و الفرنسية و اللبنانية و غيرها. و ذكرت من بين الشركات الإنكليزية اسمين، و من بينهما شركة «ويمبي». فقالوا: حدثنا عن علاقتك مع شركة «ويمبي». فبينت لهم بالتفاصيل ما هي وظيفةِ الاستشارة و دورها في العمل الهندسي، و كيف حددت نقابة المهندسين دور الاستشاري المحلي في عمله مع الشركات الأجنبية. كما أخبرتهم أن وزارة التخطيط تشجع الاستشاريين المحليين للاشتراك مع الشركات الاستشارية و شركات المقاولات الأجنبية في المشاريع الكبيرة المعقدة و التي تتطلب تخصصاً متقدماً، و ذلك بهدف اكتساب هذه الخبرة أولاً، و دعم الاستشارة الأجنبية بخبرة محلية. ثم بيَّنت لهم، و بعد هذه المقدمة، أن هذه الشركة طلبت مني التعاون في مشروع «عكاشات»، فشكلت مجموعة العمل لمواجهة متطلبات

Twitter: @ketab_n

المشروع. يتضمن هذا المشروع مرافق متنوعة، كالمباني و الطرق و سكك الحديد و التعدين، و شرحت لهم أن تعمير المباني و الطرق يقع ضمن اختصاص مكتبي، و لذا فاتحتني الشركة بهدف التعاون و الاشتراك معها في العمل و تقديم العطاء إلى الدائرة المختصة. كما بينت أن علاقتي مع هذه الشركة مدوّنة في ملف موجود في المكتب، و أن المكتب لا يبعد أكثر من مئة وخمسين متراً، و يمكننا أن نذهب الآن، فهناك حارس يمكن أن يفتح الباب لنا، و نطّلع، لا على علاقتي مع هذه الشركة فحسب، بل على علاقاتي و تنظيماتي مع شركات أجنبية أخرى قد يزيد عددها على ثلاثين شركة، و هي علاقات مشابهة لتلك العلاقات و التنظيمات مع شركة «ويمبي». كما بينت علاقتي بمحمد و زهير و عدنان باعتبارهم أعضاء في الفريق الذي كونته لذلك العمل. قلت: كانت وظيفة «محمد» هي وظيفة محامي المشروع من النواحي القانونية مع الإشراف على النواحي المالية، لأنه عضو في مجلس إدارة مصرف الرافدين. و كانت وظيفة عدنان مراجعة الدوائر، خاصة دوائر الجمارك، لأنه كان ملحقاً تجارياً سابقاً في السفارات العراقية و له خبرة في مجال التسويق. أما وظيفة زهير فهي كمقاول ثانوي يقوم بتجهيز المواد المحلية كالرمل و الإسمنت و غيرهما، و له خبرة في هذا المجال لأنه مقاول بناء، و عضو في غرفة تجارة بغداد، أو موظف فيها. و بيّنت لهم أخيراً وظيفة المكتب الاستشاري العراقي الذي كنت أرأسه، و هي الواجبات الاستشارية التي تقع ضمن اختصاصات المكتب. و كذلك بيّنت أننا، أي المجموعة العراقية، انسحبنا من اشتراكنا في المشروع في المراحل الأولى من تفهم متطلبات المشروع، أي وجدنا أن المشروع معقد و يتطلب خبرات غير متوافرة لدينا، و لذا لم نُقْدم على دراسات تفصيلية لمتطلباته. و لا

Twitter: @ketab_n

علم لي هل استمرت شركة «ويمبي» في تقديمها العرض إلى الحكومة العراقية أم لا، و هل وجدت الشركة استشارياً محلياً آخر بدلاً عنا، كما أخبرتهم أنني لا أدري إن كان نُفِّذ المشروع بعد ذلك، أم لا؟

كان الاجتماع ودياً، و بدا المحققون متفهمين لما بيّنته من واقعيات العمل الاستشاري، و دور كل واحد منا في توزيع العمل. شعرت بأن ما وضحته من واقعيات ممارسة العمل، قد أقنع المحققين بواقع الحال، كما شعرت كأنهم كانوا مرتاحين و مقتنعين بما أبديته من معلومات. فطُلب مني الانتظار، و شعرت بأن دورة التحقيق هذه انتهت، و أصبح الأمر لا يتطلب أكثر من بضع دقائق قبل أن يُخلى سبيلي. فنادى احدهم على الحارس و طلب سَوقي إلى غرفة الانتظار، من دون أن يضع عِصابة على عيني.

لم أجد زهير في غرفة الاستعلامات و الانتظار، و حسبت أن التحقيق أُكمل معه قبلي، و خمَّنت أنه أُفرج عنه. استغربت الاستدعاء و التحقيق هذين، و ما هو المرجو منهما. فالموضوع هو ممارسة عمل استشاري مهني، و ما علاقة المخابرات به، أو أي جهة أمنية أخرى!

جلست في غرفة الاستعلامات و طال الانتظار. كنت في دوامة من الشكوك و الاستفسارات، و قد تجاوزنا منتصف الليل. جاء الحارس مرة أخرى و قادني ثانيةً إلى غرفة التحقيق. قال لي أحدهم، و كان أكثرهم دماثة، بنبرة لطيفة، لكن بجدية كما لو كان يعتذر، بأنه مضطر إلى إبقائي تلك الليلة في المخابرات، و نادى الحارس، فأخذني إلى الفناء نفسه، و طلب مني أن أُفرغ ما في جيوبي من محتويات، فسلمته المفاتيح و الدراهم التي كانت في حوزتي.

سألني كم من المال لديك، و كان ذلك بعد أن أخرجت

Twitter: @ketab_n

الدراهم. كانت الدراهم في يده، فقلت له: لا أعلم، فقال باستهزاء: «من كثرة فلوسه ما يدري،» ثم عدها و قال ٢٩ ديناراً. هل كان استهزاؤه حقداً على الاسم أم الطبقة، أم انتقاماً من موقعيَّ المهني و العائلي، أم بسبب طريقة لبسي و شكلي؟ لعل كل هذه العوامل قد ألفت نبرة السؤال، إذ لم يكن هدفه عاماً وتقريرياً، و إنما هو تعبير عن موقف عدائي: نحن اليوم تمكنا منك، و أنت في قبضتنا!

بعد أن انتهى من إفراغ جيوبي و تسلم محتوياتها، قال لي: «من الآن أنت «رقم»، لا اسم لك، و رقمك ٢٠٠، فانس اسمك، و لا تذكر لأحد اسمك الحقيقي، حتى الذين معك في الزنزانة، فأنت رقم ٢٠٠.» لقد ذكر زنزانة، وهذا يعني أني في طريقي إلى زنزانة، و لكن التحقيق لم يدل على أن هناك ما يتطلب توقيفي و وضعي في زنزانة. صمتُّ، و لم أنبس بأي كلمة أخرى.

ماذا لو انهال عليّ أحدهم بالضرب كما شاهدته قبل ساعات؟ ماذا كنت سأعمل؟ هل أصرخ، أم ألتزم سكوتاً مطبقاً، هل سأتحمل ذلك الضرب! ماذا يتعين علي أن أعمل! كاد يُغمى عليَّ، فلم أمر بتجربة مثل هذه من قبل.

كنت قد اعتُقلت في سنة ١٩٥٣ و احتُجزت منفرداً في زنزانة في معسكر الرشيد لمدة شهر، و لكني لم أتعرض لأي إهانة أو ضرب آنذاك، فأخذت أستعيد ذاكرتي لعلّي أجد حلاً لهذا المأزق. كنت في حيرة مرعبة. قال لي الحارس: ضع العصابة على عينيك. العصابة وسخة، من قماش يميل لونه إلى الرمادي الغامق، بسبب وساختها، و رائحتها نتنة، مبقعة، بعضها بدم متيبس لونه قريب إلى السواد، و البعض الآخر ليس بقديم. مسك بكتفي و أخذ يقودني، فسرنا معاً،

Twitter: @ketab_n

بلا كلام، و لكن ترددت بعض الشيء لأنني كنت جديداً بعهد استعمال العصابات، و كيفية التحايل عليها، فقال: «خايف؟» قلت: لا، قال: «اسكت»، فسكتّ.

وقفنا، بعد قليل من الخطوات، و صرخ بصوت عالٍ، «وسط»، و صوت من الأعلى أجابه «وسط». إذاً، كنت قرب درج يؤدي إلى طوابق عليا. كان صعود الدرج عملية سهلة لأن هناك فجوة بين العصابة و مسطح وجهي، تمكنت من خلالها من رؤية الخطوات الأفقية للدرج، كما أمسكت بالدرابزين الذي ساعدني بالصعود إلى الأعلى. و ما إن وصلت إلى ما اصطلح عليه بـ«الوسط» حتى أمسك بذراعي حارس آخر.

سرنا من ممر إلى ممر آخر حتى وصلنا إلى باب حديدي، مربوط بسلسلة حديدية. فتح أولاً قفل السلسلة، ثم فتح قفل الباب الحديدي، و دفعني إلى الداخل. سمع الذين كانوا في الداخل قرقعة فتح الباب. لقد كانوا في انتظار «رقم» آخر.

أخذ مني العِصابة قبل أن أدخل ظلمة الزنزانة. استقبلني «زملائي» الجدد بأيديهم لئلا أقع عليهم، و قادوني إلى موقع بينهم لأن الزنزانة كانت مظلمة. لم أستطع رؤية من كان فيها، و لكن بعد لحظات أحسست بأن أربعة أشخاص يشاطرونني الزنزانة. أصبحت خامسهم. كان هذا بعد منتصف الليل. فقيل لي: ارتخ و نم، و خصص لي موقع قرب الجدار عطفاً على الرقم أو الرفيق الجديد. و سألوني عن اسمي الحقيقي، فبينت لهم ذلك. كيف أتنازل عن اسمي، كما طلب مني الحارس. لم نكن نجسر على أن نرفع أصواتنا. كنا نهمس بما يدور في مخيلاتنا، و أحياناً نومئ بأيدينا. كنت بالكاد أسمع ما كان يقال

Twitter: @ketab_n

لي. كنت متعباً جداً و تمنيت لو أستطيع أن أنام. كان عليَّ أن أقبل الواقع الذي أنا فيه و أنام في انتظار النهار. اعتقدت أن هنالك خطأً ما، و لا بد من تصحيح هذا الخطأ غداً في النهار.

كنت لا أزال يقظاً، و في طور إيجاد وضعية بدنية مريحة للنوم، أو وضعية لا تعيقني عن النوم، و إذا بحركة السلاسل الحديدية و قرقعتها مرة أخرى لفتح قفل الباب ثانية. صرخ الحارس «٢٠٠ اخرج،» فقفزت من موقعي إلى خارج الزنزانة و سلمني الحارس العصابة مرة جديدة. وضعتها بطريقة تمكّنني من رؤية طريقي من خلال فجوة أحدثتها برفع العصابة قليلاً حيث ترتكز حافتها السفلى على أسفل أنفي. قادني إلى قرب الدرج، و صرخ: «أسفل»، و أجابه حارس آخر «أسفل»، فطلب مني أن أنزل إلى الأسفل، و هناك قادني الحارس الذي كان في انتظاري إلى غرفة المحققين مرة أخرى. كنت آمل أثناء نزولي الدرج و السير في الممر، أن يصحَّح الخطأ في الصباح، و أمنّي النفس بذلك. لم أكن أدري: هل أنا في كابوس أم في واقع!

تكرر التحقيق ثانية. الأسئلة نفسها و الأجوبة نفسها، و لكن بصيغة مختصرة جداً، كما لو كان استجواباً روتينياً. كان تحقيقاً مملاً، أو هكذا شعرت. بعد أن انتهينا من هذه الجولة، قال أحدهم: اخلع العصابة و تفضل معنا. كانوا لطيفين و مجاملين هذه المرة. ذهبت إلى سيارة برفقة اثنين من المحققين، و طُلب مني أن أدلهم على بيت محمد، فاتجهت السيارة نحو شمال بغداد. وصلنا دار محمد و ضغط أحدهم على زر الجرس، و لكن بلا جواب. الدار مظلمة و ليس هنالك أي مصباح مضيء، و بعد هنيهة قرروا أن نذهب إلى دار عدنان. بينت لهم أنني لا أعرف موقع الدار، فقالوا إنهم يعرفون

Twitter: @ketab_n

الموقع و قد ذهبوا إليه في المساء. وصلنا الدار. لم يكن أحد فيها أيضاً، و بدت كأنها مهجورة. فعدنا إلى دائرة المخابرات، و قادوني إلى زنزانة رقم «٢٦». انتهى يومي الأول في الزنزانة. كنت أعلم، و أنا واع تماماً، بأن ما يحدث ليس بحلم! لم أُبلَّغ ما هي التهمة الموجَّهة إليّ.

رفعة الجادرجي

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في ظلمة خارج جدران المخابرات

أُلقي القبض في اليوم التالي على محمد و عدنان. يختلف أسلوب اعتقال عدنان تماماً عن الأسلوب الذي اتُّبع مع رفعة. كان عدنان صديقاً لشقيق رئيس المخابرات سعدون شاكر، فاتصل به و شرح له موضوع صدور إلقاء القبض عليه. فاتصل بأخيه سعدون شاكر، و أخبره الأخير أن الموضوع بسيط جداً، و لا داعي للقلق من جانبه. و طلب منه أن يدعو عدنان إلى تناول طعام الغداء في «نادي الصيد».

ذهب عدنان بصحبة شقيقته التي قضى الليلة الماضية في دارها إلى «نادي الصيد». كان مرتبكاً وقلقاً عندما جلس إلى مائدة الطعام مع أخته و شقيق سعدون شاكر، و شعر بأنه طريدة تلاحقها كلاب الصيد لقنصها. أثناء تناولهم الطعام باغتهم شخصان من مديرية المخابرات، بملابس أنيقة و أحذية لماعة و نظارات سوداء، فتوقف الجميع فجأة عن الطعام. طلبا من عدنان أن يرافقهما. و لم تمض إلا لحظات حتى اختفى عدنان أمام ناظري شقيقته. ذكّرني أسلوب هذه الوليمة بتاريخ الولائم في العصور الساسانية و الرومانية و الإسلامية، حيث كانت تُقطَع رؤوس المدعوين، أو يسمَّمون أثناء تناولهم الطعام.

كان عدم إفصاح المسؤولين في دائرة المخابرات عن حقيقة الأمور

Twitter: @ketab_n

في تعاملهم مع الناس من صلب ما اعتمد عليه النظام في إدارة الأمور، لذا كان الخداع أحد الأساليب في التعامل مع الناس، كما كان الكتمان سلاحاً آخر اتبعوه في مديرية المخابرات.

مرّ محمد لزيارة نصير صباح اليوم التالي، بعد أن قضى ليلته خارج داره. كان مرتبكاً و القلق بادٍ عليه هذه المرة. لا يعرف ما ينتظره. و عندما وصل مقر عمله في الخان في سوق الشورجة، شعر بقبضة المخابرات تطبق عليه. كان بانتظاره شخصان و ليس باستطاعته الهرب.

اتصلت بي صباح اليوم الثاني تلفونياً صديقة العمر بتول، بعد غيابي الطويل عن بغداد، و سألتني بحرارة عن رحلتي إلى فيينا و عن صدى المعرضين و المحاضرتين في جامعتي فيينا و إنز برك. أجبتها باقتضاب، و أحست بأني أخفي سراً عنها. ألحت عليّ بالسؤال، فأخبرتها عن اعتقال رفعة. أجابتني على الفور، بأنهم عانوا المشكلة نفسها، فقد اعتقل أخوها المهندس محمود منذ ستة أسابيع تقريباً، و قد قضى أربعين يوماً في المخابرات، و لم يُفرَج عنه إلا قبل أسبوع، بعدما اتصلت زوجته مباشرة بنائب رئيس الجمهورية صدام حسين.

سألت: لماذا اعتُقل؟ و هو أستاذ مساعد في جامعة بغداد، و حصل على الدكتوراه بدرجة شرف من إحدى الجامعات في إنكلترا.

أجابت: اعتُقل بسبب اطّلاعه على كتاب سرّي يقضي بمقاطعة عدد من الشركات البريطانية الاستشارية، وجريمته أنه نسخ أسماء تلك الشركات على ورقة، كي يتجنب التعاون معها، و أفشى أمر ذلك لأحد أصدقائه، الذي ذكر بدوره تلك القائمة أمام شخص مرتبط بالمخابرات ليتأكد من صحتها. إن نص تلك القائمة كان قد نُشر في مجلة **ألف باء** الأسبوعية الصادرة في بغداد.

Twitter: @ketab_n

قضت زوجة أخيها ثلاثة أيام متواصلة، جالسة أمام التلفون، تحاول أن تتصل بنائب رئيس الجمهورية.

كان الاتصال التلفوني أحد الأساليب التي يستطيع من خلالها عامة الناس الاتصال بنائب رئيس الجمهورية، فيشرحون له مشاكلهم إن كانت مالية أو عائلية. و قد أضفى بذلك صورة شعبية على شخصيته و نجح باتباع هذا الأسلوب، فأصبح الحاكم الحقيقي، تلهج الناس باسمه، و عُلِّقت صورته بجانب صورة رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر في جميع الدوائر الحكومية.

نجحت أخيراً زوجته بعد ثلاثة أيام متواصلة من جلوسها أمام التلفون، تحاول الاتصال بالرقم السحري الذي سيحل مشكلتها. أصبح عدد من أهالي المعتقلين سجناء ذلك الرقم السحري، و كأنه يمثل كلمة السّر لمغارة علي بابا! فالناس بانتظار الفرج عندما يحصلون على ذلك الرقم، و يتوقعون أن باب السماء سيُفتح و تنهال عليهم بمعجزاتها.

أخبرته عن اعتقال زوجها، فطلب منها السيد نائب رئيس الجمهورية أن تمهله يومين ليسأل عن سبب اعتقاله، و تتصل به بعد يومين. و مرت بتجربة القلق نفسه ثانيةً، مسمّرة في كرسيها لمدة يومين أمام التلفون، محاولة الحصول على سماع ذلك الصوت السحري الذي طمأنها إلى أن زوجها بريء و سيعود غداً إليها و إلى أولادها.

انتظرت يوماً و يومين و ثلاثة، وشعرت بالقلق يكدِّر حياتها تدريجياً و يستولي عليها، و بثقل الدقائق و الساعات التي تدور أمام عينيها في عقارب الساعة الجدارية. لم يعد زوجها إلى داره كما وعدها نائب الرئيس! فاتصلت به ثانية، بعد أن قضت نهاراً آخر أمام التلفون.

Twitter: @ketab_n

أخبرته أن محمود لا زال معتقلاً. أبدى انزعاجه، و أكّد لها أن زوجها سيكون في داره مع أطفاله خلال بضع ساعات.

لم تمض إلا بضع ساعات على تلك المكالمة التلفونية، و إذا بالمهندس محمود بين ذويه و زوجته و أطفاله. عادت الثقة إلى زوجته كما تدب الروح بالجسد، و تلاشى اليأس و القلق و حل نور التفاؤل و الأمل.

أُطلق سراحه بصورة مفاجئة. وصل داره مرتدياً بيجامة ملطّخة بالدم. تفوح رائحة نتنة من جسده المدمّى بالجروح المتقرحة، لكثرة ما نهش بأظافره جلده الذي أصبح مرتعاً خصباً للقمل الأبيض، الذي كان يدب بين طيات البيجامة و الأغطية (البطانيات) التي زُوِّد بها المعتقلون في معتقل المخابرات. نوع جديد من أنواع التعذيب غير المباشر الذي كنا نجهله، و يُحرَم بذلك المعتقل من النوم في الليل.

كانت الخطوة الأولى بعد أن وصل البيت، التخلص من منظره المؤلم و المخيف، و تنظيف جروحه المتقرّحة و تضميدها و ارتداء ملابس لائقة، قبل مجيء الأقارب و الأصدقاء المهنئين بالإفراج عنه.

و بالرغم من كل ما مرت به زوجة المهندس محمود من قلق خلال اعتقال زوجها لمدة أربعين يوماً، و بالرغم من منظره المقزّز المخيف، فقد طفحت السعادة على محياها، و شكرت نائب الرئيس على تلك الهبة التي أنعم بها عليها و على عائلتها، فقد أعاد إليها زوجها من ذلك المعتقل الرهيب، معتقل المخابرات. و لكن لم يتساءل أهل المعتقل و ذووه، لمَ هي هبة؟ و ما الذي اقترفه ابنهم ليعامَل تلك المعاملة الجائرة؟ لقد نسي الناس أن للفرد حقوقاً، حقوقاً تمنع السلطة و الحكومة من التعدي عليها و انتهاكها. و أصبح أهالي

Twitter: @ketab_n

المعتقلين سجناء التلفون، وأسرى سماعهم وعداً من نائب الرئيس، كلٌّ منهم يمنّي النفس بتلك المكالمة السحرية، من خلال طلب الرقم السحري.

كانت العادة المتَّبَعة في السابق، في العهد الملكي، تفتيش الدُّور بعد اعتقال الفرد، فتُقلَب الكتب و تُبعثَر الأوراق بحثاً عن المطبوعات الممنوعة، المتعلقة بالاتجاهات اليسارية و التقدمية، و الكتب الشيوعية و الماركسية، أو حتى الليبرالية الديموقراطية منها.

و أول ما تبادر لنا - أنا و نصير - بعد إلقاء القبض على رفعة، جلبُ كل ما له علاقة بأوراقه الخاصة، و حرقها عندما يحل الظلام، لكي لا يطّلع أحد على ما نقوم به و نتجنب بذلك شك الجيران و الخدم الذين يعملون في النهار. كنا لا نأتمن إلا السائق حسين. و قد قمت بتلف أوراقنا الخاصة و «الخطيرة» بعد منتصف الليل.

خاف نصير أن يتعرض رفعة لأي أذى، فأصر عليّ على حرق كل شيء، مما أدى بي إلى حرق حتى الرسائل الخاصة بي و برفعة، التي بُعثت لنا خلال عدة عقود، من قِبَل الأهل والأصدقاء و المعماريين العرب و الأجانب. و كم أتألم الآن، عندما أتذكر حرق رسائل والدي محمد شرارة، التي كانت تكوّن بمجموعها تاريخ حقبة عاش معظمها في المنفى، بين الصين و موسكو و لبنان.

انتظرنا أياماً و أسابيع وشهوراً طويلة. و لم يأت أحد لا من الأمن و لا من المخابرات لتفتيش دارنا أو تفتيش المكتب طوال فترة اعتقاله، و لا حتى بعد أن صدر الحكم عليه. أحسست بأنني أواجه أسلوباً جديداً في الاعتقال، يختلف تماماً عما كنا نعهده في العهد الملكي، أو من دائرة التحقيقات الجنائية التي كان يديرها بهجة العطية.

* * *

Twitter: @ketab_n

مضت ثمان و أربعون ساعة على اعتقاله. التلفون في رنين متواصل. أمام نصير دليل التلفون يدير رقماً بعد آخر، و يعيد السؤال نفسه، و يسمع أجوبة مبهمة، غير صريحة، يشوبها الارتباك و التلعثم في الكلام و الاختصار أو اللف و الدوران في بعض الأحيان. يضع سماعة التلفون ثانية من دون الوصول إلى نتيجة ملموسة. طال الانتظار، و أصبحت الدقائق و الساعات مثقلة بما تحمل من قلق المجهول. لا ندري كيف غاب و اختفى رفعة من بيننا. لا ندري سبب اعتقاله أو الجهة التي اعتقل فيها، بل كنا نجهل مصيره تماماً.

و أخيراً، في يوم الاثنين ١٨ كانون الأول ١٩٧٨، دخل السائق حسين الدار و علامات الانتصار بادية على وجهه. لقد حل اللغز أخيراً، و عثر على المكان الذي اعتُقل فيه رفعة، و يعود الفضل في ذلك إلى ابنه الذي كان يعمل في مديرية الأمن، حيث أكدوا له عدم وجود اسم رفعة بين قائمة أسماء المعتقلين في مديرية الأمن. عندئذ تأكدنا من أنه معتقل في المخابرات.

* * *

تحوم أفكار غريبة في رأسي نهاراً، و لا تترك كوابيس الليل لي من الراحة وقتاً أستعيد فيه نشاطي، لأجابه اليوم التالي. شعرت بصعوبة الاستمرار في دوامة رتابة الحياة اليومية هذه، عندما تفقد طعمها و حلاوتها و يذوي الأمل تدريجياً و يخيم اليأس. مرّ أحد عشر يوماً و نحن في قلق و انتظار طويلين و متواصلين، كأنه انتظار لا نهاية له. عندما رن جرس التلفون في دارنا القديمة، لم أصدق في بداية الأمر أنني أسمع صوت رفعة. إنه حي! على قيد الحياة! كانت تلك اللحظة، لحظة أمل قلبت حياتي فجأة، و بعثت في رُكامي نبض الحياة.

Twitter: @ketab_n

أخبرني أن أعجل في الانتقال إلى دارنا الجديدة و أن أتصل بالنجار و الكهربائي لإنهاء الأعمال التكميلية، ثم استطرد قائلاً: «ما أريد تتبهذلين»! لم أفهم قصده في البداية، فقد أذهلتني المفاجأة، و ما لبث أن خمد الصوت فجأة بعد دقيقتين. صرخت بأعلى صوتي: هلو رفعة... رفعة! لم يجبني أحد! أعدت سماعة التلفون بيد مرتعشة، و جلست على كرسيّ أستعيد الجمل و الكلمات التي كنت سمعتها للتوّ، أمضغها علّي أستطيع هضمها. وفك رموزها صوت رفعة يسري في أذني، كلماته المتقطعة تطفو في ذهني، ما الذي قصد بكلمة «تتبهذلين»؟ و لِمَ أصر على الانتقال إلى «الدار الجديدة»! و الاتصال بالنجار و الكهربائي؟

كان لكل جملة أو كلمة لفظها معنى آخر. حلّلت مغزى كلماته، وضعتها تحت الميكروسكوب، لعلّي أعثر على المفتاح. عرفت أن وضعه سيئ جداً، و علينا الإسراع في إيجاد حلول أخرى، و ابتكار طرق و أساليب جديدة، و التوصل إلى نتائج ملموسة. أصبحت كلمة «الدار الجديدة» منذ المكالمة الأولى هي «الشيفرة» بيني و بينه. عرفت منه تدريجياً أسماء الأشخاص الذين علينا الاتصال بهم في النداءات التلفونية التي تلت هذه المكالمة. و استمرت تلك «الشيفرة» بيننا في كل مخابرة تلفونية، فكنت أفهمه و يفهمني في معظم الأحيان.

وجدت ذات صباح بعد اعتقال رفعة ببضعة أيام، جبرا إبراهيم جبرا و زوجته لميعة في غرفة ضيوف أم رفعة جالسين بين حشد من صديقاتها و جيرانها، و شعرت بالحرج الذي شعر به جبرا. كان جبرا الرجل الوحيد بين هذا الحشد من النساء، كسمكة ضلّت طريقها و التصقت بمياه مُوحِلة و ليس لها القدرة على الخلاص و الهرب. وجدت من اللياقة ألا نترك الغرفة مراعاة لشعور أم رفعة و صديقاتها،

Twitter: @ketab_n

فتحمل جبرا ذلك الحشد الكبير من النسوة البعيدات عن أجوائه و تفكيره. كان جبرا و لميعة متألمين لاعتقال رفعة المفاجئ، الذي لا نزال نجهل أسبابه.

تعود علاقتي بجبرا إلى ربع قرن، عندما كنت طالبة في كلية الآداب في بداية الخمسينيات. كان جبرا أستاذ الشعر الرومنطيقي و الترجمة. كان نحيفاً ضامر الوجه، متفرداً بشعره الأسود الطويل المجعّد، الذي يشبه شعر الشعراء الرومنطيقيين في القرن التاسع عشر الذين كانوا جزءاً من دراستنا.

كان يتقمص شخصية الشاعر عندما يقرأ الشعر، و ينقل لنا أجواء الحب و المعاناة في قصائد كيتس و شيلي و بايرون، و كأنه هو الذي عانى و قاسى و أحب، فيهيمن علينا عن طريق أستاذنا سحر أجواء أولئك الشعراء الرومنطيقيين. كنا لا نهرب من درسه، بل كان جميع الطلبة ينتظرون حصته بحرارة و شوق. و كان يُلقي المحاضرات في كلية البنات بالإضافة إلى التدريس في كلية الآداب.

كنت أقضي معظم فراغي في نادي كلية البنات مع صديقتي بتول، التي لم يسمح لها والدها بالدراسة الجامعية المختلطة. يختلف جو نادي كلية البنات عن نادي كلية الآداب، إذ كانت حلقات من الطالبات يحمن حول أساتذتهن كما تحوم الفراشات حول ذُبالة الضوء، و كان لجبرا دائماً حصة الأسد، يتوسط باقة من الطالبات المعجبات به، يطوقنه كما تطوق الأساور معاصمهن، يصغين إلى أحاديثه الشيّقة تتطاير نغماته مع الدخان المتصاعد من سجائرهن، و يرتشفنه مع قهوتهن الصباحية، كانت كل واحدة منهن تتصور أنها المقصودة باهتمامه، برغم أنه كان غارقاً في حب لميعة في تلك الفترة.

Twitter: @ketab_n

كانت لميعة تختلف تماماً عن جبرا. كان جبرا متسامحاً، رحب الصدر، يؤكد دائماً على النواحي الإيجابية و يتغاضى عن السلبيات في الحياة، و لذا لم يكن يتحدث عما عاناه عندما اضطر إلى ترك وطنه فلسطين، بل أفرغ تلك المعاناة معبراً عنها في رواياته و مقالاته.

أما لميعة، فكانت مزاجية في نظرتها و موقفها من الناس. قسمت الناس إلى قسمين: المحبوبين و المكروهين. كانت تتغاضى عن المساوئ التي يرتكبها المحبوبون، و لا ترى أي ناحية إيجابية و لا حسنة واحدة في تصرفات المكروهين لديها. و من حسن حظنا أننا كنا من المحبوبين، فكانت في دفاع متواصل إن مُس رفعة أو بلقيس بكلمة لا تعجبها، و كان يشطب اسم ذلك الشخص من قائمة لميعة و يصبح من المكروهين.

توثقت أواصر الصداقة الحميمة بجبرا و لميعة بعد أن عادا من الولايات المتحدة في منتصف الخمسينيات. كانت تربطنا بهما روابط فكرية عميقة، و لم ينقطعا عن زيارتي و زيارة رفعة في السجن طوال فترة المحنة التي مرت علينا. و قد قررت، بعد زيارة جبرا و لميعة لي في دار أم رفعة، أن أستقبل أصدقائي، ومنهم النحات محمد غني، إن زاروني صباحاً في داري.

كانت معرفتنا بمحمد غني منذ كان طالباً يدرس النحت في روما عام ١٩٥٩ ، فقد كان آنذاك مساعداً للنحات و الرسام جواد سليم في نصب تمثال ١٤ تموز، الذي صمم قاعدته رفعة، و قام بتكليف جواد بتصميم المنحوتات، فتم إنجازه في عهد عبد الكريم قاسم الذي كان رئيساً للوزراء آنذاك. كنا نلتقي بمحمد في المعارض التي كانت تقام ببغداد، و في اللقاءات الفنية التي تُعقَد بين الفنانين، أو في الاستوديو

Twitter: @ketab_n

الخاص به، إذ كان يرغب دائماً في الاطلاع على رأي رفعة في المشاريع الفنية المكلَّف بنحتها. و قد كُلِّف محمد بمشاريع نحتية مهمة في تلك الفترة، و لم ينقطع عن زيارتنا و زيارة رفعة حتى في السجن.

و كان الكاتب و المؤرخ نجدة فتحي صفوة، بحكم عمله، يتنقل بين لندن و بغداد في تلك الفترة، و كان يمر عليّ قبل سفره عادة، و كنا نقف أمام عتبة دار أبي رفعة في شارع طه، أسلمه رسالة خطية أو أشافهه إياها أحياناً. كنت أشعر بصدق كلماته، فلم تكن كلمات مجاملة بل نابعة عن محبة و إخلاص يكنّها لرفعة بصورة خاصة، و لعائلة الجادرجي بصورة عامة. لم أكن أثق إلا بالقلة من الناس و كان نجدة أحدهم، إذ لم تقتصر علاقة نجدة بعائلة الجادرجي على حسن الجوار و السكن في الشارع نفسه، بل كانت هنالك علاقة و رابطة فكريتان تجمعاننا به أيضاً.

* * *

عدت إلى داري بعد ثلاثة أسابيع. كنت متعبة من القلق و السهر المتواصلين اللذين تخللهما نوم متقطع بكوابيسه التي هزّت كياني. تتلاطم أمواج الألم و الحزن و تتقاذف رأسي كما يتقاذف اللاعبون كرة القدم، و تنقلب إلى مطارق من التعذيب، لا تتوقف عن الطَّرق المتواصل. شعرت بصعوبة العيش في ظل القلق و الانتظار. انتظار يشل النفوس و يجعلها عاجزة عن التفكير.

عدت إلى غرفة نومي، إلى رائحة فراشي أتقلب فيه بحريتي، أرمي الوسادة مرة و أُرجعها ثانية، و أعود و أضع الوسائد فوق بعضها لعلّي أستطيع النوم و أنا متكئة عليها، و أُبعد بذلك الأحلام المزعجة التي كبلتني كالأسيرة بقيودها الثقيلة. أغمض عينيّ أحياناً، لأسبح في

Twitter: @ketab_n

سماء النوم كطائر محلّق قبل أن يشعر بالتعب و يحط على الأرض، و أفتح عينيّ على واقعي المُرّ. كنت أنهض أحياناً من سريري، أتلمس بأصابعي سرير رفعة، أسمع كلماته تتأوه في أذني عبر الظلام «ما أريد تتبهذلين!» لتذوب و تختفي في صمت الليل الطويل، و أُغمض عينيّ على صورته لأغفو، و لكن يتردّد صدى صوته ثانيةً في مسمعي، يطنُّ بإلحاحه كطنين البعوضة التي أحاول أن أبعدها عن أذني، و يتردد طنينها « ما أريد تتبهذلين، ما أريد تتبهذلين. »

حاولتُ أن أرسم صورة واضحة له في ذهني، مما كان يصلني من الأخبار المتفرقة و المشتتة و المتناقضة، أجمعها و أنظمها كما تنظم قطع الموزاييك الصغيرة المختلفة الألوان، و لكنني لم أكن أصل إلى شيء ملموس في معظم الأحيان، و تبقى الصورة ناقصة مشوهة.

أصبحت سماعة التلفون الأداة التي تطمئنني إلى أنه ما زال حياً، فإن تأخرت المكالمة التلفونية عن أسبوعين، عادت الهواجس السوداء تنخر أحشائي. لم يكن هنالك وقت معين للمكالمة التلفونية. كانت مدة المكالمة التلفونية الواحدة لا تتجاوز دقيقتين، و كنت أسطّر الجُمل في ذهني مسبقاً، و أحفظ مقدَّماً ما سوف أقوله له. كانت الفترة الزمنية متباعدة و غير منتظمة، تتراوح بين عشرة أيام إلى أسبوعين أحياناً، و كانت معظم المكالمات التلفونية بين الثانية عشرة و الواحدة و النصف بعد الظهر.

كنت لا أترك الدار في تلك الفترة، لأنني في توقع دائم و مستمر لرنة جرس التلفون في دار أم رفعة. و إن لم أكن أنتظر في دار أم رفعة، فأكون بانتظار التلفون في دارنا الجديدة مع العمال و النجارين، فتناديني أم رفعة من الحديقة، بأعلى صوتها: «رفعة على الخط.» كنت

Twitter: @ketab_n

أتوجه نحو دارهم كالسهم، مختصرة الحديقة الواسعة التي تفصل دارينا، كي لا تفوتني الثواني التي كانت تُحسَب علينا. أرفع السماعة، أتوقف لحظة، ألتقط أنفاسي، أسمع دقات قلبي المتسارعة، أحاول كبت أنفاسي الممتزجة بكلماتي و جمل رفعة المتقطعة، أركز على كل كلمة يلفظها، أجيبه على وقع سرعة أنفاسي، قبل أن يخمد الصوت فجأة.

أفقت ذات يوم من الكوابيس التي طوقتني. شربت قهوة الصباح بسرعة، و تركت الدار لزيارة صديقتي بتول و عدت في رابعة النهار، فوجدت أم رفعة جالسة في «الطارمة» (شرفة الدار)، و السيجارة بيدها، و دموعها تنساب بصمت على خديها. نظرت إلى عينيها الدامعتين و قرأت فيهما اليأس و التشاؤم، و توقعت أخباراً سيئة. أخبرتني «أن وضع رفعة مو زين، و طلب إلغاء الحجز للنمسا.» عندما كنا في لندن حجزنا للسفر في شهر آب عام ١٩٧٩ إلى سالزبورغ لحضور مهرجان الموسيقى، الذي يقام في تلك المدينة كل عام احتفاءً بالموسيقار موزارت. حاولت أن أحصل منها على تفسيرات أكثر لأكوّن صورة واضحة في ذهني، فلم تجبني، بل استمرت تنساب دموعها بصمت. و قد أصبحت منذ ذلك اليوم سجينة البيت و التلفون، أنتظر رنة جرسه، حتى لا يغدر بي و يرنّ و أنا بعيدة عن تلك السماعة التي ارتبطت بها آمالي!

* * *

سألني رفعة في أول مكالمة تلفونية له عن «شوكت» و هو الاسم الذي أطلقناه على طاهر، أراد أن يعرف بذلك إن توصلنا إلى السلطات المسؤولة عن طريقه.

Twitter: @ketab_n

اعتقد منذ اعتقاله أن قضيته تعتمد على نجاحنا في العمل و الاتصال بالمسؤولين. كان مخدوعاً بطاهر كما خُدعنا به. فسألني: «هل استطاع «شوكت» إيصال الصورة المؤطرة؟» و قصد بذلك نائب رئيس الجمهورية صدام حسين.

كانت علاقتنا بطاهر سطحية، بسيطة، يتردد على مكتبنا الاستشاري العراقي. و لكن منذ اعتقال رفعة، تطورت علاقته بالعائلة، و أصبحت علاقة حميمة. كنا أطلعناه على محاولاتنا المتواصلة لإطلاق سراحه، بل كان مشاركاً فيها، إذ أوحى بأحاديثه عن المسؤولين بأنه صاحب نفوذ معهم، مما جعلنا نصدق ما يقول بل نعتمد عليه في كثير من الأحيان. زارنا بعد اعتقال رفعة بيومين و أبدى استعداده للاتصال برئيس المخابرات سعدون شاكر، و ادعى أنه يلتقي به أسبوعياً! و سيسأل عن سبب اعتقاله.

كان طاهر مسروراً بالدور الذي تقمَّصه، فقد اتجهت الأهمية نحوه من قبل أعضاء العائلة. وكان كلما زارنا، نجلس معه - نصير و أنا - في غرفة خاصة يحدثنا عما استطاع أن يتوصل إليه من نتائج مع المسؤولين.

بعد مرور أسبوع على اعتقاله، بدأت الشائعات تنتشر كدخان الحريق، و سرت كالنار في الهشيم، و رفعت الأفاعي رؤوسها و نفثت سمها. شائعات مختلفة، مُرّة المذاق، مختلَقة و لا أساس لها، لاكتها الألسن و وجدتُها طبيعية في جو الإرهاب و السرية المهيمنين على المجتمع في العراق. و كان ذلك طبيعياً عندما لا يوجد مصدر يستقي الإنسان منه المعلومات الصحيحة لمعرفة الحقيقة.

و لكن عندما تتحول الشائعات إلى نميمة، تصبح عندئذ مخيفة

Twitter: @ketab_n

فتتكاثف أحياناً و تنتشر عبر منعطفات الشوارع و الأزقة الملتوية ومقاهي المدينة، و تتسرب إلى البيوت و نوافذ الغرف، و ثقوب الأبواب و شقوق الجدران، فتصغي إليها الآذان بشغف و تضيف إليها المخيّلة و تنسج منها حكاية مشوّقة تتناقلها الألسن و تقصها كحكاية من حكايات شهرزاد. و لكن حكايات شهرزاد، تذيب الشك في نفس شهريار، و تخدّر أحاسيسه خلال همس الليل الطويل، فينام على أنغامها كما ينام الطفل على ترنيمة من ترانيم أمه. كان لصدى تلك الشائعات السامة في أذنيّ طنين خافت يتحول تدريجياً إلى صوت جارح مدوٍّ و إلى سهام حادة من الألم الذي ينساب ببطء فيجمّد الدم في عروقي، و ينقلب في الصباح إلى خثرة من الحزن الدفين.

كنت متعطشة إلى خبر جديد، إلى نتفة من خبر، إلى جملة، إلى كلمة، كعطش الظمأى إلى الماء في الصحراء القاحلة المقفرة. أصغي إلى ما يجري في البلد من أقاويل و شائعات تشوّه سمعة الإنسان. و كلما جفت، تعود و تنبع ثانية من منابع عديدة مختلفة. كنت أصبو إلى سماع الحقيقة التي أصبحت نادرة و توارت بين سُحب تلك الشائعات.

ضحكت ضحكة حزينة، عندما تناهى إلى سمعي أن رفعة يملك جزيرة في كاليفورنيا، إذ ربما كانت جزيرة «الكتراز» في خليج مدينة سان فرانسيسكو و التي كانت سجناً منيعاً لزمن قريب. شعرت بالسم يسري في عروقي و يشلني عندما سمعت أن رفعة سيصدر عليه الحكم بـ«الإعدام» بينما نحن لا نزال نفتش عن المقر الذي اعتقل فيه و لم نره قطّ!

كان طاهر ينصت و يصغي إلى تلك الشائعات المُرة في مذاقها،

Twitter: @ketab_n

ثم يضيف إليها من خياله الخصب، و ينسج الأخبار و الأحاديث و الحكايات المشتتة التي تناهت إلى سمعه من عموم الناس ومن أفراد عائلتنا، و يعيد حبكها بأسلوب شيّق جديد، قبل أن يقدمها لنا على طبق شهي المنظر، لذيذ الطعم.

مرت الأيام و نحن لا زلنا في الظلام. جميع الأبواب التي طرقناها موصدة أمامنا. فكرنا - أنا و نصير - في أن نسلك الطريق الذي يسلكه عامة الناس في العراق أثناء المرور بأزمة يستعصي حلها، فقد أصبح تقديم العرائض و المخابرات التلفونية و طلب مقابلة نائب رئيس الجمهورية، من الوسائل الطبيعية السائدة بين الناس، و أصبحت كما تُنذر النذور، و تُربَط «الخرق» بأقفاص أضرحة العتبات المقدسة، عندما يطلبون مرادهم.

كتبت رسالة موجهة إلى السيد نائب الرئيس صدام حسين، أخبرته باعتقال رفعة، و شرحت له ما قدمه من خدمة إلى البلد من خلال ممارسته و تطويره للعمارة. ولكن واجهتنا مشكلة أخرى: إيصال الرسالة؟

بدأنا نفكر بالطريقة التي نتبعها لإيصالها إلى نائب رئيس الجمهورية، فإن وضعنا نسخة منها في الاستعلامات الخاصة بالقصر، فستُهمَل و ترمى في سلة المهملات قبل الاطلاع عليها. فقد كانت ترمى مئات الأكداس من العرائض يومياً. ثم فكرنا بالاتصال بمازن الزهاوي الذي كان مترجماً لنائب رئيس الجمهورية في القصر، و لكن عزفنا عن الفكرة، عندما أخبرنا طاهر أنه مستعد لتسليم العريضة، بعد أن أخبرنا أنه حصل على موعد لمقابلة نائب الرئيس!

انتظرت على أحرّ من الجمر زيارة طاهر لنا. كانت غرفة أم رفعة

Twitter: @ketab_n

ممتلئة بالضيوف من الأقارب و الأصدقاء، تركتهم حالما لمحت طاهر يتكلم مع نصير، و جلسنا في الغرفة المجاورة.

أخبرنا أنه بعد أن قرأ نائب رئيس الجمهورية العريضة، قال له: إن التحقيق لم ينته بعد، و هو في المخابرات، و سيسأل عن السبب الذي اعتُقل من أجله. و طلب منه أن يتصل به بعد أسبوع. و هكذا استمر طاهر يخبرنا في كل مرة يلتقي بنا، فيقول إنه حُدد له موعد مع نائب رئيس الجمهورية، ثم يلغى الموعد فجأة أو يؤجل أسبوعاً آخر. و استمرت الحالة على هذا المنوال لأكثر من شهر تقريباً، و نحن في ترقب دائم. كان الوقت يمرّ سريعاً من دون أن نتوصل إلى أية نتيجة ملموسة. كنا - أنا و أم رفعة و نصير - نحاول بكل ما في وسعنا طَرق جميع الأبواب التي يمكن من خلالها الحصول على معلومات تتعلق بقضية اعتقال رفعة، و لكن مرّ شهر و لا زلنا في ظلام تام، نجهل السبب الذي اعتُقل من أجله.

جاءنا طاهر متحمساً، ذات يوم، وكان يوم جمعة. أخبرنا أنه أتى مباشرة من لقائه بنائب الرئيس، و هو اللقاء الثاني حسبما ادّعى. فقص علينا قصة طويلة، أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، و أخبرنا أن السيد نائب الرئيس طلب منه أن يرافقه بطائرة الهليكوبتر الخاصة به التي أقلتهما إلى مدينة تكريت، لتناول طعام الغداء مع أسرته. و استرسل واصفاً بدقة لون عباءة نائب رئيس الجمهورية، البني الفاتح من الوبر التي لفّ نفسه بها اتقاءً للبرد، و المحاطة جوانبها بالخيوط الذهبية. كانت بالطبع هي العباءة نفسها التي يلتف بها نائب رئيس الجمهورية عندما يظهر على شاشة التلفزيون. ثم وصف طعام «التشريب» الذي قُدّم لهم على مائدة الغداء، وأطال الوصف بالتفاصيل الدقيقة، لدرجة لا يمكن لفرد ما أن يعتقد أن حديث هذا الشخص الذي قارب الخامسة

Twitter: @ketab_n

و الخمسين من العمر، هو من نسج خياله. و بعد انتهائه من هذه القصة الطويلة، أخبرنا أن نائب الرئيس وعده بإطلاق سراح رفعة خلال أقل من أسبوع. ثم طلب مني أن أحاول الإسراع في إنهاء الأعمال التكميلية في دارنا الجديدة.

كنت أقترح على طاهر بين الفينة و الفينة، إن كان من الممكن الاتصال هاتفياً و الحصول على موعد لأم رفعة لمقابلة نائب رئيس الجمهورية، و كان يجيبني دائما: «ما الذي تستطيع أن تفعله أم رفعة أكثر مما قمت به أنا؟ و لماذا تعذّبون هذه المرأة المسنّة بالعمر، و تحمّلونها مشقة المقابلة؟»

كان بعض الأصدقاء يطلبون مني و يصرّون عليّ في بعض الحالات أن أتصل بنائب رئيس الجمهورية تلفونياً و أشرح له الموضوع. و كان طاهر، في كل مرة، يثبط عزيمتي و يشجعني على عدم الإقدام على تلك الخطوة. كنا نعتبره من أصدقاء رفعة المخلصين، و لا نشك بمثابرته على الحصول على مقابلة وزراء آخرين كوزير التخطيط و وزير الداخلية و غيرهما من المسؤولين المهمين في السلطة.

شعرتُ باليأس أمام جدار السلطة الشاهق الذي فشلت في تسلقه و اختراقه، و اعتبرت طاهر الكوة المضيئة في اختراق ذلك الجدار، و قد استطاع أن يتقمّص الدور و يمثله تمثيلاً بارعاً. كنت كالغريقة المتشبثة بقشة. صدقت خياله الخصب، الذي كان يضيف له صوراً جديدة ينسجها في كل زيارة لنا. وننصت إلى النغمة الخاصة التي كان يعزف عليها لحنه. كان طاهر مسروراً في دخيلة نفسه بما حظي به من الاهتمام من قبلنا، و أراد استمرار تلك الحالة، فتمادى في اختلاق القصص كدعوته إلى الغداء إلى مائدة نائب الرئيس.

Twitter: @ketab_n

صدقنا جميع المبالغات و القصص التي قصها علينا طاهر. كانت استحوذت على أبصارنا غشاوة منعتنا من معرفة الصحيح من الكذب و التمثيل، و ذلك طبيعي في الظروف الذي كنا نعيشها، حيث أصبح الهمس و الشائعات هما القاعدة، و فُقدت موازين العقل و التفحص و التميز. ولا أزال في حيرة من سلوك طاهر حتى اليوم، و لم أستطع معرفة السبب الذي أدى به إلى ذلك!

* * *

بعد مرور أكثر من شهر على اعتقاله، استطعت أن أعرف السبب و أكوّن صورة في مخيلتي عن حالته المزرية. زار مكتب نصير شخص سوري، كان معتقلاً معه في الزنزانة نفسها، و استطعت لأول مرة رسم صورة واضحة و متبلورة للحالة التي يعانيها، من خلال ما رواه ذلك الشخص.

كان رفعة في زنزانة طولها متران و عرضها متر و نصف، معتمة، لا يُسمح للمعتقلين فيها بالتعرض لأشعة الشمس إلا مرة كل عشرة أيام، و قد أُعطي لكل معتقل جديد رقم، من أجل أن ينسى المعتقل اسمه و هويته و ماضيه و مستقبله. كانت بمثابة محاولة قذرة لطمس وجوده و إلغاء كيانه كمواطن و إنسان. إنه مجرد رقم من الأرقام التي يُنادَى بها على المعتقلين الآخرين، و جُرّد بذلك من إنسانيته كفرد و أصبح ممسوخاً. فالرقم هو هويته.

كان تجويع المعتقلين سلاحاً نفسياً مهماً، متَّبَعاً في زنزانات المخابرات. الطعام في غالب الأحيان مقتصر على حساء خفيف أقرب إلى الماء منه إلى الطعام، و خبز و قليل من الأرز. كما استُعمل القمل الأبيض إضافة إلى التجويع كسلاح آخر في تدمير نفسية المعتقل و منعه من النوم، فتهاجم أفواج القمل جسده، متلذذة بمص دمه الطازج.

Twitter: @ketab_n

كنت خائفة من أن يتعرض رفعة للتعذيب الجسدي بالإضافة إلى التعذيب النفسي. فبالرغم من أن آلام التعذيب النفسي تقبع في أخاديد أعماق النفس و من الصعب إزالة آثارها، و لكن يستطيع الإنسان أن يتحملها و يعتاد بذلك على ما يتعرض له من إذلال و إهانة في العيش في زنزانة لا تحتملها حتى الحيوانات. قد يطوِّع الإنسان من قِبَل جلاديه على الجوع و العتمة و القمل، و لكن للإنسان طاقة محدودة على تحمل التعذيب الجسدي.

وجدت نصير مغتاظاً و منفعلاً مما رواه له ذلك المعتقل من تفاصيل رهيبة عن المعيشة في تلك الزنزانة.

كنت أجده في معظم الأحيان ميالاً إلى التشاؤم و السوداوية بالنسبة إلى ما يتعلق باعتقال رفعة، و قد أكد له الشخص السوري صحة موقفه و نظرته بهذا الخصوص. ربما كان متشائماً أكثر مني لمعرفته بمشاكل الناس و همومهم من خلال عمله كمحامٍ. كان قلقاً و متألماً بسبب اعتقال أخيه، و هو يعرف جيداً ما يعنِي الاعتقال و التعذيب، فقد تعرض لهما و قاسى من آثارهما في انقلاب عام ١٩٦٣.

تقصّد نصير إخفاء بعض المعلومات عني، و لكن بالرغم من ذلك، استطعت أن أكوّن صورة واضحة عن معاناة رفعة. لأول مرة عرفنا السبب الذي اعتُقل من أجله، فقضيته مرتبطة بقضية المدير البريطاني لشركة «ويمبي».

توالت علينا زيارات المعتقلين الذين أُفرج عنهم، و كان كل منهم يضيف قصة أو حكايةِ أو خادثة. من الذين التقوا برفعة في زنزانة المخابرات، شخص من البحرين، و آخر كردي، و ثالث موظف

Twitter: @ketab_n

بمديرية الإطفاء، و آخر أمضى في الزنزانة نفسها يومين بعد أن صدر عليه حكم بالسجن خمسة عشر عاماً.

و قد أضاف كل واحد من هؤلاء المعتقلين معلومات جديدة، كالخرزة في العقد، التي كنت أضيفها بدوري إلى الصورة التي كونتها في ذهني، و أخبرت عن عدد المرات التي حقق بها معه و عن «الشيفرة» الجديدة التي حلت محل «الشيفرة» القديمة، فقد أصبحت «هل صحته جيدة أم جيدة جداً، بدل الدار الجديدة.»

كانت زيارة هؤلاء الأشخاص متسمة بالشجاعة و الجرأة من جانبهم، إذ قد تكون نهايتهم وخيمة لو أُخبر عنهم.

* * *

أصبحت لا أفكر بالمستقبل و ما ينطوي عليه من أحداث، فقد طغت الآلام و عصفت بي و قلعت جذوري و أصبحت في حالة نفسية متأرجحة أعيش في إعصار دائم، أفكر بمصير رفعة القابع في زنزانة المخابرات! أخاف عليه من القفص الذي يحيا فيه، و أتساءل كيف يقضي ساعات النهار المعتمة و كيف يمضي ساعات الليل! و هل له القدرة على الاستمرار على الحياة في مثل ذلك القفص الذي يغيب فيه الأمل و تستحوذ على مساحته ظلال اليأس؟ و هل باستطاعة الإنسان العيش في مكان ليس له القدرة على معرفة الليل فيه من النهار؟ و هل يحتمل حياة في ظل جلادين ساديين مدربين، لا يفقهون من الحياة شيئاً، سوى تعذيب ضحاياهم و إهانتها؟ احتلت هذه الأسئلة فسحة كبيرة من ذهني، تغيب و تذوب صباحاً في مشاكل الحياة اليومية، و تطفو ثانية في صمت الليل المخيف، فتتدافع و تتلاطم ببعضها، تعذبني بطنينها المتواصل في رأسي.

Twitter: @ketab_n

صرت أتجنب حلول الغروب، أشعر بسحابته المعتمة جاثية على صدري، و أحس بالاختناق و صعوبة التنفس. أصبحت حالتي النفسية متلونة و متغيرة بشروق الشمس و غروبها. تشرق مع الفجر و تغرب مع الغسق.

كنت، في ما مضى، أتغنى بالغَسَق، و أنتظر بلهفة غروب الشمس، أحدق في قرصها الملتهب، يذوي أمام عينيّ ببطء. أحدق في السماء المضرجة بخيوطها الحمراء المنعكسة على ضفاف دجلة، على الماء المنساب ببطء، المطرز بأشجار النخيل المترامي ظل سيقانه الممشوقة على الماء، كأقلام فحم تعترض انسياب الحمرة المتلألئة.

كان هذا في ما مضى. أما اليوم فعدت لا أفكر باليوم كيف ينقضي. تغمر الشمس بدفئها المساحات المعتمة الباردة في أعماقي و يعود المساء كلعنة يجمّد تلك المساحات و يعصف بها كزمهرير قارس، مشوب بالقلق و الشك و الحيرة. لم تعد عتمة الليل تخيفني و لا الأرق الملازم لي، و لا الكوابيس التي شاركتني ساعات الليل بزحفها البطيء، و لكني أصبحت أتجنب مراقبة الغروب كل يوم.

أصبح الغروب يثير في نفسي أفول الحياة، فيُشعرني بالكآبة و الظلمة المخيمة على روحي. أصبحت زقزقة العصافير التي تلتجئ إلى أشجار الحديقة في المساء تتعبني و ترهق أعصابي. كنت أبتعد عن الدار، عن برودة جدرانها، عن الحديقة و سكونها، قبل أن يذوب و يختفي آخر خيط ملون في السماء.

***

تمضي الأيام و تتوالى الشهور، و لا نزال مراوحين في المأساة، لم نصل إلى أية نتيجة حاسمة من كلام المسؤولين المبطّن و المقتضب.

Twitter: @ketab_n

منذ اعتقال رفعة، حاولنا - أنا و نصير - ألا نعتمد على مصدر واحد في اتصالاتنا، كنا نحاول دائماً إيجاد سبل أخرى. و كنا نصل في بعض الأحيان إلى نتيجة و في بعض الأحيان لا نصل إلى أي شيء ملموس، بل نصاب بخيبة أمل و نشعر بالإحباط.

كان نصير على اتصال دائم بمكتب المقاول واركيس، الذي كُلّف ببناء المنشآت الخاصة بنائب رئيس المخابرات برزان التكريتي. كان يلتقي به أسبوعياً ليستقصي منه المعلومات. و كثيراً ما كان يلتقي واركيس بنائب رئيس المخابرات فيجده بحضور أشخاص آخرين، فلا يجرؤ على أن يسأله عن قضية رفعة، فتفوت علينا الفرصة، و يتأخر الاستفسار و السؤال أسبوعاً آخر، و نظل نعيش في دوامة من الانتظار و التوقع.

ذات يوم انتهز واركيس الفرصة المناسبة للاستفسار عن قضية رفعة. كان نائب رئيس المخابرات متحفظاً في إجابته: جمل قصيرة و مختصرة، و لكن استطعتنا من خلالها استطعتنا أن نفهم الاتجاه الذي تسير به القضية.

علمنا أن الموضوع الذي اعتُقل رفعة من أجله غير سياسي، و هذه خطوة مهمة، و أنه بريء، و سيفرج عنه قريباً. كانت أجوبة نائب رئيس المخابرات مطابقة للحالة النفسية التي كان يمرّ بها رفعة عندما يُسمح له بالاتصال بنا تلفونياً بين حين و آخر. علمنا أن التحقيق قد انتهى معه، و أن التقرير رُفع إلى رئيس المخابرات سعدون شاكر، و لكن لن يُبَت به قبل عودته من خارج العراق. كانت القضايا موزعة بين نائب رئيس المخابرات برزان التكريتي و رئيس المخابرات سعدون شاكر، وكان يتجنب كل منهما التدخل في قضايا الآخر. و قد كان من سوء حظ رفعة أن قضيته من القضايا التي تولاها سعدون شاكر.

Twitter: @ketab_n

سافر نائب رئيس المخابرات برزان التكريتي في مهمة خارج العراق لمدة أسبوعين، انقطعت خلالهما الأخبار عنا. و عند عودته التقى به واركيس و سأله ما حل بموضوع رفعة، فاستغرب السؤال، و أجابه: كانت معاملة الإفراج عنه منتهية تقريباً قبل سفري، و توقعت أنه بين ذويه الآن. و لكن بعد مرور أسبوعين، أخبره أن مجرى الأمور قد تغيّر، و فُتح تحقيق جديد بقضيته.

حاولت الاتصال بالدكتور فوزي القيسي وزير المالية آنذاك عن طريق صديقنا محمود. و لكن، بالرغم من صحته المتردية، بعد عودته إلى بغداد في نهاية شهر كانون الثاني، و معالجته من مرض سرطان الحنجرة، الذي انتشر في جسمه و لم يعد هنالك وسيلة لإيقافه، وافق على أن يتكلم عن قضية رفعة مع نائب الرئيس صدام حسين، و طلب مقابلته شخصياً.

تعود علاقتي بالدكتور فوزي إلى بداية الستينيات، عندما كنت سكرتيرة عميدة كلية البنات، وكان الدكتور فوزي محاضراً في الكلية. كان يقضي فرصة الانتظار بين الحصص في غرفة مكتبي، وكانت الدكتورة روز خدوري عميدة الكلية آنذاك، تترك مكتبها المجاور لمكتبي، و تأتي لتشاركنا أطراف الحديث، أو تشرب الشاي معنا.

كان الدكتور فوزي من الجيل المثقف، ضليعاً في الفكر، و محدّثاً لبقاً، يساري التفكير و الاتجاه، عاد إلى العراق بعدما تخصص بالاقتصاد في إحدى الجامعات الأميركية.

مرّت فترة و لم يحدَّد للدكتور فوزي موعد خاص بمقابلة نائب الرئيس. كان بصفته وزيراً للمالية يلتقي بنائب رئيس الجمهورية في اجتماعات مجلس الوزراء فقط، و لسوء حظنا كان متغيباً في معظم

Twitter: @ketab_n

تلك الاجتماعات لتردي صحته، و قد توفي بعدها بفترة قصيرة.

أقيم له مأتم في داره، و ذهب محمود بصفته موظفاً و صديقاً له، و استغرب من قلة عدد الحاضرين من الناس في مأتمه. ثم أضاف محمود قائلاً: ذهبت في السنة الماضية إلى مأتم شقيقة الدكتور فوزي، فلم أجد مكاناً خالياً لأجلس فيه، لكثرة الناس الذين جاؤوا لتعزيته بوفاة شقيقته. أما الآن فليس هنالك إلا حفنة من الأصدقاء و الأقارب الذين حضروا مأتمه! كيف تغيرت أخلاق الناس و تغيرت معها القيم و المقاييس؟ و هكذا صحت الحكاية الشائعة: « عندما نفقت بغلة القاضي خرج جميع أهالي بغداد للسير وراء الجثة، و لكن عندما مات الوالي لم يخرج أحد في تشييعه!»

* * *

نجحنا أخيراً في إيصال عريضة موقعة باسم أم رفعة طلبت فيها مقابلة السيد نائب رئيس الجمهورية صدام حسين، و لم يستطع مرافقه الخاص صباح مِرزا، أن يضعها على طاولته إلا بعد مرور أسبوعين من تسلمها!

أصبح تقديم العرائض لمقابلة السيد نائب رئيس الجمهورية أحد الحلول المهمة، عندما يستعصي على الناس حل قضاياهم بالطرق الاعتيادية. و قد اقتصرت في البداية على أهالي المعتقلين و السجناء، ثم شملت القضايا المالية. و أصبح من المعتاد أن يكتب إلى نائب الرئيس من يرغب بالزواج، عريضة يطلب فيها معونة مالية. و أصبحت «المغلفات» المحتوية على المبالغ المالية ظاهرة من الظواهر الجديدة في المجتمع! و لم يقتصر ذلك على الزواج، و إنما انتشرت عدوى العرائض إلى النساء العواقر اللواتي اعتبرن أن الله أنزل لعنته عليهن

Twitter: @ketab_n

و حرمهن من إنجاب الأطفال! كانت السويد آنذاك من البلدان المتقدمة في هذا العلم، فأصبح إيفاد النساء إلى السويد بصحبة أزواجهن لإجراء عمليات التخصيب أمراً طبيعياً. و كثيراً ما كن يعدن إلى العراق ليلدن أطفالا، و يطلقن على الأطفال الذكور منهم اسم نائب الرئيس، صدام. فلولا مكرمته، لما رأى أطفالهن نور الحياة.

اتصل القصر بأم رفعة، و حُدد لها موعد في يوم ٢١ آذار ١٩٧٩، الساعة الخامسة عصراً، في استعلامات القصر، لمقابلة نائب رئيس الجمهورية.

ذهبت وحدها في الموعد المحدَّد لها. كانت المواجهة خاصة بها و ليس هنالك غيرها. انتظرت في غرفة الاستعلامات، و لكن مرّت الساعات و ليس هنالك من له علم بموعد المقابلة. و عندما اتصل مسؤول استعلامات القصر بعد انتظار أكثر من ساعتين، أخبروه: أنهم لا علم لهم بالموعد، و أن نائب الرئيس خارج القصر، و يجهلون موعد عودته. طال انتظارها جالسة في استعلامات القصر حتى الساعة الثامنة مساءً، و فجأة شاهدت نائب الرئيس على شاشة التلفزيون، يخطب بحشد غفير من الناس في مدينة السليمانية. إذ إن ٢١ آذار عيد نوروز، و هو عيد قومي عند الأكراد. لم يكن يعرف حتى أقرب المقربين من الموظفين في القصر، أن نائب رئيس الجمهورية في السليمانية. عادت إلى الدار مرهقة و متعبة من الانتظار، و لاحت خيبة الأمل على وجهها من جديد، فقد بنت آمالاً عريضة على تلك المقابلة. و لكن حُدِّد لها موعد آخر، و ذهبت في يوم الجمعة ٢٣ آذار، و هو اليوم الذي كان نائب الرئيس يواجه فيه الناس عادة، و ينظر في مطالبهم.

يسكن نائب الرئيس في قصر الرئاسة، البعيد عن أنظار الناس في

Twitter: @ketab_n

وسط العاصمة بغداد، تحيطه جدران منيعة ببوابات يحرسها حرّاس مدججون بالسلاح متيقظون للسيارات التي تمر أو لركابها إن حدّقوا في بوابة القصر. و قد مُنع الناس من النظر إلى القصر من الجهة المطلة على نهر دجلة، بعزله و إحاطته بالحرس و الأضواء الكشافة و قوارب الحراسة التي تجوب نهر دجلة ليلاً و نهاراً.

دخلت أم رفعة غرفة استعلامات القصر، للمرة الثانية، و كانت تفيض بحشد من الرجال و النساء، كل منهم بيده نسخة من العريضة التي سيقدمها إلى نائب الرئيس. انتظرت مع الحشد الكبير من الناس، قرب البوابة الكبرى لقصر الرئاسة. بدأ المسؤول بقراءة الأسماء، فينتقل المُنادى عليه من صف إلى صف آخر عندما يسمع اسمه. جف لعاب المسؤول و هو ينادي بأعلى صوته الأسماء. التحقت أم رفعة بالصف الآخر بعدما سمعت اسمها. بعد الانتهاء من المناداة على الأسماء، سار مرافق أمام ذلك الحشد من الناس، ببزته و مشيته العسكريتين، وكأنه يقود فيلقاً إلى القتال. ساروا داخل حدائق القصر الواسعة، الأنيقة بتنظيمها و الثيل الأخضر الغامق اللون، و أزهارها الزاهية العطرة الرائحة. لم ينتبه حشد الناس إلى جمال الطبيعة و روعتها و رائحة الأزهار العطرة، بل كان همهم و تفكيرهم الوصول إلى بوابة مدخل القصر التي تبعد حوالى نصف كيلومتر كان عليهم أن يقطعوها سيراً تحت أشعة الشمس اللاهبة. فقد اجتاحت العراق موجة حر قبل أوانها في شهر آذار. كانت أم رفعة متعبة و مرهقة، تحمل العريضة بيد و منديلها بيد تجفف به حبات العرق التي انبجست على جبينها، فعطف عليها أحد رجال انضباط القصر، عندما شاهدها تجرّ قدميها محاولة اللحاق بحشد الناس، و أمر أن يقلها أحد السائقين إلى داخل القصر.

Twitter: @ketab_n

دخلت قاعة كبيرة واسعة، و اقتيدت من قبل المسؤولين إلى غرفة ثانية، وجدت فيها عدداً كبيراً من النساء و الرجال غير الذين شاهدتهم في غرفة استعلامات القصر. كانت هذه المجموعة متهيئة لمقابلة نائب رئيس الجمهورية. طُلب منها أن تكتب ثانية الغرض من أجل المقابلة، و سلّمت العريضة إلى أحد السكرتارية، الذي يصدر قراره بعد قراءتها إن كان الطلب يستحق المقابلة. أُحيلت بعد أن وافق السكرتير على عريضتها، إلى السكرتير الذي يمثل آخر مرحلة قبل مقابلة نائب رئيس الجمهورية، و تلاصق غرفته مكتب نائب الرئيس.

عندما حان موعد المقابلة، توزّع حشد الناس إلى مجموعات، كل مجموعة مكونة من أربعة أشخاص. قرأ عليهم السكرتير التعليمات التي عليهم أن يلتزموا بها قبل مواجهة نائب الرئيس صدام حسين: ترك جميع الحقائب النسائية في غرفة السكرتير، قبل المرور بالحاجز الالكتروني؛ تجنب مصافحته أو التقرب منه. و قد تقصّد بذلك أن يزرع هالة من الرهبة و الهلع في نفوسهم قبل مقابلته.

دخل الغرفة مع أم رفعة ثلاثة رجال، قدم الرجل الأول عريضته بيد مرتجفة، مرتبكاً من شدة الخوف و الرهبة اللتين هيمنتا عليه. نظر النائب إلى عريضته بسرعة و كتب عليها بلون من ألوان الأقلام التي أمامه، فلكل لون معنى. كان النائب صامتاً، شاخصاً نظره في العرائض التي أمامه، لا يتكلم إلا ما ندر، و لا يمزح أو يطيل الحديث إلا إذا كانت النساء بصحبة أطفالهن، هذا إن كان في مزاج مرح.

سلمته عريضتها بعد أن انتهى من عرائض الرجال الثلاثة.

قرأها، ثم قال لها: «أشو ما سلمتِ عليّ»، و من حسن حظ أم رفعة أنه كان بمزاج مرح.

Twitter: @ketab_n

أجابته: «وصّوني أن ما أصافحك قبل أن أدخل الغرفة.»

قال لها: «راح آني أصافحج ما زال هيج»، و تقدم نحوها و صافحها، ثم عاد و جلس خلف طاولته.

قالت : «جيتك من أجل رفعة».

قال: «خير شبي رفعة؟»

قالت : «ما تدري؟ مو هو موقوف، و صار له مئة يوم.»

قال لها : «ثقي بأن لا علم لي بذلك، وهل تعلمين أين موقوف؟»

قالت له: «نعم بالمخابرات.»

أجابها: «إن هذه الأمور بيد السلطات المعنية.»

أجابته: « أنا لا أعرف السلطة، أنت السلطة بالنسبة إلي، مو أنت الشجرة و هم أغصانها، أنت الأصل و هم الفرع.»

ارتاح نائب الرئيس إلى هذا القول الصادر من زوجة كامل الجادرجي، فترك طاولته ضاحكاً بأعلى صوته متجهاً نحوها، مربتاً على كتفيها بيده، قائلا لها «أنت مثل أمي، راح أسأل عن الموضوع و غدا يتصلون بيج.»

قالت له: « طوّل الله عمرك يا ابني، أنت الابن الكبير و رفعة أخوك الصغير، و آني مثل أمك.»

ثم طلب إلى السكرتير أن يوصلها سائق من القصر إلى دارها، فأجابته بأنها لا تحتاج إلى ذلك، لأن سائقها الخاص بانتظارها. فأمر بأن يقلها سائق إلى باب الاستعلامات. طمأنها النائب بعد أن تركت الغرفة و اتجهت نحو غرفة السكرتير لأخذ حقيبة اليد، و قال لها «إن

Twitter: @ketab_n

شاء الله خير»، كما تكررت تلك الجملة من قبل السائق الذي أقلها إلى باب الاستعلامات.

وصلت أم رفعة متعبة و لكنها كانت مسرورة من المعاملة الخاصة التي عوملت بها من قبل نائب رئيس الجمهورية صدام حسين. كنا بانتظارها و جلسنا حولها، بصمت مطبق و آذان مصغية، متلهفين لسماع التفاصيل الدقيقة التي بدأت تقصها علينا. أطلت إشراقة التفاؤل و الابتهاج على تقاسيم وجهها المتعب، و ابتسامة رقيقة لم تفارق شفتيها عندما كانت مسترسلة بحماسة تسرد تفاصيل زيارتها إلى القصر. لم يحاول أحد منا مقاطعتها، بل تركنا الأسئلة الحائرة التي كانت تقضّ آمالنا حتى انتهت من الكلام، ثم انهالت الأسئلة عليها من كل حدب و صوب، من جميع أفراد الأسرة الذين كانوا متعطشين لمعرفة المزيد عن تلك المقابلة. كانت تجيبنا عن أسئلتنا بثقة الواثق المتفائل. لأول مرة تغلب الأمل على اليأس في دارنا منذ اعتقال رفعة، و ساد التفاؤل بين أفراد الأسرة، و لأول مرة نمت ليلة خالية من الكوابيس التي كانت تقض مضجعي و تتركني أسيرة لأرق لم يبرح لياليَّ المئة الماضية.

تلقّت أم رفعة، في اليوم التالي، اتصالاً تلفونياً من شخص من القصر، سألها عن تاريخ اعتقال رفعة و عنوان الدار.

عشنا في انتظار دائم لمدة ثلاثة أسابيع، لم يتصل خلالها بنا أحد تلفونياً، و لم نتسلم جواب العريضة، و بدأ الأمل يذوي تدريجياً و يستحوذ علينا اليأس ثانية.

لم ننجح في محاولتنا عندما حاولنا الاتصال بالسيد نائب الرئيس من خلال التلفون العام الذي خُصص لعامة الناس، و لكن حصلنا على رقم تلفون آخر لأم رفعة؛ و عند أول محاولة لها، سمعت صوتاً قائلاً: نعم.

Twitter: @ketab_n

قالت: «هل أستطيع التكلم مع السيد نائب رئيس الجمهورية؟»

أجابها: «يتكلم».

قالت له بصوت متهدج خائف: «أنا أم رفعة».

فوجئ بصوتها و هي تتوسل به قائلة: «قلت هم راح يخبروج، أشو ما خبرني أحد؟ مو آني أمك و أنت ابني الكبير و رفعة أخوك الصغير، فدوه، يا عيوني أريده منك، و الله يطول عمرك و عمر أولادك.»

أجابها جوابا مقتضباً: «العدل سيأخذ مجراه، و لا تخابرين بعد الآن.»

أعادت أم رفعة سماعة التلفون. حطام امرأة، بعينين مغرورقتين بالدموع و قلب مثقل بالحزن. انسابت دموعها بصمت على خديها المجعدين الشاحبين، و على قسمات وجهها الذي حفر الزمن القاسي أخاديده فيه. نظرت إلى وجهها المتغضّن الحزين، و عينيها الدامعتين، متسائلة في أعماق نفسي: أهذا ما آلت إليه أم رفعة في خريف حياتها؟ حطام من التوسل و الابتهال للسلطة، علهم يعطفون على حالها و يفرجون عن ابنها!

جاء الطباخ جعفر معلناً وقت الغداء، فاتجهنا جميعنا نحو غرفة الطعام و جلسنا منكّسي الرؤوس حول المائدة، متفادين تلاقي نظراتنا. تكورت اللقمة في فمي، ألوكها بين أسناني، و لا أستطيع مضغها. نظرت إلى الآخرين، فإذا ببعضهم يكتفي بأن يحرك الملعقة في الصحن، من دون أن يرفعها إلى فمه. عمَّ الوجوم و ساد صمت رهيب و حزن قاتل، كأننا فقدنا عزيزاً بيننا.

لم أعد أرى إلا فراغاً معتماً بعد أن أوصدت السلطة بابها الواسع

Twitter: @ketab_n

بوجهنا، فقد عجزت عن اختراق ذلك الجدار الشاهق الارتفاع، و حل اليأس الذي كنت أعيشه بكل سماته، و زاد القلق الذي نخر أحشائي ليل نهار. شعرت بصِغَر شأني كذرّة من ذرات شاطئ رملي تحركها الرياح كيفما تشاء. حاولت طرد الأفكار المعتمة، ولكن انطبعت جملته الأخيرة في ذهني «العدل يأخذ مجراه،» وكأن هنالك عدلاً و محكمةً و حكاماً مستقلين، و شهوداً حياديين، و كأننا نعيش في ظل نظام المتهم فيه بريء حتى تثبت إدانته!

إننا نحيا في العراق! و جملة «العدل يأخذ مجراه» جملة تنم عن الثقة و الاطمئنان، إن كانت هنالك عدالة و قوانين عادلة تطبَّق بحق الفرد! إن «العدل يأخذ مجراه» لها غير تلك المعاني في بلدنا. إنها نهاية مصير المتهم، فالمحكمة صورية و سرية، و الحكم مسبق، و محامي الدفاع عضو حزبي، تعينه المحكمة، و دوره في الدفاع هو تأييد ما يُصدره الحاكم من أحكام.

و لكن، بالرغم من ذلك، لم نتوان - أنا ونصير - عن طَرق أبواب أخرى، بعد أن أُوصد «باب السلطة» بوجهنا. كان العراق يمرّ بموجة من النشاطات العلمية و الأدبية و السياسية. كانت الطائرات العراقية في حركة متواصلة، تقل الوفود، تحط بوفد جديد في مطار بغداد، لتقلع منه بوفد آخر. فالمؤتمرات متتالية، و الندوات الأدبية و الاقتصادية و السياسية متعددة. و لا ينتهي مؤتمر، حتى يبدأ آخر. فقد شهدت بغداد فورة من زيارات الوفود المتواصلة، التي لا يحصى عددها.

كنا ننتظر وصول تلك الوفود المختلفة لعل لنا معرفة ببعض منهم، نلتقط أسماءهم كما يلتقط صياد السمك سمكه بعد انتظار طويل، فيحتفظ بالسمك الجيد الكبير و يرمي الرديء منه، و يعود ثانية إلى

Twitter: @ketab_n

النهر بانتظار صيد آخر. كنا نرمي السمكة إن كانت غير مفيدة، و نتحسر على الوقت و التفكير اللذين قضيناهما في الحصول عليها، و نشعر كأننا كنا نصيد في الظلام. ولكن بالرغم من الإحباط، نعود ثانية في انتظار وفد جديد و صيد سمكة جديدة.

كانت تلك الوفود تقيم في أحسن الفنادق و تقدَّم إليها أطايب الأطعمة، و في بعض الأحيان مغلفات من المال الـ«بخشيش» لتبقى رائحة البلد العريق، بلد الحضارات، مرافقة لهم في رحلتهم بعد عودتهم إلى بلادهم!

كانت لنا معرفة ببعض أعضاء الوفود، وكانت الوفود على مراتب و درجات، منهم ذو وزن خفيف، و منهم ذو وزن ثقيل. كنا نحاول «صيد» أعضاء الوفود ذوي الوزن الثقيل، فلكلماتهم صدىً مسموع يصل أسماع السلطة.

و لذا حضرت إحدى الدعوات التي أقامها نصير في مطعم «خان مرجان» تكريماً لبعض أعضاء الوفود، بحجة زيارة عبد الوهاب الكيالي إلى بغداد. كان جالساً بجانبي أعضاء مهمون في القيادة القومية، منهم من أبدى تأثره، كزهير القادري في مكتب سكرتارية القيادة القومية قائلاً لي:

«في إنسان يجرح نفسه و هو واحد من عندنا!»

أما نيقولا الفرزلي أحد أعضاء القيادة القومية، فكان جالساً بالجانب الآخر، و هو من البعثيين القدامى، و محدّث لبق، فانطلق يتكلم عن لبنان وما أدت إليه الحرب الأهلية من تدمير لبلده، ثم التفت موجهاً الكلام لي: إن داركم في «حالات» في المنطقة المنعزلة، و أنتم محاطون بـ«الانعزاليين» - كان هذا الاصطلاح يطلق على جماعة

Twitter: @ketab_n

الكتائب آنذاك - فلم لا تبيعونني الدار؟ أجبته: إن رفعة معتز بهذه الدار، و لا ينوي بيعها.

استمر نيقولا بمزاحه و روح الفكاهة التي كانت غالبة على كلامه، ثم انقلب مزاحه في نهاية السهرة إلى مزاح عن الحزب، مما أغضب زهير و طلب منه بحدة أن يكف عن مثل هذا الكلام. فلا يمكن لبعثي في مركز قيادي، التساهل، حتى و لو كان الكلام مزاحاً، فالمسؤولية تقع في النهاية على عاتقه.

اتصل عبد الوهاب و رغيد الصلح بمدير المخابرات سعدون شاكر. كان أول سؤال وجهه إليهما: من أين لكما معرفة برفعة الجادرجي؟ و ما هي العلاقة التي تربطكما به؟ كانت السلطة تتجنب مثل تلك الاتصالات و تعتبرها تدخلاً في شؤون البلد الداخلية و لا يشجعون على ذلك النوع من الوساطة. و ليس باستطاعة السائل إخفاء شيء عنهم، و لذا، أجابا حالاً بأن معرفتهما برفعة عن طريق صديق آخر هو جورج، زوج ابنة خالة رفعة.

كانت السلطة متقصدة خلق مثل هذا الجو الذي يضفي صبغة من الشك على من يتجرأ على الاستفسار، فيجعل السائل متردداً في السؤال أو متراجعاً عن الخوض في تلك المواضيع. و لذا، تلكأ عبد الوهاب في الاتصال بنا عندما زار بغداد ثانية، و لم يتصل كعادته لئلا تحوم حوله الشكوك، فقد نصحه عدد من البعثيين المهمين في الحزب بألاّ يسأل عن قضية رفعة، زارعين بذلك الشك و الخوف في أعماقه، قائلين له: «شيخصك و ليش تدخل نفسك بها الأمور؟ ما تخاف على نفسك؟» أثرت تلك النصائح فيه، و لو بصورة غير مباشرة، و انساب الرعب في الأعماق و شمل حتى أولئك الأشخاص المدللين، ذوي الامتيازات الخاصة من قبل السلطة.

Twitter: @ketab_n

كان عبد الوهاب من الأصدقاء الذين كنا نلتقي بهم في سفرنا خارج العراق. كنا نقضي معه و مع زوجته وقتاً ممتعاً، و آخر مرة التقينا به قبل اعتقال رفعة، كانت عندما زارنا في لندن، وكان عائداً من زيارته إلى العراق، بعد أن حضر مؤتمر القمة العربية الذي عُقد في بغداد عام ١٩٧٨، و قصّ علينا تفاصيله. كان مسروراً من نتائج المؤتمر و متوقعاً أن العراق سيتقلد زعامة الدول العربية و يحل بذلك محل مصر بعد أن اعترفت بإسرائيل.

لم يتصل عبد الوهاب بي عند زيارته بغداد، و لكني بالرغم من ذلك، اتصلتُ به ثانية و ذهبت في اليوم التالي من وصوله، بصحبة نصير إلى «فندق بغداد». بعد أن جلسنا، فتح التلفزيون بأعلى صوته، متبعاً بذلك تحذير الأعضاء البعثيين له. فقد أصبح فتح التلفزيون بأعلى درجاته الصوتية واسطة تشويش على آلات التنصت القابعة في كل زاوية من زوايا غرف فندق بغداد، و التي تلتقط الحديث الذي يدور فيها. أصبح معروفاً أن لجدران غرف الفندق آذاناً. إنه الفندق الوحيد الذي يقيم فيه الصحافيون الغربيون و الوفود الأجنبية في تلك الفترة. لذا، دار حديثنا حول مواضيع عامة، بعيدة عن الموضوع الذي جئنا من أجله.

و لكن رافقنا عبد الوهاب إلى باب الفندق الخارجي، لكي يستطيع أن يتكلم بحرية عن قضية رفعة.

اتصل بنا في اليوم التالي بعد أن شاهدته على الشاشة التلفزيونية، جالساً بجانب سعدون شاكر رئيس المخابرات. قال: لقد كلمت «صديقي» و يقصد بذلك سعدون شاكر، خلال دعوته لي إلى الغداء في «الحبانية». انتهى التحقيق مع رفعة، و سيحال إلى محكمة الثورة.

Twitter: @ketab_n

هنالك أدلة و اعترافات عليه من مدير شركة «ويمبي» البريطانية.

حاول عبد الوهاب أن يحصل على معلومات مفصلة، و سأل رئيس المخابرات هل من الممكن عدم إحالة رفعة إلى محكمة الثورة؟

أجابه سعدون شاكر: «هي مو هل كد مهمة، بس لازم يمر بالمحكمة، و هي شيء بسيط و شكلي جداً، ربما يحكم شهرين مو أكثر، أو المدة التي قضاها في المعتقل.» كان مقتنعاً بما قاله له رئيس المخابرات، إذ لم يكن يفهم لغة المسؤولين العراقيين، و هي لغة خاصة بهم تنم عن الخداع و الكلام المبطَّن.

وجدت نفسي أتأرجح ثانية بين اليأس والأمل. و عادت الحياة اليومية تستحوذ مراراتها ثانيةً على حياتنا و تسيِّرها بمجراها، فقد أصبحت قصتنا كـ«سالفة الحية» و هي في تحول و تغير دائمين.

* * *

طرقتُ باب عبد المجيد الرافعي هذه المرة، بصحبة رغيد الصلح و لمياء ابنة خالة رفعة، التي جاءت من إنكلترا إلى العراق لحضور مؤتمر عن الآثار يُعقد سنوياً.

كان عبد المجيد أحد أعضاء القيادة القومية المهمين، و يتغير رقم هاتفه كل شهر آنذاك، حماية له. كان لطيف المزاج، و يمزح طوال الوقت. بدأ بسؤاله: ما رأيك بهندسة هذه الدار؟ أكيد زوجك لا يرضى عن مثل هذه الهندسة إذا شاهدها.

كانت الدار قبيحة بألوانها و أثاثها، خالية من الانسجام، بالرغم من محاولات زوجته تغيير بعض ملامحها، و لكن ما زال القبح و عدم الانسجام هما المسيطرين عليها. ثم أضافت زوجته بلهجة أميَل إلى الشكوى: «لقد اضطررنا إلى قبول هذه الدار المؤثثة من قبل الحكومة،

Twitter: @ketab_n

فلم يكن عندنا بديل آخر عندما وصلنا بغداد.»

أعاد عبد المجيد الرافعي عليّ كلام عبد الوهاب الكيالي بشكل آخر، بعد أن سأل عن قضية رفعة من سعدون شاكر رئيس المخابرات، مردداً جملتين: «اعترافات مدير شركة «ويمبي»، وإحالة رفعة إلى محكمة الثورة!»

تسلل اليأس إلى نفوسنا، وذوت بقعة الضوء التي كنا نتخيّلها. هل نتوقف عن طرق أبواب جديدة، أتنتهي بذلك الحكاية؟ كما كانت تنتهي حكاية شهرزاد في الصباح، أم نستمر كما كانت شهرزاد تستمر بها كل ليلة محافظة على سيرورة حياتها؟

لم يبق أمامنا إلا «ورقة» واحدة بعد الإحباط المتواصل الذي شعرنا به، و ربما تكون «ورقة رابحة»، و تعيد فتح الأبواب الموصدة أمامنا ثانية. و ربما تفتح ثانية بسحر عصا الضغط من خارج البلد، فلعل له نكهة مختلفة، و مفعولاً أقوى! و عسى أن يؤدي إلى نتيجة ملموسة.

كان من بين الوفود التي دُعيت إلى العراق آنذاك، وفد لحضور مؤتمر الشعراء والكتّاب العرب، و من بين الذين دُعوا إلى هذا المؤتمر الشاعر الفلسطيني الأصل و القاطن في سوريا عبد الكريم الكرمي، الملقَّب بأبي سلمى، و كان من المعجبين بأبي رفعة. التقى به نصير و دعاه إلى الغداء في دار أم رفعة، و أخبره عن اعتقال رفعة، فأبدى استغرابه، و وعد أن يتصل بالأستاذ ميشيل عفلق، فيلسوف الحزب، و يطلب منه أن يكلم نائب رئيس الجمهورية.

اتصل أبو سلمى بميشيل عفلق كما وعد. فقد جاء عفلق إلى بغداد بمناسبة الاحتفال بـ ٨ شباط، و هو الاحتفال بالانقلاب الذي قام

Twitter: @ketab_n

به حزب البعث عام ١٩٦٣. انتهز أبو سلمى هذه المناسبة و شرح له موضوع اعتقال رفعة، فأجابه: «إنها قضية داخلية،» و هو لا يتدخل بالأمور الداخلية. لكنه وافق على أن يكلّم نائب الرئيس بعد إصرار أبي سلمى عليه.

مرّ شهر على ذلك اللقاء، و التقى ميشيل عفلق عدة مرات بنائب رئيس الجمهورية، و لكنه ادّعى أنه نسي مفاتحته بموضوع اعتقال رفعة، مما أدى إلى غضب أبي سلمى و تأنيبه على سلوكه و تخاذله أمام نائب الرئيس.

شاع التفاؤل في أجوائنا بعد اليأس و القنوط، و لم تمض إلا ثلاثة أيام حتى جاء شخص إلى دارنا بسيارة «بيجو» بيضاء اللون، و كانت تلك سيارات المخابرات المفضّلة، و طلب منا نظارات القراءة لرفعة. جلبت كل ما وجدته من النظارات القديمة و الجديدة منها.

عندما كنت أفتش عن النظارات، كانت أم رفعة تلقي محاضرة طويلة على أسماع ذلك الرجل، وكأنها تتكلم مع نائب رئيس الجمهورية، و أعادت إلي مضمون كلامها: «هيجي تجازون أبو رفعة، لولاه وين جانت الثورة؟ مو بصايته جيتو للحكم!» و تقصد بذلك ثورة عام ١٩٥٨.

كان ذلك الشخص مؤدباً جداً، أنيق المظهر، من مديرية المخابرات، التي ترمز إلى كل ما يجسّده هذا الاسم من تعذيب و رعب بين الناس. كان يجيبها بين آونة و أخرى بكلمة «تمام»، ثم استطرد و كرر مرات عديدة «رفعة بريء، و إنسان لطيف،» و التفت إليّ قائلاً: «إن رفعة بحاجة إلى النظارات ليطالع المجلات و الجرائد.» بالطبع إنها كذبة و خدعة أخرى من خدع العاملين في المخابرات.

Twitter: @ketab_n

اعتقدت أن التحقيق قد انتهى معه، و يحتاج إلى النظارات لكي يقرأ ما سوف يوقّع عليه. كما اعتقدت خطأً أن الفضل يعود بذلك إلى الأستاذ ميشيل عفلق، بمفاتحته السيد نائب رئيس الجمهورية بقضيته. و هكذا عشت في مغارة الأوهام، و بنيت آمالاً كانت أسسها من الرمال.

* * *

اتصلت بالمحامي أحمد الزين أحد أقاربي في بيروت، وكانت له علاقة جيدة بمعظم أعضاء حزب البعث اللبناني، فأخبرني أنه سيرافق وليد جنبلاط، رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي و زعيم الطائفة الدرزية في لبنان، و موسى شعيب سكرتير حزب البعث اللبناني إلى بغداد. شرح نصير لوليد جنبلاط قضية رفعة، و تحمس لها وليد و تبنى الموضوع، و طرحها أمام أعضاء القيادة القومية، و اعتُبرت من القضايا المهمة التي يجب بحثها و رفعها إلى السلطات العليا.

في اليوم التالي التقى وليد برئيس المخابرات سعدون شاكر، و كلمه بالموضوع. كان جواب رئيس المخابرات، لا يختلف عن جوابه لعبد الوهاب الكيالي و عبد المجيد الرافعي، و كرّر كلماته إياها: إن هنالك أدلة و اعترافات على رفعة، و سيحال إلى محكمة الثورة. امتعض وليد و غضب من أجوبة سعدون قائلاً له: «إني أتكلم باسم الحركة الوطنية ككل، والإفراج عن رفعة هو مطلب جميع القوى التقدمية في لبنان.» و أصرّ عليه بشدة على ألا تصل الأمور إلى محكمة الثورة، فأجابه عندئذ سعدون: «سأحاول بقدر الإمكان و سأبذل كل ما في استطاعتي!»

قطع وليد جنبلاط فجأة زيارته إلى العراق، و لم يستطع أن يلتقي

Twitter: @ketab_n

بنائب رئيس الجمهورية. لم يكن لأحد علم، إن كان نائب الرئيس داخل أو خارج العراق، و كان ذلك من سوء حظنا، إذ لو سمحت الفرصة للقاء وليد جنبلاط بالسيد نائب الرئيس، فربما كانت الأمور تتطور لصالح رفعة.

كانت هنالك سرية تامة تهيمن على تحركات و خطوات نائب رئيس الجمهورية، فتتسمَّر سيارات الناس في أماكنها و يتوقف المارّة عن السير و يخيم صمت و سكون لا تقطعهما إلا صفارات الإنذار التي تعلن عن قافلة سيارات نائب الرئيس، قاطعاً شوارع المدينة بسرعة سيارات الإسعاف. صف طويل من السيارات، ذات الرقم الواحد، و اللون الواحد، و الموديل الواحد بزجاجه الأسود المعتم اللون. و بعد أن تبتعد القافلة، تعود الحياة إلى صخبها و ضجيجها، فتدب الحركة ثانية و يبدأ «التزمير» و تتحرك السيارات، و يعود الشارع إلى نشاطه و صخبه.

عندما أصبح نائب الرئيس صدام حسين رئيساً للجمهورية، أصبحت المحافظة على حياته نوعاً من الهوس، فقامت السلطة بقلع الأشجار وسط شوارع مدينة بغداد، و أصبحت حدائق وسط شوارع المدينة عارية، و ظهر قبحها. فقد كانت أشجار النخيل تزيِّنها كما تزيِّن الملابس أجساد النساء.

افتُتحت، بعد ثورة ١٩٥٨، شوارع رئيسية جديدة، و تم تشجيرها بالنخيل و نمت و أصبحت زاهية بطولها الممشوق، و أغصانها الشامخة و الوارفة.

كانت أشجار النخيل تعيش بيننا و تتنفس معنا وكأنها كائن حي منا، بعد أن نمت و نضج رطبها، و ظلّل سعفها الشوارع في قيظ بغداد

Twitter: @ketab_n

المحرق. و لكنها هُددت بالموت، فذُبحت و شُوِّهت، و قُطِّعت أشلاؤها إلى قطع صغيرة، و سُحبت أحشاؤها لتصبح وقوداً. لو كان للأشجار صوت، لحدثتهم عن ألمها و موتها البطيء أمام أنظارهم! فذنبها الوحيد أنها اعتُبرت مسؤولة عن اختفاء المتآمرين بظلها، و لذا وجب عقابها و اقتلاعها من جذورها! عادت تلك الشوارع في المدينة جرداء عارية، خالية من جمال نخيلها. و لم يعد للناس ظل يقيهم من حرارة الشمس.

أصبح الصمت و السكوت هما الاستراتيجيا المتبَعة في مجتمعنا، فلم يعترض أحد منا، و لم نتفوّه بكلمة نعرب بها عن استيائنا، برغم حبنا لأشجار النخيل، فالنخلة رمز وادي الرافدين منذ آلاف السنين، و لكننا أشحنا بأعيننا عما حدث، بل أغمضناها، و أصبحت عادة متأصلة فينا!

* * *

طالت القصص و الحكايات عن موضوع الاعتقال و السجن و تشعبت من مصادر كثيرة. فبعد مغادرة وليد جنبلاط بغداد بيومين، اتصلت بي تلفونياً أم بسمة، قالت: إن الموضوع مهم و له علاقة برفعة، ثم توقفت عن الكلام، خوفاً من أن يكون التلفون مراقَباً. كان من الطبيعي في المجتمع الشمولي أن يفرض المواطن العراقي على نفسه الرقابة، بغض النظر عما إذا كان تلفونه مراقَباً أو غير مراقَب.

طرقتُ باب دارها بصحبة يقظان، في الساعة الثالثة بعد الظهر، فتحته إحدى ابنتيها الصغيرتين، قائلة: لم نر والدي منذ أربعة أشهر، و التقينا به اليوم لأول مرة بعد انتظار طويل. تصورت أن والدها قد أُطلق سراحه من طريقة كلامها المتفائلة، و لكن عندما جاءت والدتها،

Twitter: @ketab_n

الدنمركية الجنسية، بدا الارتباك عليها، و قصت لي قصة اعتقال زوجها.

قالت: عاد عزيز من العمل يوم الخميس، بعد انتهاء الدوام. جلسنا حول المائدة نتناول طعام الغداء، و إذا بنا نسمع طرقاً شديداً. فوجئ عزيز عندما فتح الباب، بشخصين من المخابرات. قالا له: أستاذ تفضل معنا! أجابهما: «خلوني أكمل غداي»، و من الغريب أنهما وافقا. ثم طلبا منه أن يذهب إلى المخابرات يوم السبت، و أبديا تسامحاً غريباً معه، فقد سمحا له بأن يقضي عطلة يوم الجمعة مع عائلته، ربما لأن زوجته أجنبية!

ذهب صباح السبت إلى مديرية المخابرات متوقعاً بعض الأسئلة التي لا تستغرق أكثر من ساعة، ثم يعود إلى عمله، و لكنه لم يكن يتصور أنه لن يعود إلى داره ثانية و سيُحرم من رؤية عائلته! ارتبكت زوجته و لا تدري ما حل بزوجها، و استحوذ عليها الشك و القلق، خاصة أنها أجنبية لا علم لها باختفاء الناس بهذه الطريقة المفاجئة، قبل توجيه أي تهمة إليهم، و قبل صدور أي حكم عليهم يدينهم بالجريمة.

سلكت الطريق نفسه الذي سلكناه، و مرت بالتجربة التي مررنا بها، فلم تصل إلى أية نتيجة ملموسة. ثم حصلت بعد مدة من اعتقال زوجها، على موعد و ذهبت إلى مقابلة نائب رئيس الجمهورية صدام حسين.

قالت: كان لطيفاً للغاية عندما ذهبت لمواجهته، لدرجة لم تكن تتوقع مثل تلك الدماثة و اللطف، و وعدها بأن يستفسر عن سبب اعتقاله. و لكن عندما ذهبت في المرة الثانية لمقابلته، قال لها: «هنالك مستمسَك عليه يتعلق بأمن الدولة، و سيأخذ العدل مجراه.» هي

Twitter: @ketab_n

الجملة نفسها التي رددها على مسمع أم رفعة. و حين طلبت منه أن يسمح لها بأن تبعث إلى زوجها بعض الملابس، أجابها بأن تضع عنوانها عند السكرتير.

في اليوم التالي، وقفت سيارة أمام دارهم، و سلمتهم أم بسمة حقيبة مملوءة بالملابس.

كان يُسمح لعزيز بالمخابرة أسبوعياً، بناءً على أمر من نائب الرئيس، و كان وضعه من هذه الناحية أحسن من وضع رفعة. كلَّمها بالتلفون بعد أن بعثت له الملابس قائلاً لها: «شسوي بالملابس، لو دازة أكل بدل الملابس،» و لكن المخابرة التلفونية قُطعت. لم تعد تسمع شيئاً. لقد كانت الخطوط التلفونية مراقَبة، و خشيت زوجته ألا يسمحوا لزوجها بمخابرتها في الأسبوع القادم.

لكنها فوجئت عندما تسلمت برقية من سجن «أبي غريب» لزيارة زوجها بعد أن أصدرت محكمة الثورة قرارها بالسجن عليه لمدة خمسة عشر عاماً.

ذهبت لزيارته في السجن، و أخبرها أنه التقى برفعة في إحدى زنزانات المخابرات بعد أن صدر الحكم عليه، و قضى معه يومين قبل نقله إلى السجن، و أوصاه بأن نبعث له بعض الملابس و حذاء.

ذهب يقظان بصحبة أم بسمة في اليوم المخصص لزيارة السجناء، و التقى بزوجها. كان أخبره أن قضية رفعة تتعلق بمدير شركة «ويمبي» البريطانية، و قص عليه قصته بالتفصيل.

إن المستمسَك الذي ذكره نائب الرئيس لزوجته، هو رسالة بعثها عزيز مع صديق له إلى الأردن، تتضمن إيجاد عمل له في مدينة عمان، و يذكر فيها: «أصبحت الحياة في العراق لا تطاق، ولا يستطيع الفرد

Twitter: @ketab_n

أن يتنفس. لو تأتي إسرائيل لتحكمنا، لكان أحسن من حزب البعث.»

فتح الصديق الرسالة و قرأها، ثم أرسلها إلى مديرية المخابرات العراقية. صديق بلا ضمير، خان مفهوم الصداقة النبيل، بتسليمه الرسالة إلى المخابرات، و كانت السبب في صدور الحكم على عزيز بخمسة عشر عاماً.

لم تيأس زوجته، بالرغم من الإحباط الذي عانت منه، و لم تتوان عن ملاحقة قضية زوجها حتى بعد أن صدر الحكم عليه. استمرت في الاتصال تلفونياً بنائب الرئيس في المناسبات الرسمية، كالأعياد، حتى بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية. كان الرئيس يعامل النساء الأجنبيات برقة ولطف، و من حسن حظها أنه يكون في مزاج جيد و مرح عندما كانت تكلمه، فأثرت فيه نفسياً، عندما اتصلت به في عيد ليلة رأس السنة، بعد أن قضى زوجها أكثر من عام في السجن، واصفة له حالتها المؤلمة، و الوحدة التي تعاني منها مع طفلتيها في بلد غريب، بعيدة عن أهلها و أحبائها. أجابها هذه المرة: «حقج، و الله كريم.» و عندما يتلفظ رئيس الجمهورية هذه الجملة، فيعني بذلك أن هنالك أملاً في الإفراج عن زوجها.

يلعب الرئيس دوراً مهماً في مصائر الناس، عندما تغيب العدالة و تُسحَق القوانين التي تحافظ على كرامة الفرد و حقوقه. عندئذ لا يعامَل الفرد كإنسان مهما علت رتبته و شأنه، إن كان وزيراً أو مواطناً عادياً من المجتمع. فهو لعبة تحركها أهواء السلطة حسب رغباتها، و عليه الإطاعة التامة.

أُطلق سراح زوجها بعد أسبوعين من تلك المخابرة، بعد أن قضى عاماً و شهرين من محكوميته. ذهب عزيز بصحبة زوجته و شكره على

Twitter: @ketab_n

الإفراج عنه. قدم إليهما الرئيس هدية صورته بتوقيعه مع مغلف فيه مقدار من المال «بخشيش» حسب تعبير عزيز.

زُينت شوارع مدينة بغداد بصور الرئيس، و عُلِّقت داخل الأبنية الحكومية و خارجها، بأحجامها المختلفة، و بملابس متنوعة، ملابس شعبية و عسكرية و مدنية. شعر المواطن العراقي بصِغَر حجمه و ضآلته أمام جبروتها. كانت صوره بأشكال مختلفة، فصورة مفتر ثغره فيها عن ضحكة منتصرة ساخرة، وأخرى يُطيل التحديق بها، أو رافعاً يده يحيّي «قطيعاً» من الجماهير العراقية.

زيّنت صوره مرتدياً ساعات اليد معاصم الناس من الكبار و الصغار، كما تُزيِّن الحلي معاصم النساء، و أصبحت بذلك صورته لا تغيب عن أنظارهم ليل نهار، ينظرون إلى عقارب عجلة الزمن من خلالها، فتدور، و ينساب بكل دورة من دوران عقاربها الزمنُ دقيقة، فساعة، فيوماً، فشهراً، و هكذا تتوالى الأعوام بدورانها السريع من خلال صورة الرئيس المطلة عليهم في معاصمهم.

* * *

«تلطّف» علينا رئيس المخابرات سعدون شاكر، و وافق على أن نرسل إلى رفعة حقيبة صغيرة من الملابس، بعد مُضيّ أكثر من ثلاثة أشهر على اعتقاله.

وضعت في الحقيبة بيجامتين و قميصين و بعض الملابس الداخلية و حذاءً، و سلمها نصير إلى فاروق الذي كان صديق سعدون شاكر و نسيب صديق شنشل معتمد حزب الاستقلال، و أصبح مصدراً آخر نستقي منه المعلومات.

علمنا أنه استلم الملابس، عندما أخبرنا زوج إحدى المدرّسات

Twitter: @ketab_n

في «جامعة بغداد»، الذي التقى بسعدون شاكر إلى دعوة عشاء، و سأله مستنكراً المعاملة السيئة التي يتعرض لها رفعة، قائلاً له: كيف يمكن لشخص بمستوى رفعة الجادرجي، أن يظل مرتدياً الملابس نفسها ثلاثة أشهر متواصلة؟

ضحك سعدون شاكر، و أجابه: نعم لقد مضى عليه أكثر من ثلاثة أشهر في الملابس نفسها، و لكن وصلت له ملابس من أهله منذ أسبوعين.

لا أدري ما هو سبب الحقد و الضغينة على رفعة من قبل رئيس المخابرات سعدون شاكر؟ هل هو حقد طبقي يا ترى؟ فليس هنالك أية معرفة أو علاقة بينه و بين رئيس المخابرات؟

اعتقدت منذ البداية أنه حقد طبقي، فقد أخبرتني إحدى صديقاتي، عندما طُلب من رفعة أن يقدم تصميماً جديداً لمطار بغداد القديم، لتحسينه و تنظيم حركة الطيران فيه في عام ١٩٥٩، أن سعدون شاكر كان آنذاك موظفاً بسيطاً في المطار، فعلق قائلاً عندما مرّ رفعة أمامه: «لا أخلّيه بهدومه ستة أشهر، بس نجي للحكم.» إن الحقد و الحسد علتان شائعتان في حياتنا اليومية.

* * *

التقيت بمازن في مدخل فندق بغداد، بعد زيارتي إلى عبد الوهاب الكيالي عضو القيادة القومية، قال بوقار: «نأسف لما حدث لرفعة، و في أمان الله!»

مازن من عائلة معروفة و عريقة في بغداد. تعود علاقة عائلته بعائلة أم رفعة إلى فترة طويلة، ربما منذ بداية القرن العشرين. كان والده الدكتور شوكت الزهاوي صديق والد رفعة منذ الدراسة الابتدائية،

Twitter: @ketab_n

و استمرت تلك العلاقة بينهما، فكان الدكتور شوكت يزور والد رفعة مرة أو مرتين في الأسبوع، كما كان أبو رفعة يتردد عليه أحياناً في المستشفى، حيث كان والد مازن من الأطباء اللامعين في العراق.

أما علاقتنا بمازن فتعود إلى أواخر الخمسينيات، و قد أصبحت بعد تأسيس «الجمعية البغدادية» في الستينيات أعمق و أوثق، إذ كنا نلتقي معظم أيام الأسبوع في الجمعية، أو خلال دعوات العشاء التي كنا نقيمها في دارنا أو في دُور الأصدقاء المشتركين بيننا. كان مازن من الأعضاء النشطين في لجنة الموسيقى، إذ كانت الجمعية مؤلفة من عدة لجان للمسرح و السينما و الموسيقى و المعارض و الندوات و لجنة المشرفين على الحفلات. كما يجيد العزف على البيانو و الغناء، و لوالدته تأثير كبير في تطوير هذه الموهبة، إذ كانت تعزف العود و تغني الأغاني التركية، فنشأ أولادها يعشقون الموسيقى و يتقنون الغناء. و قد درس في الخارج و أتقن عدة لغات و من بينها الإنكليزية و التركية.

كان يقضي الصيف مع عائلته في إسطنبول، حيث كانت معظم العائلات التي تتحدَّر من الأصول العثمانية، تقضي الصيف فيها، فكنا نلتقي به كلما نمر في إسطنبول و نقضي بعض الوقت معاً.

بعد فترة قصيرة من تسلم حزب البعث مقاليد الحكم، عُيِّن مازن مترجماً خاصاً لنائب رئيس الجمهورية صدام حسين. كان بهي الطلعة، يهتم بمظهره كثيراً، يتميز عن موظفي القصر بلباقته وأناقته و تهذيبه، و قد أدى المنصب الحساس الذي تقلده إلى تغيير جذري في شخصيته، فابتعد عن أصدقائه و تجنب بعضهم، و تقمص شخصية ثانية، محافَظةً منه على المنصب الذي يشغله. أصبح يتكلم لغة جديدة علينا. و قد استغربت موقفه، عندما قام صحافيان إنكليزيان من جريدة

Twitter: @ketab_n

الغارديان، بزيارة وزير الإعلام، بحضوره في الفترة التي كان رفعة معتقلاً فيها، و من جملة الأسئلة التي وجهها الصحافيان سؤال يتعلق باعتقال رفعة، فسأل أحدهما الوزير: «ألا تعتقد أن اعتقال شخصية مرموقة في المجتمع، و لها سمعة عالمية كشخصية رفعة، يؤثر في سمعة الحكومة خارج العراق؟»

أجاب الوزير: «لا يحق لكما توجيه مثل هذا السؤال، إنها قضية داخلية، تتعلق بأمن الدولة. ثم ما هي الصفة التي تخولكما السؤال عن مثل هذه القضية؟»

كان الصحافيان الإنكليزيان يتكلمان بالطبع عن حقوق الإنسان، كون العراق وقّع على بيان حقوق الإنسان في جنيف، فمن حقهما أن يسألا هكذا سؤال. و استغربت عندما علمت أن مازن كان مؤيداً لكلام الوزير، بل أضاف قائلاً: «بأي حق يتدخل أجنبي بشؤون العراق الداخلية، هذا مو من حقهم.»

* * *

كانت جميع المحاولات و المقابلات التي قمنا بها خلال تلك الفترة، هي نوعاً من التشبث في ألا يحال رفعة إلى محكمة الثورة، و لذا لم نتوان في طَرق أبواب أناس من طينات مختلفة: طيبين، خائفين، جافلين، متعجرفين، يتكلمون من أرنبة أنوفهم، إلا أن ذلك لم يثننا عن المحاولة أو يثبط عزيمتنا، وخاصة عندما لا يبقى إلا خيط رفيع يفصل بين الأمل و اليأس، عندئذ يحاول المرء التشبث بشتى الطرق لإيجاد الوسيلة التي تنقذه من اليأس. كان اليأس هو الحافز الذي دفع بأم رفعة إلى الاتصال بالدكتور مؤيد، أحد الأطباء الذين كانت لهم علاقة بنائب رئيس المخابرات برزان التكريتي.

تقع دار والد الدكتور مؤيد، في شارع طه مقابل دار كامل

Twitter: @ketab_n

الجادرجي، و قد تقلد والده مصطفى العمري عدة مناصب وزارية بما في ذلك رئاسة الوزراء في العهد الملكي. و تعود تلك الجيرة إلى أكثر من أربعة عقود. لكن بالرغم من الاختلاف السياسي العقائدي بين والد رفعة و والد مؤيد، إلا أن العلاقة بين زوجتيهما كانت أكثر من علاقة جيرة.

عندما تزوج مؤيد، انتقل من شارع طه إلى مدينة المنصور، التي أصبحت من الأحياء الراقية المرموقة في بغداد، و انتقل إليها معظم المهنيين من الأطباء و المهندسين و المحامين. كما سكن معظم أعضاء القيادة القومية و القطرية للحزب في ذلك الحي، بالإضافة إلى بناء مقر الحزب عندما سيطر حزب البعث على الحكم، و من بين الذين سكنوا في مدينة المنصور نائب رئيس المخابرات برزان التكريتي الذي أصبح جاراً للدكتور مؤيد.

زارت أم رفعة الدكتور مؤيد بصحبة ابنة أختها، و رجته أن يسأل نائب رئيس المخابرات سؤالاً واحداً: هل سيحال رفعة إلى محكمة الثورة؟ أجابها: لا فائدة من ذلك، لأن جاره حاول أهله التوسط لديه، و لكن صدر الحكم عليه بعشرين عاماً. لكنه و عدها بأنه سوف يستفسر من نائب رئيس المخابرات عن رفعة عندما يلتقي به.

عادت مسرورة من مقابلتها بالدكتور مؤيد، و عاد الأمل يداعبها في إنقاذ رفعة من إحالته إلى محكمة صورية. و لكن لم يطل هذا التفاؤل، فقد صُدمت بعد يومين من اتصالها بالدكتور مؤيد، عندما صرخ بأعلى صوته، و سمعت صراخه أم رفعة قائلاً لزوجته: قولي لها إنه سيحال إلى المحكمة، إلى المحكمة، مكرراً كلمة محكمة مرتين.

كان من اللياقة أن يتكلم الدكتور مؤيد مباشرة مع أم رفعة، و كان من المتوقع منه في مثل هذه الحالة، أن يعاملها برقة كما يعامل والدته،

Twitter: @ketab_n

و يخفف من وقع الصدمة على امرأة مسنة. و لكن يبدو أن المثل قد ضاعت في وطن انسحقت فيه القيم و تلاشت المقاييس.

* * *

كانت آخر مخابرة لرفعة غير واضحة، متقطعة، صعبة الفهم. طلبتُ إعادة بعض الجمل، مما دل على أنه يتكلم من خارج بغداد. لم أكن متأكدة من أن رفعة نُقل الى سجن «أبو غريب»، و لكن علمت بعد ذلك من أحد الأطباء، أن طبيب السجن قد أخبره من أنه شاهد رفعة في سجن «أبو غريب» منذ أسبوعين تقريباً. كانت الشائعات المنتشرة أن الحكم قد صدر على رفعة، و حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات!

زارني عصر يوم الجمعة ١٨ أيار ١٩٧٩، شخص كردي اسمه المستعار «أحمد عثمان»، وجدته متردداً و غير متأكد من الدار، يتلفت يميناً و يساراً ليتأكد من أنه غير مراقَب. أخبرني أنه أمضى ثلاثة أيام مع رفعة، و التقى به في السيارة التي أقلتهما إلى سجن «أبو غريب». و أقسم إنه سيحال إلى المحكمة خلال أربعة أو خمسة أيام، و سيكون الحكم عليه بسيطاً، ربما شهرين أو المدة التي قضاها بالمعتقل.

كان يتصبب عرقاً، و الخجل بادٍ عليه. تردد في الإجابة عندما وجّهت إليه بعض الأسئلة، و لم يجبني في بعض الأحيان. ثم طلب ألا أوجه إليه أسئلة أخرى. و عندما خرج من الدار، استمر يتلفت خوفاً من أن تكون الدار مراقَبة.

لم يلتق هذا الشخص برفعة، و إنما أخوه هو الذي التقى به. كانا في الزنزانة نفسها، لذا تلكأ عندما وجهت إليه أسئلة لم يكن باستطاعته الإجابة عنها.

* * *

Twitter: @ketab_n

أصبح الحديث يدور غالباً بين الأصدقاء عن المدة التي سيُحكَم بها رفعة عند إحالته إلى المحكمة. كنا نحاول معرفة موعد محاكمته، عندما دخل المحامي عبد الرزاق و حيّا الجميع.

كان عبد الرزاق من أصدقاء نصير، و تربطهما علاقة صداقة و مودة منذ أيام الدراسة في المتوسطة و الثانوية. عبد الرزاق من الأشخاص النادرين في استقامته و إخلاصه و تضحيته. يحترمه و يحبه الجميع، و ليس هنالك من يحقد عليه أو يتمنى له السوء. يتمتع، بحكم عمله كمحام، بعلاقات واسعة مع فئات مختلفة من الناس و شرائح واسعة من المجتمع. و كان باستطاعته أن يستقي الأخبار و المعلومات من بعض المصادر ذات العلاقة المباشرة بمحكمة الثورة. لذا، اشرأبت الأعناق و ساد الصمت، عندما اختلى بنصير في جانب من غرفة الطعام و تكلما في موضوع رفعة. كانت له معرفة بشخصين بدرجة كاتب في محكمة الثورة. و قد وعد كل منهما بأن يخبره حالما تصل أوراق إحالة رفعة إلى المحكمة. كان كل منهما يجهل ما يقوم به الآخر من تسريب المعلومات إلى عبد الرزاق، فهنالك سرية مطلقة في ما يتعلق بمحكمة الثورة، و إن انكشف أمر أحدهما فستكون عاقبته وخيمة.

و قد أخبرني أن مدير الطرق في وزارة التخطيط المهندس عدنان، قد استُدعي من قبل المخابرات للتحقيق معه كشاهد على رفعة. لم يكن يعرف السبب الذي استُدعي من أجله، و تملّكه الخوف والفزع. كان محكوماً عليه من قبلُ بالسجن، و عندما يستدعى سجين من السجن، يعيش في قلق متواصل، لأنه لا يعلم سبب استدعائه. و لكن مخاوفه زالت عندما علم أن الموضوع يتعلق برفعة، فلم تكن له علاقة أو معرفة به.

قال لعبد الرزاق: «لقد تكلمت الحقيقة، عندما أجبت عن جميع

Twitter: @ketab_n

الأسئلة التي وُجِّهت إليّ من قبل حاكم التحقيق، فلم يكن لي معرفة برفعة. لقد أجبت عن جميع الأسئلة بالنفي.»

* * *

انتشرت الشائعات ثانية. فحيثما ألتفتُّ، أسمع شائعة جديدة عن موعد المحاكمة أو صدور الحكم بحق رفعة.

امتلأت غرفة أم رفعة بالضيوف. الطباخ جعفر مشغول بتهيئة العشاء، لا يدري كم سيكون عدد الزائرين، و لكنه توقع عدداً كبيراً منهم، فأقام وليمة كبيرة بتلك المناسبة!

كان جميع الحاضرين يفكرون أو يتحدثون عن نوع الحكم، وكأنهم يسحبون ورقة «يانصيب». قال أحدهم: شهران. ورد عليه الثاني: المدة التي قضاها في المخابرات. أجاب الثالث: لقد سمعت أنه في السجن الآن، لأن أحد الأطباء قد شاهده في سجن «أبو غريب»، و قد صدر عليه الحكم بخمس سنوات. أجابهم نصير محتداً ومعنّفاً: نحن نفرح و نبتهج إن صدر الحكم على رفعة بعشر سنوات. كانت أحاديثهم كرهان سباق الخيل، ويحاول كل منهم أن يزيد المدة، كما يرفع المراهنون أسعار الخيل في السباق.

سافر نصير إلى بيروت، في محاولة أخيرة لتجنب إحالة رفعة إلى محكمة الثورة. و في اليوم التالي أخبرني عبد الرزاق عن موعد محاكمته و ذلك قبل خمسة أيام من موعدها، و عرفت منه أن أوراقه قد وصلت المحكمة، و سيحال يوم الأربعاء.

لم يكن من السهل معرفة اليوم الذي سيحاكم فيه رفعة، و تُعتبر معرفته عملاً جبّاراً من قبل عبد الرزاق، إذ إن جميع الذين يحالون إلى محكمة الثورة، تصدر الأحكام بحقهم، من دون علم أهل المتهم، و لا

Twitter: @ketab_n

يعرفون الحكم إلا بعد أن تصلهم برقية من السجن. أما الصديق الآخر هاشم، فقد أكد لنا أن يوم الأربعاء هو اليوم الذي سيحال فيه رفعة إلى محكمة الثورة.

هاشم محام و صديق مخلص لنصير منذ ثلاثة عقود. و قد أصبح من الأصدقاء الدائمين الذين لم يفارقوا عائلة الجادرجي بصحبة زوجته سروة أثناء المحنة التي كنا نمرّ بها. و هو من المحامين المتتبعين و الشغوفين بالقراءة، فلم تقتصر مطالعته على الكتب القانونية، و إنما شُغف بقراءة الأدب و الشعر و الفلسفة.

كان لهاشم صديق له علاقة خاصة برئيس محكمة الثورة مسلم هادي الجبوري، فقد نشأ و تربى ذلك الصديق مع مسلم منذ الطفولة في الحي نفسه، و أصبحت أواصر الصداقة متينة بينهما، و كانا بمثابة شقيقين. فطلب منه هاشم التأكد من موعد المحاكمة.

صحب الصديق زوجته و أطفاله في زيارته إلى رئيس محكمة الثورة، ليُظهر له أنها زيارة عائلية. سأله خلال سياق الحديث، عما إذا تقرر أن يكون موعد محاكمة رفعة يوم الأربعاء؟ و لم يُنهِ صديق هاشم الجملة حتى شعر كأنه متهم في قفص الاتهام، و انقلب رئيس المحكمة إلى إنسان آخر. تجهمت ملامح وجهه، و قطّب جبينه، رامياً إياه من كل حدب و صوب بالأسئلة بصرامة و عنف لم يعهدهما فيه، و قد أنّبه رئيس المحكمة بغضب و انفعال، قائلاً له: بأي حق تسأل عنه، و من أين حصلت على هذه المعلومات السرية، يجب أن أعلم! فاضطر الصديق إلى أن يقول له إنه استقى تلك المعلومات من صديقه هاشم.

زارنا هاشم مساءً بصحبة زوجته، و بدا عليه الارتباك و القلق، فاقترح عليه معظم الحاضرين ألا ينام في داره. كان خائفاً من إلقاء

Twitter: @ketab_n

القبض عليه، و التحقيق معه لمعرفته موعد المحاكمة! و اضطر إلى ترك داره مع زوجته و أولاده حتى انتهاء المحاكمة. فلا غرابة في أن يهيمن الرعب على الناس في هذا الكبت و القلق اللذين يعيشونهما و يعانون منهما.

ذهب، في اليوم التالي، يقظان صباح السبت ١٨ أيار ١٩٧٩ إلى المكتب الاستشاري العراقي، و بعث تلكس إلى نصير في بيروت: «دخلت ماما المستشفى اليوم و ستجرى العملية لها الأربعاء.»

توافد معظم موظفي و مهندسي المكتب الاستشاري العراقي، علينا في المساء، و فوجئت بالعدد الكبير منهم، و عرفت أن الجميع على علم بموعد المحاكمة، بعدما همست وجدان كلمة الأربعاء في أذني.

أعاد رعد كلمة الأربعاء أيضاً، موجهاً الكلام إلى أم رفعة، محاولاً تخفيف القلق الذي كانت تعيشه، قائلاً لها: «ربما يُفرَج عنه غداً، و تُحسَب له مدة الاعتقال فقط.»

أصبح العراقيون لا يتكلمون إلا لغة الألغاز، و أصبح استعمال «الشيفرة» اللغةَ السائدة بين الناس، فالجميع يعتقدون أن التلفونات مراقَبة، و أن ثمة رقيباً يتنصت على ما يتفوهون به. لقد أصبح الرقيب قابعاً في الذات العراقية، وهذا طبيعي في مجتمع شمولي يحكمه الحزب الواحد و تسيطر عليه أجهزة الاستخبارات. فسّر جميع موظفي المكتب حالاً ما تعني كلمة «مستشفى». و لو كان ذلك التلكس مبعوثاً من بلد آخر، لما استُعملت «الشيفرة» و لما فكّر الناس بهذه الطريقة، و لكن جعلتهم شدة الضغط على الناس، و الرقابة المتواصلة في كل حي و شارع و زقاق، يعيشون في كبت دائم و حصر لأنفاسهم و حركتهم.

Twitter: @ketab_n

كثيراً ما كنت أتجنَّب المكالمات التلفونية خارج العراق، بسبب الرقابة الذاتية التي فرضتها على نفسي، و فرضها معظم العراقيين على أنفسهم. لقد اخترق شبح الرقابة تفكيرنا و أصبح ظلاً ملازماً لنا، و أُجهضت الكلمات التي نود أن نتفوه بها قبل أن تولد، و انطبع شبح الرقابة كالوشم في ذاتنا، و شمل حتى الذين اختاروا الشتات، بعيدين عن الوطن!

كان جورج، و هو أردني الجنسية، زوج بنت خالة رفعة، يستغرب من طريقة الكلام التي نتحدث بها بالتلفون، فلا يفقه شيئا من حديثنا! كان يبدو أحياناً كالأبله في كمّ الرموز الهائلة والمشفَّرة التي كنا نستعملها، و استبدلنا بها لغتنا. لقد كانت «الشيفرة» يستعصي حلها على الذين لم يعانوا الرقابة التي تحصر علينا أنفاسنا!

كان أبو رفعة يقول لنا دائماً إن الفرق بيني و بينكم، أنكم جيل اعتاد على الرقابة، بينما جيله لم يقبل الرقابة في يوم من الأيام. كان ينزعج أثناء الحرب العالمية الثانية عندما يستلم رسالة مكتوباً عليها «فتحه الرقيب»، أما بالنسبة إلينا فلا تعني الرسالة المفتوحة من قبل الرقيب شيئاً، لأننا نشأنا على الرقابة و أصبح تسلم الرسائل المفتوحة من قبل الرقيب شيئاً طبيعياً، لا يثير فينا الاستغراب أو الانزعاج.

* * *

اتصل نصير بوليد جنبلاط حال وصوله بيروت، عائداً من موسكو في اليوم التالي. كان لا يزال متعباً عندما زاره نصير في داره. استغرب نصير البساطة التي كان يعيش بها وليد. فالدار الضخمة كانت خالية من الأثاث الفخم الذي يعتبره اللبنانيون جزءاً مهماً يدل على المنزلة الاجتماعية.

Twitter: @ketab_n

أخبره نصير عن موعد المحاكمة، فاتصل وليد جنبلاط مباشرة بالمسؤول الأمني في السفارة العراقية، و طلب منه أن يرسل برقية إلى سعدون شاكر كمطلب من جميع القوى التقدمية في لبنان في الإفراج عن رفعة و عدم إحالته إلى محكمة الثورة، كما اتصل برئيس حزب البعث الاشتراكي اللبناني. و بعث عبد المجيد الرافعي تلكس آخر بواسطة السفارة العراقية إلى سعدون شاكر. أما عبد الوهاب فقد كلَّمه تلفونياً و طمأن نصير و قال له: لقد أكد لي سعدون أن المحكمة شيء بسيط و شكلي.

أجابه نصير: «قابلين بعشر سنين.»

كنت في حيرة من أمري بعد أن استنفدت جميع المحاولات لإنقاذ رفعة من إحالته إلى محكمة الثورة، و لكني ترددت عندما اتصلت بي منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان لإثارة موضوع اعتقاله. فكرت ملياً، ثم طلبت منهم ألا يُبحَث هذا الموضوع لأننا لا نعرف ردود الفعل. كما حاولت منظمة المعماريين العالمية إثارة الموضوع، فرجوتهم الرجاء نفسه، بالتروي، لجهلنا بردود فعل السلطة. أخبرني صديقنا الكاتب جبرا، أن عالِم الاجتماع و المستشرق جاك بيرك، قد أثار الموضوع أمام بعض المسؤولين عندما دُعي إلى أحد المؤتمرات، و لكن لم يجيبوه بجواب شافٍ.

بلقيس شرارة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في ظلمة المخابرات

في زنزانة رقم «٢٦»

لا تعدو سعة زنزانة رقم «٢٦» أكثر من متر و سبعين سنتيمتراً عرضاً، و مترين طولاً. نشعر بثقل الهواء بسبب حشر المعتقلين في ذلك الحيز الضيق. لا مجال لحركة الهواء النقي فيها، فيدور الهواء كما لو أننا داخل فنجان، لأن الزنزانة مغلقة بباب حديدي لا منفذ للهواء من أسفله، و لا فتحة في أعلاه، سوى شق صغير لمراقبتنا من قبل الحراس، وربما للسماح بدخول كمية من الأوكسجين بقدر ما تؤمن بقاء المعتقلين أحياء ليتمكنوا من استدعائهم متى شاؤوا. لذا تمتزج رطوبة أنفاسنا بهواء الزنزانة الفاسد.

كنا خمسة أشخاص في الزنزانة صباح اليوم التالي. لا يستطيع أحد منا تحريك جسمه إلا بما يؤمن القليل من راحة العضلات لكي لا تتشنج و تتعطل عن الحركة كلياً. و حتى تلك الحركة الجزئية لا تتم من غير أن يحتك بدن ببدن آخر. أخذتُ أتدرب على حلول مناسبة و عملية في تجنب تماس بدني مع الآخرين، و أمارس ذلك، فانتظمت وفق أسلوب جديد للرقاد من غير تماس بدني بالآخرين خلال اليوم في

Twitter: @ketab_n

الزنزانة. فكنت أتمدد بكامل طولي موازياً للجدار و ملتصقاً به في فترات نوم الليل، و أجعل من بدني خطاً مستقيماً حيث تكون ذراعاي منبسطتين باستقامة البدن كما تكون ساقاي باستقامة الجدار، الساق اليسرى فوق اليمنى. شغلت بتلك الاستقامة حيزاً قليلاً من الزنزانة، و تفردت به. و لولا تلك الطريقة المختصرة لرقادي، لكان بدني في تماس و تلاصق دائمين مع أبدان الآخرين. كنا نقضي وقتاً طويلاً من النهار في النوم، كأن الدماغ لا يريد مواجهة الواقع. كنت في النهار أقرفص في الركن الأيسر من الزنزانة، وقد تمكنتُ بتلك الطريقة من إشغال الحد الأدنى من حيزها.

لم يعر المعتقلون أهمية لوضعية صيغة الرقود بالطريقة التي كنت أفهمها، و لم يكن استلقاؤهم على ظهورهم أثناء النهار يتوافق مع ما كنت أحسبه من اللياقة و الآداب التي يتعين مراعاتها مع الآخرين. كان بعضهم يستلقي على ظهره لفترات طويلة، و قد كانت بلا شك وضعية مريحة للبدن. و عندما كانوا يعكفون ساقاً على الساق الأخرى و تصبح بذلك قدم أحدهم قرب رأس الآخر، فلم يكونوا يشعرون بالحرج و عدم اللياقة أو الإزعاج للشخص الذي يمدون أقدامهم قرب وجهه.

استيقظت في الصباح. لم تكن في مخيلتي صورة للزنزانة التي قادوني إليها ليلاً، و كيف سيكون المعيش اليومي فيها، بالرغم من أنني عشت في زنزانة لمدة شهر في أوائل عام ١٩٥٣. كانت سعة الزنزانة في معسكر الرشيد مقاربة لهذه من حيث الأبعاد، و لكن كنت وحدي. كانت مضيئة نسبياً، فلم يكن القصد بقاء المعتقل في العتمة، كما سمح لي بالقراءة، و قد جلب لي والدي بناء على طلبي كتاب **ألف ليلة و ليلة**، أقضي وقتي في قراءته.

Twitter: @ketab_n

توقفت عن التفكير، تلك اللحظة، في سبب وجودي في ذلك الصباح في تلك الزنزانة، و ما هو قصد المحققين من اعتقالي بعد أن بيّنت لهم واقعية الأحداث. سمعت و أنا في هذا التأمل و الحيرة، حركة الحراس في الممرّ بالقرب من الباب، و صوت قرقعة دلو، فقال لي الذي كان بقربي: حان موعد تقديم طعام الإفطار.

سمعت مرة أخرى قرقعة كبيرة، و سلسلة حديدية ترتطم بالباب الحديدي، فقفز أحد المعتقلين و أخذ صحناً بيده و قرفص قرب الباب. ما إن فُتح الباب حتى قفز مرة أخرى و معه الصحن. و لم تمض إلا ثوان قليلة حتى عاد و معه صحن مليء بطعام يشبه الحساء مع صمون (خبز افرنجي) على عدد المعتقلين.

كنت في حيرة من أمري عندما نظرت إلى الصحن. كيف يأكل أربعة أشخاص من صحن واحد بلا ملاعق؟ أخذ كل منهم صمونة، و نحت رأسها على شكل قريب من الملعقة، و هو الإجراء المعتاد اليومي لهم. كان الحساء لذيذاً جداً، بالنسبة إلي، بعد صيام دام يوماً كاملاً بلا طعام، و كان مزيجاً من العدس و الرز.

سمعنا بعد تناول الفطور، قرقعة أخرى عند الباب، و تراطمت السلسلة الحديدية مرة أخرى، و هي الإشارة التي تعلن عن موعد الاستحمام. حينما سمع الذين في الزنزانة صوت قدوم الحَرَس (تُستعمل كلمة الحَرَس في دائرة المخابرات للمفرد و الجمع)، قرفص المعتقلون مصطفين و متأهبين ليقفز كل اثنين أو ثلاثة منهم إلى دورة الغسيل، و طُلب مني أن أكون في النوبة الثانية. عندما فُتح باب الزنزانة فجأة، قفزت مجموعة النوبة الأولى حيث كانوا متأهبين لتلك الإشارة، مهرولين نحو الحمام. هذا ما يطلبه الحرس عادة، فالركض أو الهرولة

Twitter: @ketab_n

نحو الحمام يوفر بعض الوقت المخصص للغسيل. كنت متأهباً مع الوجبة الثانية، و قفزت مع الآخر، و ركضنا إلى الحمام. حيز الحمام واسع مربع الشكل. غسلنا بسرعة، و تناوبنا على استعمال المرافق، أحدنا يغتسل بينما الآخر يتبوَّل أو يتغوَّط. لا مجال للنظر إلى ما يقوم به الآخرون، فالوقت أثمن من إضاعته في النظر إليهم. كانت حركتنا بسرعة مذهلة و متسقة في كسب الوقت، و كانت أشبه بمعركة لكسب الوقت، كآلات ميكانيكية، أو نتيجة تدريب عسكري صارم، و الخوف من مدرب متشدد. كان علينا أن نختلس النظر إلى بعضنا في نوبات متتالية، و بذلك نؤمن كمجموعة ضبط اتساق استعمال المرافق من دون أن تمر اللحظات عبثاً. كان استحمامنا بلا صابون، بالماء الحار فقط.

لا تزيد المدة المخصصة للاستحمام عن ثلاث أو أربع دقائق، يبقى خلالها باب الحمام مفتوحاً و يراقبنا بين حين و آخر الحارس، حتى لا نتكلم مع بعضنا. فالكلام في جميع الحالات ممنوع؛ في داخل الزنزانة و في خارجها.

ظهر لي في ما بعد أن الحرس الذين يراقبون دورة الغسيل نوعان: منهم من يصرخ بين حين وآخر يطلب السرعة في الاستحمام، صارخاً بأعلى صوته و إلا «كسرت عظامكم،» و يستعمل هذا النوع من الصراخ و التهديد ضمن المدة المخصصة للاستحمام. أما النوع الآخر من الحرس فأكثر تساهلاً، يمدد أحياناً لنا فترة الاستحمام إلى دقيقة أو أكثر من المدة المخصصة، و يتركنا أحياناً أخرى بلا رقابة و يسمح لنا بأن نجلس فوق حوض المرحاض عند التغوُّط. لا توجد هنالك ساعة ولا جرس يتحدد بموجبهما الوقت، و إنما هناك حدس للمدة المخصصة، كما لو كان هناك اتفاق بين الحرس و المعتقلين، فللمجموعة المعتقلة حس للزمن ينبههم و يضبط حركاتهم حتى تتم

Twitter: @ketab_n

خلال الوقت المخصص، و ما إن ينتهي الوقت حتى يصرخ الحرس: «يله هرولوا»، «كافي يله». و قد أطلق من قبل الجماعة في الزنزانة على المجموعة الأولى من الحرس لقب «الوحوش» و على المجموعة الثانية تسمية «الزين» أو «الواعظ» أو «الفيلسوف».

نبقى راقدين غالب الوقت من دون حركة في الزنزانة حتى موعد وجبة طعام الغداء. الصمت هنا أشبه بعتمة الزنزانة، يتعود الكل عليه و يتآخى مع العتمة معه. لا نسمع شيئاً سوى أصوات حركة السيارات و صفير قطار من بعيد. كان يعيش الجميع في انتظار حدوث شيء. و إن تم استدعاء أحدنا فلا يعلم لماذا: هل هو تحقيق، أم هو إفراج، أم تعذيب، أم محاكمة. أما أنا فلم أكن أعلم مصيري و ما ينتظرني، فقد انتهى التحقيق معي، و لكن ماذا بعد ذلك. كان هذا السؤال يقضّ مضجعي و يجعل ليلي أرقاً طويلاً من دون أن أدري ماذا يخبئ لي المجهول. كان القلق ينهش أحشاءنا، و علينا أن نكبت إنسانيتنا و نجمّد ما فيها في دوامة انتظار طويل لا نهاية له.

طال الزمن، و سمعنا مرة أخرى قرقعة الدلو، فقفز أحد الراقدين من بيننا و تهيأ يحمل صحناً في يديه، و عندما فُتح باب الزنزانة قفز إلى الخارج و عاد مع صحن مليء بالأرز و فوقه مرق بلون غامق من الصعب معرفة ما يحتوي عليه. نادراً ما كنا نجد قطعة لحم، و لكن حينها تكون كمية العظام أكثر من اللحم. و في فترة إفطار الصباح استعمل الجميع منحوتات الصمون كملاعق، أما الآن فالبعض استعمل الصمون كملاعق كما في الصباح، و الآخر التقط الأرز و المرق بيده، أما أنا فلم أستطع تناول الطعام بملعقة «صمونية» واحدة، كما فعل البعض، فنحتُّ ملعقتين من نهاية الصمونة، الثانية كمساعدة للأولى. و تمكنت بتلك الطريقة من تناول الطعام بلا ملعقة حقيقية.

Twitter: @ketab_n

كانت وجبة العشاء صموناً مع حساء أسود غامق اللون. كنا نرى الحساء بهذا اللون بسبب العتمة في الزنزانة، و يكون عادة مع شاي في إبريق ألمنيوم كبير الحجم، و أغلبه «بثل» (البثل: بقايا ورق الشاي في الإبريق)، و عندما ننتهي من شرب الشاي، يبقى في الأقداح ما يعادل ربعه أو ثلثه من «البثل». كان الشاي أسود اللون مع كمية كبيرة من السكر، فهو أقرب إلى الدبس منه إلى الشاي. كان اعتراض الجماعة في الزنزانة على كمية «البثل» و ليس السكر.

أصبح الاستحمام و تناول وجبات الطعام و النوم و الانتظار، بعد اليوم الأول في الزنزانة، أحداثاً متتالية متعاقبة من روتين حياتنا اليومية، كئيبة و متكررة، من دون أي تغيير في نمطها سوى خروج معتقلين و ورود آخرين محلهم.

اعتاد من كان في الزنزانة الاستحمام من دون صابون، لمدة أسبوع أو أكثر. كانت ممارسة لم أتمكن من إقناع نفسي بقبولها، أو التعود عليها. بعد هذه الفترة، و حينما كنت في الحمام، شاهدت قرب المغسلة مسحوقاً لغسيل الملابس و الأواني، لا بد من أن أحد الحرس قد نسيه هناك. انتهز احدنا لحظتها غفلة الحرس، و أشّر لي أن أضع في جيبي كمية من الصابون المسحوق، فقمت بذلك، و خزّنت في جيب سترتي الجلدية كمية كبيرة من ذلك المسحوق. قمنا بعد هذا بتوزيع كميات قليلة منه على كل منا لكل نوبة من الاستحمام.

كانت العادة المتبعة في زنزانة المخابرات أن يبقى المعتقل بملابسه الخاصة حتى يقرر أمره، و لكن بعد عشرة أيام أو أكثر فُتح الباب و جاء حارس و رافقني إلى غرفة مجاورة و طلب مني أن آخذ بيجامة من كومة كانت مُلقاة على الأرض. كان تبديل الملابس الخاصة إلى بيجامة

Twitter: @ketab_n

المخابرات يعني أن المعتقل سيقضي وقتاً طويلاً في هذه الزنزانة، كما فهمته من الجماعة معي، و هو انتقال جذري في الوجود الزنزاني للفرد المعتقل. فهي حالة انتقال من ارتداء ملابس وسخة من غير غسلها و بلا غسل البدن لمدة من الزمن، و التأقلم مع وساخة البدن التي يتفرد بها و يعرفها و يعتاد عليها، و يكيّف نفسه معها، لأنها إفرازات بدنه التي عليه أن يتعود عليها، إلى استعمال بيجامة المخابرات، و هي حالة الانتقال إلى المعيش مع روائح الآخرين و وسخهم. فالبيجامة التي تسلمتها كانت وسخة جداً ذات رائحة نتنة، يمتزج بها عرق المعتقلين الآخرين و روائحهم، مع زناخة خانقة، كما كانت مبقعة بالدم المائل إلى السواد، و امتزجت بروائح متنوعة من الصنان، و الإفراز المنوي اليابس لشخص أو أشخاص متعددين، فلم أستطع تحمل هذه الروائح. كانت ملابسي في تلك الفترة قد امتلأت بالقمل، فتخليت عنها، و بقيتُ في سروالي الداخلي، و تلفلفت ببطانية، و تكورت في الركن الأيسر من الزنزانة. تجنبت بهذا الإجراء البسيط إلى حد ما روائح البيجامة و أوساخها، كما تجنبت القمل سوى ما كان عالقاً في البطانيات، و هذا قليل نسبياً لأن البطانية لا تحتوي على طيات. أخذت ألبس البيجامة الرسمية فقط عند خروجي إلى الحمام، أو حينما أُستدعى إلى التحقيق. كان قماش البيجامة من نوع البازة «الفانيلة»، و هي سميكة و لها القدرة على حمل الأوساخ و الروائح و امتصاصها و اختلاطها بنسيجها. و يأخذ التعفن صفات روائح عضوية غريبة لحاسة الإنسان التي ولدت معه. كانت البيجامات بيضاء أو من الألوان الفاتحة في الأصل، فتحولت في هذه البيئة إلى ألوان غامقة بسبب تنوع الأوساخ التي تحملها، و تفاعلت تلك الأوساخ ضمن نسيجها و طياتها، فاكتسبت روائح و صفات لزجية تتفرد بها.

Twitter: @ketab_n

لا تتحدد بيئة الزنزانة فقط بظلمتها و ضيق مساحتها، و رداءة هوائها و عفونة البيجامات التي تحملها أبدان المعتقلين، بل تشمل أفرشة الزنزانة القطنية. و لعتق هذه الأفرشة يتكور قطنها و يصبح كتلاً تؤلف نتوءات بحيث يصبح سطحها من كومات قطنية صلدة تبرز بين فراغات خالية كلياً من حشوها القطني. كان كل منا ينظم تلك الأكوام القطنية بحيث يستحدث فجوات مسطحة نسبياً ليتمكن من الاستلقاء عليها، و إلا يصبح الاستلقاء معاناة لا تطاق. و الغريب في الأمر هو قدرة بدن الإنسان على التكيف بحيث يتمكن من التعود على الاستلقاء على هذه المسطحات المتعرجة.

يتسع حيز الزنزانة لأربع فرشات، و إن جاء معتقل آخر مع فرشة إضافية، فيتم تنظيم الأفرشة بعضها فوق البعض الآخر. كما يجهز كل فرد ببطانيتين. و العادة المتبعة هي استعمال إحدى هذه البطانيات و فرشها فوق الأفرشة عند تسليم صحن الطعام، فيتناثر عادة بعض الطعام، و خاصة الأرز، من بين أيدي البعض، أو من الصمونة التي تستعمل كملعقة فوق البطانية التي تصبح في هذه الحالة خِوان المائدة، إضافة إلى رمي البعض العظام فوقها، إن وُجدت بين المرق. تنتقل زفرة الطعام إلى البطانيات التي تستعمل في لف الأبدان أثناء النهار، و عند النوم في فترة الليل. كان «حامد الحلاوي» أو حامد من الحلة يرمي العظام على البطانية و ينثر الأرز عليها، أكثر من المعتقلين الآخرين.

في تلك الفترة، لم يكن مضى على وجودي في الزنزانة أكثر من عشرة أيام، و كان ينقل بعض المعتقلين إلى زنزانات أخرى، أو إلى المحكمة بعد انتهاء التحقيق، أو يأتي معتقلون جدد. كان من حسن حظنا أن أُودع في زنزانة رقم «٢٦»، معتقل كان يحمل شفرة حلاقة،

Twitter: @ketab_n

التي كان اقتناؤها ممنوعاً منعاً باتاً، و تعتبر من أخطر الأشياء التي يمكن أن يجدها الحرس عند المعتقل. كان سروري عظيماً بها.
و خطرت ببالي خطة. فعندما نُقل معتقل من بيننا إلى المحكمة، و عليه أن يرتدي ملابسه التي جاء بها من الخارج، طلبت منه ألا يأخذ البيجامة و إحدى البطانيات معه خارج الزنزانة. و هذا ما قام به من دون أن يعي الحرس ما حدث. شرحت للجماعة خطتي، و هي أن نقوم بقص البطانية إلى قطع متناسبة الأبعاد لتؤلف مناديل و خواناً للطعام، و نقص البيجامة إلى قطع صغيرة نستعملها عند تنظيف الزنزانة، كما نستعمل قسماً منها للتليّف عندما نستحم مما يسهّل علينا عملية الاستحمام السريع. أقدمنا على قص البيجامة و البطانية بأبعاد مناسبة، و أخذنا نهربها معنا إلى المغسلة بانتظام لغرض غسلها، و بخاصة مع وجود كمية لا بأس بها من الصابون المسحوق في جيب سترتي، و نعيدها معنا قطعاً نظيفة تفوح منها رائحة النظافة العطرة.
و لقد قلّلنا بذلك من الروائح الزنخة و النتنة التي كانت تملأ البطانيات سابقاً، فقمنا باستعمال البطانية كخِوان جوّاني فوقه خوان صغير من قماش البيجامة. كنا نقوم بغسل الخِوان من قماش البيجامة كل يومين أو ثلاثة، و غسل قماش البطانية في فترات أطول، فتنظيف قماش البيجامة سهل و من الممكن إخفاؤه عن أنظار الحرس عندما يُسمح لنا بالغسل في الحمام. وضعنا قماش البيجامة فوق خوان البطانية لحمايته من الاتساخ، كما أن قماش البيجامة أكثر جمالاً من البطانية، لأن لون البيجامة أبيض أو قريب منه، و هي مقلمة مما يزيدها رونقاً، و أصبحت أكثر بياضاً كلما تكرر غسلها. انتظم بهذه الطريقة، أمر من كان يرمي العظام على الأفرشة و البطانيات، و أصبح الآخرون يتقيدون بسلوكيات تناول الطعام فوق الخِوان، والتزموا بـ«آداب الخِوان».

Twitter: @ketab_n

تختلف وجبة الطعام في الزنزانة عن وجبة الطعام خارجها. ففي خارج الزنزانة، خارج جدران المخابرات، يسبق وجبة الطعام عادة الشعور بالجوع، و ينتهي بعدها أحياناً بامتلاء المعدة و الشعور بالانتفاخ و حتى التخمة، مما يؤدي إلى الندم بسبب الإفراط في الأكل. و هذا في الوقت نفسه تعبير عن تطور تأمين الطعام للإنسان و ضمان حاجاته منذ ظهوره. فيتذوق الإنسان ملذات الطعام، و باكتسابه هذه الملكة، لم يعد هدف الطعام إرضاء الحاجة البيولوجية التي تؤمن إدامة البدن و نموه و القدرة على التكاثر و ضرورة ديمومة الوجود الجنسي فحسب، بل الاستمتاع الواعي و الحسي بهذا الوجود. إنها صفة يتميز بها الإنسان عن مجمل المخلوقات الأخرى. إن تطور ظهور الإنسان بتركيب بيولوجي يضمن القدرة على التحسس الأستطيقي، أي حب الجمال و تحسسه، حيث أُخذ هذا المنحى كحاجة مستقلة بحد ذاتها من بين الحاجات الرئيسية الأخرى التي يعيها الوجود و يسعى إلى إرضائها. يفترض إرضاء الحاجة الأستطيقية لدى الإنسان ضرورة التمتع بالوجود، و التلذذ به عن طريق التنويع في مختلف ممارسات الوجود عند تعامل الفرد مع عالمه الخارجي، بما في ذلك علاقته بالطعام. و يعني هذا أن التنويع في وجبات طعام الإنسان ليس ترفاً إضافياً في الوعي بالوجود، بل ضرورة متأصلة في إنسانية وجوده. و إن ظهرت، أحياناً، إرادات حددت التنويع في الطعام و ممارسات المعيش، كما عند بعض المتزهدين و النساك و المحرمات لدى بعض الأديان، فإنها حالة فرض إرادات الذات على المتطلبات التنويعية لإنسانية الإنسان و كبتها، بإرادته و اختياره. فالتنويع في وجبات الطعام سمة متأصلة في معيش الفرد، سواءً ضمن تناول الوجبة الواحدة، أو بتعاقب الوجبات.

Twitter: @ketab_n

لا تمتلك في الزنزانة حرية القرار، لذا تتكرر نوعية الوجبات و يصبح التعامل معها تعاملاً لاإرادياً، بل قسرياً. و في حالة مثل هذه، يكبت الجوع المتأزم الذي يتعرض له البدن الحاجة الأستطيقية للتنويع، فتتعظم حاجة البقاء النفعية المحضة و يغالي بها الوعي. تتحول، عند ذاك، الحاجة الأستطيقية، و ضمنها التنويعات التي تبتكرها المخيلة في واقعيات الوجود، إلى «فنطزة» ضمن المخيلة بمعزل عن واقعيات الوجود. تتوسع من هنا هذه الأخيلة و تتعدد صورها و تأخذ منحى فنطازياً (و ربما أكثر فتأخذ منحى فنتسماغورياً phantasmagoria أي تظهر كمتخيلات صورية لشكلياتها و مناسباتها، فتتفاعل ملذاتها و اشتهاؤها). فإذا همس أحدنا بكلمة «كاهي» أجابه الآخر «قيمر»، و إذا سمعنا همسة بكلمة «تشريب» همس الآخر «تشريب بامية»، «لحمة عصفور»، «ثوم»، «بصل»، «تشريبة مع حبة رمان»، «تشريب مع باذنجان»، و كيف ننسى «تشريب باقلاء مع بيض». فكنا نقضي ساعات من همس في فنتسماغوريات، لا تعوض عن واقعية تذوق التنويع، بل تنقل التنويع إلى مخيلة مهلوسة، فتتمكن هذه المخيلة الجامحة من الاستمرار في إنسانية مستعارة، و في وجود مسلوب الإرادة.

تتصف وجبة الطعام في الزنزانة بالشعور بالجوع: قبل الوجبة و بعدها، فهو وعي بالجوع يقترن بالوجبة، أي هو الوجود الجائع في انتظار الوجبة، و بعد الوجبة.

يتمكن الإنسان، بسبب وعيه الحر بوجوده، أو بقدر ما تكون مخيلته حرة، من أن يكيف نفسه على التأقلم مع ظروف جديدة، أو قد يقبل بواقع جديد على مضض، و مع ذلك يتعايش معه. إلا أن الشعور بالجوع حاجة طبيعية، وظيفته الإعلان أن هناك خطراً على حيوية البدن و الوجود، فينبه الدماغُ الكيانَ إلى الشعور الجوع، و لا يتمكن أن

Twitter: @ketab_n

يتكيف معها، فيطلب الطعام. فكانت ترافق وجبة الطعام رغبة و شوق شديدان للمزيد منها، و أصبح بذلك واقع الوجود بالنسبة إلينا جوعاً مزمناً، فالجوع يضبب المذلة، و أحياناً يتجاوزها، و أحياناً أخرى يبررها. و كان على الذي يكلف من بيننا بتسلم وجبة الطعام أن يبقى منتظراً لحظات من الزمن ماداً الصحن أمام الحارس الذي يقوم بوظيفة تفريغ الوجبة، قريباً من دلو الطعام، بشرط ألا يزعج الحارس الذي يقوم بتفريغ الحصة، و تخصيص كمية الوجبة، و تفريغها في الصحن الذي يحمله أمامه صاحبنا بيده الممتدة. إنها لحظات حرجة، فإما تحصل زيادة في الحصة، أو غضب مصحوب بشتائم. كان واضحاً أن الهدف من إضافة تلك اللحظات من تأجيل سحب الصحن، و اليد الممتدة أمام الحارس، هو إيماءة توسل ضمني صامت عسى أن يضاف نصف «جفجير (ملعقة) كبيرة» من الأرز إلى الصحن. كنا نتمنى تلك الزيادة بالرغم من تكرار نوع الطعام في كل وجبة و رداءة طعمه.

أدركت الجماعة، لسبب لم يكن واضحاً، حينما كنت أكلَّف من قبلها، أو أتبرع بأن أكون الشخص الذي يخرج من الزنزانة لتسلم وجبة الطعام نيابة عنهم، أنني كنت أحصل على تلك الإضافة من الطعام. كنت أتبرع بهذه المهمة و إن كنت أعلم أنها لا تخلو من مخاطر. فإن كان موزع الطعام الحارس الذي يرتدي «اليشماغ» الأحمر، و الذي اصطلحنا عليه بـ«الوحش» أسمع صوته الوقح و العدائي و هو يصرخ: «يكفي». بالرغم من ذلك، كان خروجي من الزنزانة لمدة نصف دقيقة أو أقل، إلى عالم يتمتع بقليل من الضياء، و الهواء النقي نسبياً، الذي يأتي من إحدى نوافذ الممر التي تطل على العالم الخارجي، متنفساً لي. لا أدري لِمَ كانت المعاملة التي تمتعت بها نسبياً أحسن من الآخرين.

Twitter: @ketab_n

كان يُرمى علينا، بين حين و آخر، شيء من التفاح و التمر، تفاحة واحدة لكل منا، من الفتحة من أعلى الباب الحديدي، فتكون مفاجأة سارة، و فرصة للمس تفاحة حقيقية، و ليس في المخيلة فقط، فنحس بنعومتها و نشم رائحتها و نتأمل لونها القاني، و نستطيع تمييزه حتى إن رُميت علينا في ظلمة الليل، لأن مخيلة الجوع تخترق عتمة الليل. لم تكن هنالك مواعيد معينة لتلك المفاجآت السارة، فربما تُرمى علينا في الصباح، أو في المساء، أو في أي وقت آخر، و لا فرق في ذلك، فنحن في الزنزانة نكون دائماً في انتظارها، و في انتظار أي شيء يرمى علينا في تلك اللحظات، أياً يكن، فيهجم كل من في المعتقل و يمسك بالتفاحة التي تقع بالقرب منه فيأكلها، بلا انتظار أو تأنٍّ. اقترحتُ عليهم، عندما تساقطت التفاحات علينا في المرة الثانية، ألا نأكلها حال سقوطها، بل نقسم كل تفاحة إلى أربعة أقسام، ما دمنا نمتلك شفرة، و يتناول كل منا ربع تفاحة بعد وجبة الطعام، و يمكن لنا بهذه الطريقة أن نستمر في أكل التفاح لمدة أربعة أيام متتالية. وافقت الجماعة، و سُلّم لي موسى الحلاقة فشطرت تفاحة إلى أربعة أقسام متساوية، و قسمتها على الموجودين.

* * *

هناك أنواع متعددة من الجوع:

١ ـ جوع مزمن، بسبب قحط أو عوز، و هو يقترن بعذاب جسدي و نفسي، ومع ذلك يتكيف الإنسان معه، و تستكمل الذات وجودها بهذا التكيف عن طريق قناعة رضائية، و هو جوع الفقر.

٢ ـ النوع الآخر هو الذي يسبق جوع الوجبة المنتظمة للطعام، و هو الجوع الذي يتعرض له أغلب أفراد الجنس البشري. و هو جوع

Twitter: @ketab_n

اختياري أو منظم تفرضه متطلبات نوع العمل، أو الحالة التي يجد الإنسان فيها نفسه، كالسفر و المرض. و لأنه جوع اختياري و منظم، أو له تصور منظم، فإنه يرافقه تنظيم في المخيلة. و يحصل بعد تناول الوجبة اطمئنان بالوجود و إرضاء لحاجاته، الجسدية النفعية و الحسية الذوقية.

٣ ـ النوع الثالث الذي عانينا منه، هو جوع مثبط لأنه مقترن بقلق، فنحن لا نعلم كم سيدوم، و ما سيرافقه من مفاجآت، و لكل منا في الزنزانة روايات عن تلك المفاجآت. إنه جوع يخضع لنظام صارم، و نحن آخر من يعلم بمواعيده و مسبباته، و إن كانت أجسادنا هي التي تكون موضوع هذا العَوز القسري و حقول تجاربه. فهو ليس جوع العوز، و إنما جوع يهدف إلى إخضاع إرادة الفرد و إذلاله، و تحطيم معنوياته، و إضعاف بدنه ليتحقق بذلك إضعاف نفسيته أيضاً. كما أنه جوع يعي الجائع فيه ما يتعرض له، فهو جوع متقصد، لذا لا ينتهي ما لم يتحقق إخضاع الذات لذلك القصد. و لكن الوعي بكبت الذات و هدف إخضاعها يجعل المخيَّلة تقفز و تتوق إلى الحالة المعتادة السابقة، و ليس إلى المستقبل، لأن الزنزانة لا مستقبل فيها، و لا سلاح دفاعياً للفرد سوى مخيلة خارجة عن واقع ذاته، و هي مخيلة الانتقال من هذه الحالة إلى الحالة التي تسبقها، أي إرجاع الزمن إلى طعام كان متيسّراً الحصول عليه في الماضي. هكذا يكون الوجود في عتمة الزنزانة داخل الباب الحديدي.

يؤلف الجوع و الشبع علاقة مكملة و متناوبة، و لولا هذه العلاقة لن يتمكن الإنسان من إدامة وجوده، و إن فسدت هذه العلاقة و أصبحت أحادية، و من دون أن تتناوب، أي أصبحت حالة جوع دائم، يفقدْ ذلك الكيان القدرة على الوجود و الحس بإنسانيته. و تتمثل

Twitter: @ketab_n

هذه الحالة بعوز الفقر و الجوع المتقصد. إذاً، الشبع ضرورة بيولوجية، و هي بطبيعتها نوعان لدى الإنسان. فهو أولاً، ضرورة بدنية تؤمن البقاء، بما في ذلك إدامة الجسد و تأمين القدرة على نموه، و بالتالي تكاثره. و من هنا ظهرت لدى الإنسان ملكة الشبع المريح و الممتع. الشبع المريح يستند إلى قيم ذوقية لمتنوعات الطعام، شكلياتها، و طعمها و طرق عرضها بما في ذلك تنظيمها و ألوانها التي تؤلف أنماطاً شكلية متسقة تسر الذوق المهذب. إن الشبع المريح هو تلك الوجبة التي توازن بين المتطلبات البيولوجية لإدامة البدن، و يتداخل معها، إرضاء الملكة الذوقية المهذبة في الوقت نفسه.

غير أن الجوع المزمن، خاصة إذا كان جوعاً قسرياً، تنقلب فيه ملكة الذوق، و حاسة التمتع بجمالية الوجود، اللتان هما هي جزء من كيان الفرد، إلى هلوسة في المخيلة لوجودٍ خلف الباب الحديدي و بعيداً عنها، خارج سلطويتها فتتزاحم صور الطعام في الذهن من الكباب و الدجاج و غيرهما، و تصبح جزءاً مهماً من كيان الوجود من تخيل و تأمل و تذوق للطعام.

بين حين و آخر، و لفترات متباعدة، قد تطول شهرين أو ثلاثة، يأتي الحرس و يقودوننا إلى سطح المبنى و يطلبون منا غسل أكوام متروكة من البيجامات. كان كل منا يقوم بغسل بيجامته في طست و نحن جالسون على الأرض أو مقرفصون. أنهكني تنظيف بيجامتي، و لم يكن لديّ الطاقة الكافية لتنظيفها فأكمل رفيقي غسلها. كانت تلك مناسبة سارة حقاً في وجودنا على السطح لمدة نصف ساعة أو أكثر، سُمح لنا خلالها باستنشاق الهواء النقي، و النظر إلى زرقة السماء، و التمتع بدفء الشمس، و مشاهدة القسم الأعلى من شجرة خضراء مرتفعة خلف السياج العالي للسطح. عندما عدنا إلى الزنزانة، أشار

Twitter: @ketab_n

أحد الرفاق إلى إن عملية التنظيف لا تخلو من خيبة أمل، إذ بعد أن تنشف البيجامات، يكلف شخص ليس بالضرورة من الزنزانة التي نحن فيها بجمعها و توزيع أعداد منها على زنزانات أخرى. و يعني ذلك أننا لا نستلم بالضرورة البيجامة التي استنفدنا جهودنا في غسلها.

ذات يوم، حينما جاء موعد توزيع وجبة المساء، خرجت أنا لتسلم حصتنا من صحن الحساء الأسود. قلت للحارس، الذي كان من حسن حظي متسامحاً نسبياً، و الذي اصطلحنا عليه بـ«الواعظ»، أن يسمح لي بجلب البيجامات من السطح، فوافق. يا لها من سعادة، إذ تمكنت من انتقاء البيجامتين اللتين قمت بغسلهما مع رفيقي. كانت رائحتهما زكية، و أصبح قماشهما أملس و نظيفاً، و لونهما أبيض ناصعاً، وزال منهما ما امتصتاه من عرق و أوساخ و روائح عفنة.

لم يخلُ الاغتسال و التنظيف بعد وجبات الطعام من مفاجآت، محيرة أحياناً أو مثبطة. ذات يوم جاء دورنا للذهاب إلى الحمام. كنا ثلاثة معتقلين. كان الحمام عبارة عن غرفة مربعة الشكل، تحتوي في أحد أركانها على مرحاض شرقي من نوع الخزف الذي نقرفص عليه، و لا يفصله قاطع أو باب. كانت في الحمام حنفيتان، واحدة عالية تستعمل كدش shower لغسل الرأس و البدن، و الأخرى واطئة لغسل الأيدي و الأرجل، و كانت هناك بالوعة تقع قرب المرحاض و المغسلة الواطئة، و قرب مدخل الحمام برميل كبير خصص للقاذورات، بقطر خمسين سنتمتراً أو أكثر و بارتفاع سبعين سنتيمتراً. كان باب الحمام يظل مفتوحاً خلال مدة وجودنا فيه، بينما يراقبنا الحارس قرب الباب.

عندما دخلنا الحمام كان حوض المرحاض يطفح و يسيل على جانبيه البول و كتل من البراز. لاحظت أن الذي دخل قبلي للتبوّل

Twitter: @ketab_n

«طرطش» البول على بدنه و بيجامته. جاء دوري فلم أستطع أن أتجنب ما حل بمن كان قبلي. قفزت بعد أن قضيت حاجتي من المرحاض، بسرعة نحو الحنفية الواطئة و نظفت نفسي. لكن لازمني الإحساس بأن ما كان ينزل مني و يقع في ذلك الخليط من السوائل و الكتل المختلطة به، يعود رذاذها القذر إلى جسدي. فكرت في إيجاد حل و لكن لم يكن هناك حل، لأن مجاري المرحاض كانت مغلقة كلياً.

فكرت بخطة ربما أستطيع أن أحققها عندما نذهب في المساء إلى الحمام، فقلت لأصحابي: دعوني أكُن أول من يستعمل المرحاض في الدورة اللاحقة، فوافق الجميع على ذلك. عندما جاء دور زنزانتنا، دخلت غرفة المرحاض، و أخذت بسرعة جنونية الطاسة المخصصة لغسل الرأس وباشرت أغرف بها من حوض المرحاض وأكب ما أغرفه في البالوعة التي لا تبعد أكثر من متر و نصف، و أقفز بسرعة بين هذين الموقعين، البالوعة و حوض المرحاض، و أُفرغ ملء طاسة مع كل حركة. و قد تمكنت بهذه الحركات المتتالية من تفريغ و كب سريع، في أقل من دقيقة، من أن أُفرغ حوض المرحاض. و حينما جاء دوري في استعمال المرحاض، كان الحوض نظيفاً. تكررت هذه العملية ثلاث أو أربع مرات عندما كان حوض المرحاض ممتلئاً، و كنت في كل مرة أقوم بتفريغه بتلك الحركات السريعة التي أتقنتها و أصبحت ماهراً في تحقيقها، إلى أن قامت إدارة المخابرات و نظفت المجاري، و عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي. لكن لم يتحقق تنظيف حوض المرحاض كلياً، أو لم تتمكن الإدارة من فتح المجاري و تنظيفها جيداً، لذا كان حوض المرحاض يحتوي دائماً على أكوام البراز، لكن ليس بالكمية التي تمنع تسرب البول.

من المفاجآت السارة السماح لنا بالاستحمام، الذي لا يتحقق أكثر

Twitter: @ketab_n

من مرة خلال عدة أشهر. تبدأ المفاجأة السارّة بقرقعة أخرى للباب و السلاسل، عادة بعد منتصف الليل، و إذا بالحرس يصرخ: «تحرك، حمام،» فنستيقظ من نومنا مبهوتين، فرحين أيضاً، و نجد عدداً كبيراً من الحرس مع ضابط يشرف على العملية، يراقبون ركضنا من الزنزانة إلى الحمام، ثم تحت الدش. كانت مفاجأة مرعبة في البداية، فالحرس يقف بعضهم في باب الحمام و بعضهم في الممرات. و لكن بمجرد أن يرطب ماء الدش الحار أجسامنا ينقلب الرعب إلى مفاجأة سارة نادرة، و هي راحة تحرُّر أجسادنا من أدران عرقنا التي تتشبّع مسامات جلدنا بها، و تتحول إلى فتائل سوداء كلما نمسها. كانت تلك الأدارن تتراكم و تلازمنا في حياتنا اليومية أشهراً متواصلة.

و من المفاجآت الكثيرة الأخرى في المعيش في الزنزانة، الذي ابتدعته إدارة المخابرات، أو حرس المخابرات، طريقةُ استعمال شفرة الحلاقة. إن آلة الحلاقة القديمة تتكون من أربع قطع: اليد و قطعتين أخريين تلتصقان و يتم ضبطهما ببرغي اليد فتكوّنان قاعدة و غلافاً لحصر الشفرة. ثم تُستبدل الشفرة عندما تفقد حدتها. لم أتمكن من إيجاد سبب منطقي لكسر الشفرة إلى قسمين، و استعمال الغلاف مع عود كبريت للضغط على أحد نصفي الشفرة، فيصبح القسم الحاد بدون الغلاف لحماية جلد الحالق. و لذا يتطلب مهارة جديدة في عملية الحلاقة، و إلاّ يُصَب الفرد بجروح متعددة. و بالرغم من اعتنائي الكبير بكيفية استعمال هذه الأداة، كنت كغيري أصاب بجروح عديدة أثناء حلاقة اللحية. كانت وساخة آلة الحلاقة سبباً في التهاب الجروح التي تبقى أماكنها مصدراً لتراكم الجروح و الالتهابات. هذا بالرغم من أن المدة بين حلاقة و أخرى كانت أسبوعاً. طلبت من المحقق أن أتوقف عن الحلاقة و أسرّح لحيتي، فوافق على ذلك بلا تردد، بالرغم

Twitter: @ketab_n

من أن تسريح اللحية كان ممنوعاً. كان هذا امتيازاً حظيت به. لم أكن أدري إن كان ابتداع الحلاقة بنصف شفرة اقتصاداً بعدد الشفرات. و لم أعلم إن كان منع تطويل اللحى بهدف منع عدم انتشار القمل الأسود. هذا و يقول الذين في الزنزانات بأن وجود القمل الأبيض في الزنزانات هو من عمل إدارة المخابرات!

***

ذات يوم بعد وجبة الطعام، و حينما كنا في المرحاض، لاحظ أحدنا أن هناك فوق الأوساخ في برميل النفايات علبة مفتوحة مملوء نصفها بمربى البطيخ (الرقي). وضعت العلبة على طبقة من الأوساخ السوداء اللون، و لكن بالرغم من ذلك، فإن إغراء المربى لا يمكن مقاومته. وضعنا خطة لنقلها من برميل الأوساخ إلى الزنزانة عن طريق الإشارات بعد أن يتم غسل القسم الخارجي من العلبة و إزالة الطبقة الفوقية من المربى، و ذلك عندما يُسمح لنا بأن نخرج من الحمام في طريقنا إلى الزنزانة. كانت السرعة في تنفيذ الخطة مهمة لنجاح هذه العملية التي يجب أن يقوم بها اثنان، أحدهما يحجب الآخر الذي يحمل العلبة. لا يمكن تصور اللذة عندما قسمنا محتويات تلك العلبة و وضعنا المربى داخل الخبز و بدأنا نستمتع بمضغها.

لا تقف المفاجآت عند هذا الحد، بل كان المعتقل يتعرض لمفاجآت من نوع آخر، كان بعضها خطراً، كمفاجأة التفتيش عن أداة جارحة كشفرات الحلاقة، أو قلم الكتابة. كان الحرس يُخرجنا من زنزانتنا في صف إلى الممر، فيفتش الحرس ملابسنا المتبقية في الزنزانة. لم يشمل التفتيش أجسامنا و بيجاماتنا، ربما لأننا كنا في بيجامات المخابرات و لسنا بملابسنا الخاصة. لم أكن أدري ما سيكون

Twitter: @ketab_n

مصيري لو فتشوا جيوبي و وجدوا مسحوق الصابون. تملكني الخوف حتى عدنا إلى الزنزانة. كانت مثل هذه المفاجأة تتكرر بين حين و آخر، ربما كل شهرين أو ثلاثة. كان أحدنا يحمل موسى حلاقة، فأخفاه بين قطن الفرشة في تلك اللحظات الرهيبة حينما دُقّ الباب و توالى صراخ الحرس «اخرجوا، تفتيش.»

لم يكن استدعاء المعتقلين في أي وقت مفاجئاً لنا، حتى و إن كان بعد منتصف الليل. فإذا نادى الحارس على «الرقم» المعين مع كلمة «البس»، نفرح لأن هذا يعني بأنه سيخرج من الزنزانة، فإما يرسَل إلى المحكمة أو يُفرَج عنه، و في كلتا الحالتين سيتخلص من ظلمة الزنزانة. فيجمع المعتقل ملابسه و يودّع المعتقلين الآخرين، ثم بعد برهة ينادي الحرس عليه ثانية فيخرج من الزنزانة و لا نعود نراه، و نبقى لا نعلم شيئاً عن مصيره.

أما الحالة الأخرى فهي الاستدعاء إلى التحقيق، فيكتفي الحرس بمناداة «الرقم» فقط. ترتهب بتلك المناداة القلوب و يسيطر عليها الخوف و القلق، لأن الاستدعاء يعني التحقيق، و التحقيق لا يعني الاستجواب الكلامي و النفسي فحسب، بل يشمل التعذيب الجسدي.

كان بين حين و آخر يفتح باب الزنزانة فجأة و يُرمى بيننا جسم: إما مهزوز، أو مدمى من التعذيب، و يكون ذلك الفرد في جميع الحالات في حالة من الارتباك التي تستمر ساعات أو أياماً فلا يتكلم مع الأشخاص المتمددين أو المكوَّرين في الزنزانة نفسها. هذه اللحظات هي تجربته الأولى في ظلمة الوجود. هكذا كانت حالة «حمى» حينما دفع الحرس به إلى وراء الباب الحديدي. كان في الصباح قبل وجبة الغداء، يرتجف و جسده مدمى من التعذيب. ظل

Twitter: @ketab_n

صامتاً. لم يكلمنا في البداية. و لكن بعد فترة، تعرفنا إليه و عرَّفنا أنفسنا، بأسمائنا، و ليس بأرقام إدارة المخابرات التي وشمونا بها. «حمى» شاعر كردي، مطّلع على الأدب الماركسي، و لذا ما إن استقر معنا في عتمة الزنزانة حتى أخذنا نبحث معه شتى المواضيع الممتعة، و قد نبهني على كتب في الأدب الماركسي لم يكن لي علم بها. كان يقرأ الشعر بلغته الكردية الأم ثم يترجمه لي.

* * *

القمل نوعان: أسود يستوطن الرأس، و أبيض يستوطن بين طيات الملابس. القمل الأبيض بطيء الحركة، و يحتاج إلى عدة أيام أو أسبوع قبل أن يتمكن من التغلغل في الملابس، و لذا لا يتعرض المستجد في الزنزانة لقَرص القمل إلا بعد أسبوع من دخوله إليها. عندما امتلأت ملابسي بالقمل، و أخذ ينتشر في مختلف طياتها، خلعت البيجامة و بقيت في السروال الداخلي ملتفاً بالبطانية. كان البعض منا يصرف ساعات المساء قبل غروب الشمس، عندما تكون أشعتها موازية للفتحة الصغيرة في أعلى باب الزنزانة الحديدي، في التفتيش عن القمل بين طيات ملابسهم. لم أتمكن من القيام بهذه العملية لأنني كنت بلا نظارات، و لكن تبرع أحد المعتقلين بتنظيف القمل من بيجامتي. و لكن بعد ما يقارب الساعة من التقاط القمل، لم ينجح في تنظيفها، حيث يتطلب ذلك متابعة يومية لساعة أو أكثر، مما يحرمه من متابعة تنظيف بيجامته. قرفصت في زاوية الزنزانة عارياً إلا من السروال الداخلي، تجنباً للقمل. بعد بضعة أسابيع تمزق الجزء الجوّاني من السروال، و انتفت بذلك وظيفته في حماية قاعدتي. و لكن ظل مفيداً و ضرورياً في حجب عورتي من الأمام. كان شعوراً غريباً عند ارتداء سروال داخلي ممزق من الخلف. بقيت مدة من الزمن على

Twitter: @ketab_n

تلك الحالة. ذات يوم فُتح باب الزنزانة من قبل الحارس قائلاً: «۲۰۰، هذه الجنطة لك.» كانت جنطة صغيرة، أهدتها شركة الطيران الهولندية إلى والدي كامل الجادرجي الذي كان يستعملها لوضع أدويته عند السفر. فتحت الجنطة و وجدت فيها إحدى بيجاماتي المفضلة مع سروال داخلي نظيف و جديد. لبست البيجامة و السروال الداخلي، و غطيت بذلك الجزء الخلفي من جسمي. كان شعوري غريباً في البداية بعد أن تعرض ذلك الجزء للعراء لمدة طويلة. و لكن لم يمض أكثر من أسبوع حتى ملأ القمل طيات البيجامة، و عدت ثانية إلى وضعي العاري ملتفاً بالبطانية، و لكن هذه المرة مع سروال داخلي غير ممزق.

ذات يوم جاءنا ضيف جديد. كان من الطائفة المسيحية التي لم تتعرض نسبياً لمضايقات سياسية، لأن عملها لا يتعارض مع عقلية السلطة، أو هي طائفة حذرة في ممارساتها و أسلوب معيشها، و لا يؤلف وجودها بذلك خطراً على مفاهيم السلطة. لم يتعرض الضيف الجديد، و لا أيٌّ من أقربائه أو معارفه، لإرهاب السلطة. كان الإرهاب في العراق شيئاً جديداً بالنسبة إليه. استطعت أن أعرف همساً من ضيفنا الجديد باسل أن هناك معارف مشتركة بيننا، و هو الدكتور حسن الجرجه فجي. كان للدكتور حسن تأثير مهم، في منتصف الأربعينيات، في توليد مفاهيم لتقبل الفن و الأدب الحديث، كموقف متحرر من التقاليد في تفهم العلاقات الاجتماعية، التي تقترن بالصيغ الجديدة المعاصرة لحرية الفرد. كنت أنا و قحطان عوني، و نحن طلبة في الدراسة المتوسطة، نزور حسن و نستمع إلى أحاديثه عن أوسكار وايلد Oscar Wilde. كان ضليعاً في أدبياته و تنظيره في الفن، و لم تكن تلك اللقاءات تشمل أدب ذلك الكاتب فحسب، بل موقفه

Twitter: @ketab_n

المتحرر في وجوديته التي يتفرد بها. و ما كان يؤنسنا هو انسجام معيشة الدكتور حسن مع تلك المفاهيم. كانت تلك أيام تطلع و توق دؤوب إلى تهيئة فكر جديد نسخّره نحو نقلة فكرية متحررة.

ذكرتني تلك الأحاديث التي كنا نهمس بها في الزنزانة بأيام نشوء شخصيتنا و تكوينها. كان الحديث مع باسل مشوق بحد ذاته، إذ كان ينتمي إلى جماعة في بغداد، هوايتها ابتكار و ممارسة و تبادل «البايخات»، فقص عليّ الكثير منها. و «البايخة» هي جملة قصيرة مؤلفة من مقطعين، ظاهرها لا يرتبط بمعناها، ولذا عند سماعها في الوهلة الأولى تُفهَم كجملة عبثية أو فاسدة، أو لا معنى لها. و لكن بعد التمعن في المقطعين، ندرك الارتباط، فيصبح المقطع اللاحق مكملاً للأول، و يؤلف الربط بينهما مفاجأة ذكية، و هنا مصدر المهارة في تركيبها و التمتع بحلاوتها و روايتها و ابتكارها و تداولها. و يتحقق هذا عن طريق اشتراك المقطعين بدلالة كلمة واحدة. فيقول، نموذجاً لـ«بايخة»: «الشرطي فك السير، وقعت الساعة.»

كان باسل في أسبوعه الأول في دوامة من التكيف على ممارسة طريقة الغسل و الأكل و العيش في الزنزانة التي لم يتصورها على هذه الحال في مخيلته مطلقاً، إذ لم يخطر بباله وجود زنزانة، فكيف بها إن كانت ظَلْماء و ظُلْماً! لم يمهل القملُ باسل إلا أسبوعه الأول، حتى يهاجمه و يحاصره من كل جانب. لم يكن يعلم بوجود القمل الأبيض الذي يستوطن في طيات الملابس قبل مجيئه إلى الزنزانة. ارتبك و لم يكن يدري ما العمل ولا الحل. في الحقيقة لا يوجد حل، كما يعلم الباقون في الزنزانة، سوى التفتيش عن القمل و التقاط البعض منه لتقليل أعداده و القضاء على بعض مواقع تركيزه بين طيات الملابس، إضافة إلى حك جلد البدن. أخذ الضيف الجديد يحك بدنه تارة هنا

Twitter: @ketab_n

و تارة هناك. و لكن لم يف الحك المتواصل بالغرض المطلوب بالنسبة إليه، فخلع ملابسه و أخذ يحك صدره بخشونة الجدار، فسال الدم من صدره، و شعر براحة التخدش الذي أصاب ظهره و صدره، و استبدل ألم قَرص القمل بألم الندوب و الجروح. حاولت أن أنصحه عدة مرات بأن هذا النهج قد يوصله إلى نتيجة أسوأ من القمل، و الحل الوحيد هو التعري، و لكن بلا جدوى. استمر على هذا المنوال لمدة من الزمن. قال لي مؤكداً إن أحد الوزراء هو صديق أو قريب له مهتم بقضيته، و لا تتجاوز قضيته مراسلة أناس أجانب للمتعة، بلا هدف أو سبب. لم تمض مدة طويلة على احتجاز باسل، حتى جاء حارس ذات يوم قائلاً الرقم و «البس»، فخرج باسل إلى عالم آخر، عالم خال من القمل. وعدته بزيارته عندما أخرج من الزنزانة و أجمع مجموعة من «البايخات» و أسعى إلى إصدار كرّاس بها، فوعدني بأن يجمع لي عدداً كبيراً منها، و لكن مرت الأيام و انتقلتُ من ظلمة من نوع معين إلى ظلمة من نوع آخر، و لم أف بوعدي، و خسرت فرصة الاطلاع على هذا النوع من «البايخات» و تسجيلها.

لم تكن خشونة الجدار الجصي بلا فائدة، و لم تنحصر فائدة خشونة الجدار في استعمالها أداةً لحك الجسم و جرحه فقط، بل كانت نتوءات الجدار تُستعمل لتعليق الملابس. كانت الملابس و الأحذية التي يصل بها المعتقلون إلى المخابرات عند تسلمهم البيجامات و النعال البلاستيكية، توضع تحت الوسادة عادة. كانت الملابس في بعض الأحيان تتبعثر بين الأفرشة، و قد ابتكر المعتقلون حلولاً لها و ذلك بتعليق البعض الخفيف منها بواسطة النتوءات في الجدار، و بذلك أصبحت تلك النتوءات تستعمل مشاجب للملابس.

***

Twitter: @ketab_n

عندما غادر باسل الزنزانة استبُدل به أبو كرم، و هو صاحب شركة نقليات بين بغداد و كركوك و أربيل. كان أبو كرم ضخم البنية، بديناً، مع كرش متهدلة بعض الشيء، عفوياً في سلوكياته و لغته و حركاته. يقضي الكثير من وقته باللعب بقضيبه، و غالباً من فوق البيجامة، و يمد أحياناً يده إلى داخلها. و اللعب بالخصيتين و القضيب عادة بغدادية مألوفة بين الطبقة الوسطى و دون الوسطى، و لكنها بدأت بالزوال أو خفت منذ الحرب العالمية الثانية في منتصف الأربعينيات. لم ألاحظ أحداً منا غير أبي كرم يداعب قضيبه، فهو بارد، لا دور له في عتمة الزنزانة سوى التبول.

كان أبو كرم محدثاً لبقاً. حديثه شيّق و ممتع، يركز معظمه على تفسير أحلام غيره. و الأحلام عنده مختزلة بنوعين: «عدل» أو «عكس». و مهما تكن أحداث الحلم فهي إما «عدل» أو «عكس»، و تعني في جميع الحالات أن صاحب الحلم سيُفرَج عنه قريباً. فإن كان الحلم مزعجاً، كرؤية حية أو الهبوط من مرتفع، يكن التفسير «عكساً»، و يَقُلْ للحالم بأن أحلامه هي من نوع «العكس» و لذا سيطلع عن قريب: «تطلع، تطلع، أنت تطلع،» و إن كان الحلم مريحاً و جيداً، كأن وجد الحالم نفسه بين أهله أو في السوق، يكن التفسير «عدلاً»، و إذا حلم الفرد ذاته في اليوم التالي حلماً كابوسياً، فيقول له بأن نوعية أحلامه صارت «عكسية»، و يكون التفسير في جميع الحالات مبشراً بـ«تطلع أكيد، ما بيها» و لن تبقى في السجن. وإذا ما اعترض الحالم على هذا التباين، كان أبو كرم يهمل الاعتراض و يؤكد على النوعية التي يريد أن يفسرها للحالم. كان أبو كرم سليط اللسان، فجميع الحرس بالنسبة إليه هم ذوو صفة واحدة، و الفرق بينهم نسبي. فقد صنفنا قبل مجيئه الحرس إلى عدة أصناف: «وحش» و «واعظ»

Twitter: @ketab_n

و «سرسري». و الـ«وحش» هو الذي لا يمنحنا مدة كافية للغسل، و يقلل حصة الطعام، أو يضرب أحياناً أحدنا، أو جميعنا عندما نمر من قربه في طريقنا إلى الحمام. و الآخر الـ«سرسري» تتشابه سلوكياته مع الـ«الوحش» إلى حد ما و لكنها مخففة. و الأخير و هو الـ«الواعظ» كان يمنحنا وقتاً أكثر من المعتاد، و غالباً ما كان يملأ صحن الطعام أكثر مما يملأه الآخر. و لكن كان ينسلّ في الممر و يختبئ وراء الباب الحديدي و يتنصّت لأحاديثنا، فإن كان كلامنا يشير إلى السلطة، كان ينهض و يؤنبنا و يهددنا بغضب. هكذا كانت تصنيفات الحرس حتى جاء أبو كرم معنا. تغيرت عنده الأسماء و صُنِّفت كما يلي: «هذا منيوك» و الآخر «هو و أمه مناويك،» و تصعيداً في التصنيف «هذا هو و أمه و أخته مناويك.» أما صفة من صنفناه بـ«الوحش» فكان بالنسبة إليه: «هذا هو و أمه و أخته و أبوه كلهم مناويك.» كنا لا نضحك حينما كان يصف الحرس بهذه النعوت، لأنها كانت تعبر عما كنا نشعر به في أعماقنا، كما كان يقولها بكل جدية، و لم يكن القصد منها نكتة.

* * *

اكتظت الزنزانة ذات مساء عندما أصبحنا خمسة معتقلين مرة أخرى. كان الزائر الجديد شاباً لا يزيد عمره عن العشرين، سوري الجنسية، لطيفاً و وسيماً و قليل الخبرة و التجربة في أمور الدنيا. لم تمر إلا بضع ساعات من اليوم الأول على مجيئه حتى بدأت تتعثر و ترتبك سلوكيات أبي كرم بعض الشيء، فأخذ يداعب خصيتيه و قضيبه أكثر من المعتاد، و أصبحت هذه اللعبة مفضوحة أكثر بعد مجيء ضيفنا الجديد سامر.

لاحظت، و نحن في ظلمة الليل الباكر، إن إحدى يدي أبي كرم

Twitter: @ketab_n

كانت نشطة داخل بيجامته و أحياناً خارجها، بينما اليد الأخرى تسعى إلى ملامسة يد سامر، الذي كان لا يني يُبدي انزعاجه من هذه التصرفات، و يُبعد بين فينة و فينة يد أبي كرم بكل أدب.

كنت قد حجزت الحيز المجاور للجدار كموقع لرقادي و لنومي، و لم يحدث ما يستدعي تغييري لهذا الموقع. كان موقع سامر مجاوراً لي تماماً و من ثم يليه أبو كرم. مرت الليلة الأولى بلا حدث مهم، أو لم ألحظ ما جرى. في صباح اليوم الثاني همس في أذني سامر وقال لي: «دخيلك دعني أنتقل قرب الجدار لأتخلص منه في الليل.» كان يعني هذا أن أستبدل موقعي مع موقعه، و هنا انتبهت إلى رائحة جديدة بيننا. لم أتمكن في البداية من معرفة مصدرها، و لكن بعدها انتبهت و أخذت أشم تلك الرائحة، هل هي البيجامة التي يرتديها سامر؟ أم بيجامة أخرى أبعد منها. فأنا أشمئز من رائحة السائل المنوي، بقدر ما أشمئز من رائحة البول و الصنان. إنها أشبه بمزيج من رائحة البول و زناخة الكرنب الفاسد، و ربما كان هذا موقفي منها لأنني في فترة من طفولتي كنت أمقت رائحة الكرنب و القرنبيط، اللتين كانتا تسببان لي صداع الرأس الشديد.

لم أكن متأكداً في البدء مما حدث. و لكن رائحة السائل المنوي كانت واضحة، صباح ذلك اليوم، قبل الفطور و قبل أن يحين موعد الغسل، و كانت بالطبع ظاهرة جديدة. فهل لهذا السائل روائح مختلفة لدى مختلف الأفراد؟ و هل تتنوع تلك الرائحة مع الطعام و الشراب! أم أنها متأصلة مع الفرد المعين؟ أي، هل لكل شخص رائحة يتفرد بها! إن قدرتي على الشم ضعيفة، و قد أخذت تزداد ضعفاً في الآونة الأخيرة. كنت أعتقد، قبل أن أصبح «رقماً»، أن رائحة العرق تحت الإبطين هي نفسها عند جميع الناس، و لكن بدأت أفرق بينها و أجد

Twitter: @ketab_n

اختلاف الروائح عند مختلف الأشخاص، كما اكتشفت أنواعاً مختلفة منها لدى «الأرقام» التي بقربي، في بيجاماتهم و في هواء الزنزانة. نشأت في بيئة خالية نسبياً من روائح عفونة المطبخ و زناخة الزيوت، وروائح البالوعات و المراحيض. فالمراحيض تنظف و تغسل يومياً في دارنا، و المطبخ يُنظَّف بعد كل وجبة طعام، و مائدة الطعام مغطاة بنوع من المشمع الأبيض الذي يُغسَل و يُنظَّف بعد كل وجبة طعام. و كان هذا الأمر شيئاً دارجاً في بغداد آنذاك في الثلاثينيات. أما رائحة البالوعة فقليلة إن وُجدت، لأن فتحتها مغطاة بـ«لكلكة» و هي كرة حديدية. هذا ما كان عليه الوضع في دارنا في طفولتي، و لذا لم أتعود على الروائح الزنخة و النتنة لأتمكن من التكيف معها الآن، و التعود على زناختها في الزنزانة.

و لكن بعد تجربة العيش أكثر من ستة أسابيع في الزنزانة، بدأت أفرق أنواع تلك الروائح. فحينما اقترب مني أبو كرم في طريقنا إلى الحمام فاضت رائحة السائل المنوي من بيجامته، و عندما دخلنا الحمام بدأ يغسل القسم الأعلى من سروال بيجامته، و يفركه و يعصره من الماء و يتكلم بهمس شاتماً الحارس الذي كان يراقبنا قرب الباب في انتظار انتهائنا من الاستحمام، قائلا: «ابن القحبة بعده واقف.» و يكرر شتمه للحارس، فقد انصبَّ اللوم على الحارس و ليس على من لطخ البيجامة بالسائل المنوي!

استبدلت موقعي على مضض مع سامر لأنني سأفتقد الجدار الذي أوازي بدني معه عندما أنام، و بهذا نجا الأخير من ليلة مشابهة لليلته السابقة. بالرغم من ذلك كانت معاشرة أبي كرم لطيفة و اعتبرنا وجوده معنا مصدراً للمتعة، مليئة بمفاجآت من أنواع الشتائم، و المبالغات فيها، و الأحاديث عن أحلام الآخرين، و ما سمع من أخبار عن

Twitter: @ketab_n

المعتقلين في زنزانات أخرى في المخابرات. فقد قضى أسابيع في الطابق الأسفل من المخابرات، حيث كان يطّلع على ما يدور من الأحداث و حركة الحرس و المعتقلين فيه، بما في ذلك احتجاز النساء و أطفالهن.

كان عالم أبي كرم كما لو لم يكن في زنزانة معتمة في المخابرات. فلكل منا قضيب، لكن أعضاءنا أصبحت مسترخية بين هذه الجدران الأربعة، لا حس لنا بوجودها، أو أصبح وجودها معطلاً، لا تنتصب إلا لماماً حينما نتبول، و حتى هذا إن حصل كان شديد الاسترخاء. لقد فقدت وظائفها الغرائزية الأخرى، و كنا نحملها معنا من دون التفكير بها كأداة متعة، لأنها عُزلت عن أبداننا، أو أن الدماغ في ظلمة مثل هذه يتجاهلها و ينفرها، فأخذت وجوداً مبعداً عن وجودها الطبيعي. و كان كل منا كأنه يحمل حبلاً قصيراً متدلياً مهترئاً، لا يمتد طوله أكثر من تمرة. و قد تفرّد عنا أبو كرم في هذا الوجود.

لم يبق معنا سامر أكثر من أسبوع، و حل محله شاب سوري آخر، كان ملمّاً بالشعر و الأدب، و محدِّث لبق، و تبيّن لي أنه و زوجته يكتبان المسرحيات و الشعر. كان له اطلاع على فن العمارة التي صممتها. و قد أدى هذا إلى أحاديث واسعة في هذا المجال، فكنا نتهامس حول مختلف المواضيع في الأدب و السياسة و العمارة. و قد كان يتوقع أن يكون بقاؤه معنا قصيراً.

عندما كنت في باريس في طريقي إلى لندن قبل عودتي إلى بغداد، اشتريت جزمة جميلة من أحد المخازن، و كنت مرتدياً تلك الجزمة عندما اعتقلني رجال المخابرات. كنت أضعها تحت الوسادة لزيادة ارتفاعها. كانت الجزمة جديدة و جميلة اللون و الطراز، فلاحظها

Twitter: @ketab_n

صديقنا السوري. قال لي إنه ربما يُفرَج عنه عن قريب، و لهذا يود أن يعطيني شيئاً و أن أعطيه شيئاً، كذكرى لوجودنا في الزنزانة نفسها، لتثبيت هذه المعرفة التي حصلت بيننا. فقال: «أعطيك حذائي و تعطيني هذه الجزمة للذكرى.» وافقت في الحال، و هكذا لم يمض أكثر من يومين أو ثلاثة حتى خرج صاحبنا السوري و معه الجزمة، و ترك لي حذاءه القديم و القبيح و النتن الرائحة. و لم يمض النهار على هذا التبادل حتى التفت إليَّ معتقل آخر كان مرتدياً ملابس ريفية تقليدية، و قال: «هذا الحذاء ما يفيدك، هل تعطيني إياه،» فوافقت أيضاً، و هكذا بقيت حافياً بلا حذاء، بنعل المخابرات فقط. إلا أن نعل المخابرات الذي كان من حصتي حينما استبدلوا الملابس الرسمية بملابسي الخاصة، أي البيجامة و النعل، كانت إحدى فردتيه أكبر من الأخرى. فكان منظري مضحكاً و كاريكاتورياً حينما ألبسه و أذهب إلى المرحاض أو إلى التحقيق.

عندما خرج صديقنا السوري من الزنزانة خف حشر الأبدان فيها لفترة النهار فقط. ففي ذلك اليوم نفسه، بعد منتصف الليل، قرقع باب الزنزانة الحديدي، و إذا ببدن ضخم، طويل القامة، يُدفَع و يُرمَى بيننا. رقد جامداً بلا حركة، و جمدنا معه، فلم نكلمه و لم يكلمنا. لم تمض إلا دقائق قليلة حتى أراد الذهاب إلى المرحاض. فبينا له أن ذلك غير ممكن، بل ممنوع منعاً باتاً بعد وجبة العشاء و إقفال الباب الحديدي علينا. قال: لا أستطيع الاستمرار على هذه الحالة، فلا بد لي من الذهاب إلى المرحاض. أكدنا عليه استحالة طلبه و الانتظار حتى الصباح، و طلبنا منه الهدوء و الصمت. قال: سينفجر، و لا بد لي من أن أذهب إلى المرحاض، «رح أطق» حسب تعبيره. فقلنا له: هنا إبريق للتبول، أجاب ليس التبول، لا بد من أن أذهب إلى

Twitter: @ketab_n

المرحاض. فوقف و أخذ يضرب الباب، و جمدنا في أماكننا، لا ندري ماذا سيحل بهذا الضيف الجديد. جاء الحارس في الحال و بيَّن له أنه لا بد له من أن يذهب إلى المرحاض، فقال له: «اسكت، الباب لا يفتح، ممنوع.» غادرنا الحارس، فطرق الباب مرة أخرى و أخذ يصرخ بأعلى صوته: «رح أنفجر، رح أطق، افتحوا الباب.» جاء الحارس و صرخ بدوره: «اسكت، و إن طرقت الباب مرة أخرى كسرت عظامك.» فتوسل الزائر الجديد و قال «رحمة بالكلاب» فأجابه: هذه آخر مرة تطرق فيها الباب و إلا أكسر ضلوعك. لم يتمكن من الجلوس، و أخذ يردد، ما في رحمة للكلاب. «رح أطق، رحمة بالكلاب،» و لم يتجاسر أن يدق الباب مرة أخرى، «آه، آه، رحمة بالكلاب.»

طَرق الباب في عتمة الليل أمر مخيف، فأخذ أحدنا طاسة إضافية، غير التي نستلم فيها الطعام، و قدمها له، فتغوط فيها، برازاً سائلاً، شديد الرائحة. و أخرج صاحبنا منديلاً من جيبه و أخذ يمسح قاعدته و سرواله الذي تلوث ببرازه، و أعادها إلى جيبه. ما العمل؟ أخذت الرائحة تخنقنا، فأقدم أحدنا و غطى الطاسة بالكيس الذي نحفظ فيه الصمون، حتى خفت الرائحة بعض الشيء، و حاولنا قدر الإمكان تحمّلها و الصبر عليها حتى الصباح.

كان ضيفنا الجديد أحمد من مدينة كركوك، بديناً و طويل القامة، مع وجه يجمع بين السمة الطفولية و القساوة الحادة. تعرفنا إليه بعد وجبة الفطور و الاستحمام، و أخذ يروي علينا قصته، فهو طباخ يمتلك مطعماً يقدم فيه الكباب. كما أنه مصلح تلفزيونات، ولذا يمتلك محلاً آخر حيث يقوم بهذه الخدمة. أدى حديثه عن محل الكباب، إلى إثارة صور عن رائحة الكباب و طعمه، و أنواع من الخبز، و الرشاد

Twitter: @ketab_n

و الكراث، و الطرشي (الكبيس)، و الشوندر (الشمندر) و شرب الشاي بعد الانتهاء من أكل الكباب. قال أحدنا: لا تنسوا السُّمّاق. فانتقل الحديث إلى السُّماق، السُّماق مع البيض المقلي. فقلت: أفضّل الحامض مع البيض. وأخبرتهم أنني أخذت مؤخراً، لأسباب صحية، أفضّل البيض المسلوق، بطريقة الـ«پوشت» poached و هي سلق البيضة بفقسها في الماء المغلي. أدى الحديث عن الكباب إلى إثارة صور عن الطعام راقدة في الذاكرة كالهريسة و الكاهي. لم يدم بقاء أحمد أكثر من أسبوع، و بقي بملابسه، فجاء الحارس و نادى بالرقم السحري، و قال: «البس»، أي تهيَّأ للخروج، إلى خارج جدران الظلمة! إلى التحقيق أو المحكمة. لا أحد يدري إلى أين، إلا بعد أن يصل المعتقل إلى الطابق الأسفل، و عند ذاك يبلغ إلى أين سيكون اتجاهه. كان استدعاء أحمد إلى المخابرات و حجزه ليقدم شهادة في قضية ما.

بعد مرور يومين أو ثلاثة من المناداة على أحمد و تركه الزنزانة، إذا بجسد هزيل يُدفَع إلى داخل الزنزانة. لم أنظر إليه في الوهلة الأولى، بل نظر هو نحوي و قال: «رفعة»، فنظرت إليه و إذا به أحد المعارف البعيدين: «عزيز». قلت له: ماذا جاء بك إلى هنا ؟ فقال: «سَفَلة، سَفَلة،» و ما الخبر؟ قال: «كلهم سفَلة.» و بعد سكوت لوهلة، قال: كتبت لأحد أصدقائي، و هو السفير الأردني السابق في بغداد، أُعلمه أن الوضع في العراق أصبح لا يطاق، و طلبت منه أن يسعى إلى الحصول لي على عمل خارج العراق، و بينت له تدهور الأوضاع لدرجة لا تطاق، و «لو كنا تحت حكم إسرائيل، لكان الوضع أهون.» و سلمت هذا الكتاب إلى أحد الأصدقاء ليسلمه إليه، و إذا بهذا الصديق يسلم كتابي إلى المخابرات. و أخذ يكرر «سَفَلة، سَفَلة. . .» و قد أحيل بعدها إلى محكمة الثورة و حُكم عليه بالحبس

Twitter: @ketab_n

لمدة خمس عشرة سنة. تم استدعاؤه و نقله إلى السجن في اليوم الثاني.

بعد أيام قليلة، رُمي بيننا في الزنزانة حامد. كان يرتجف من شدة الرعب بسبب الضرب و التعذيب اللذين تعرَّض لهما. جلس صامتاً لا يتكلم، و لم يخبرنا بما حل به، ربما كان خائفاً و لا يثق بنا في الوهلة الأولى، أو ربما اعتقد أن أحد المعتقلين من رجال المخابرات، و ظل صامتاً حتى اقتنع في اليوم الثاني بأننا لا نمتُّ إلى المخابرات بصلة.

* * *

يرجع أصل منشأ حامد إلى مدينة الحلة أو ضواحيها، و هو عراقي يعمل في مخابرات البحرين. هذا ما أخبرنا به. و لكن لم يخبرنا لماذا أُلقي القبض عليه و ماذا طلبت السلطات منه في العراق، و ما هو الاتفاق بين الاثنين. هذه الأسئلة لا أهمية لها و إنما ما يهمنا هو مخيلة حامد الغنية في أحلامها و قدرته على حفظ الشعر الشعبي و تأليفه. قصص حامد كثيرة و مشوقة، فأصبحنا أصدقاء نستمع إلى أحاديثه و نستمتع بها، بعد أن خضع لنظام خِوان الطعام الذي أصبح متعارفاً عليه في زنزانتنا، و امتنع عن رمي العظام حتى على الخِوان.

كان شِعر حامد من نوع جديد بالنسبة إلي، يدور معظمه حول موضوعين: هموم شعبية صحراوية، كمقارنة السيارات و أدائها في الصحراء، بين «الشفروليت» الأميركية و «المرسيدس» الألمانية، و أداء كل منهما في قطع كثبان الرمل، و السباق على الرمال، و تحدي كل منهما للأخرى عند ارتطامها بتلك الكثبان الرملية، و عجز الواحدة أمام الأخرى حينما تنهار أمامها، و غير ذلك من الوصف و المقارنات الشعرية و الخيال الذي يعبّر عن واقع و تجربة عميقة و جميلة في

Twitter: @ketab_n

وصفها. منح حامد في هذا الوصف للسيارة شخصيتها، ونفخ فيها من روحه بحيث يتعاطف السائق معها، فتصير من نَفْس و روح و ليست مجرّد آلة مُصنَّعة من مادة جامدة.

الموضوع الثاني لا يقل حلاوة عن الموضوع الأول، و هو وصف فتيات المدارس المراهقات. يصف في شِعره فساتينهن القصيرة، و سيقانهن العارية، و ابتساماتهن الجميلة، و ضحكاتهن. كان يقرأ علينا شعراً، يصف فيه لنا كيف يتراشق النظرات مع فتاة في المدرسة، و كيف تلتفت إليه مرة أو مرتين، ثم يتواعد معها في خلوة، و يقوم بخلع ملابسها، قطعة بعد قطعة. يصف ألوانها و قصرها، و نعومة ملمسها أشبه بنعومة سيقان بنت المدرسة، و كيف كانت تتسلل أنامله رويداً رويداً نحو سروالها الداخلي الأحمر. كان يمزج مخيلته بوصف شعري شعبي، يُضفي عليها صوراً لأحلام و تمنيات لا تتجاوز قصة المخيلة نفسها.

يتضمن شعر حامد قصصاً عن مغامراته الجنسية في البحرين، و أهمها زيارته إلى مغنية في شقتها، و شرب الويسكي معها، واصفاً لباسها للبيجامة من القماش الحريري أحمر اللون، الأملس، يلامسها و هي تغريه بالمزيد. كان يتوقف برهة يعيد متخيلات الذكريات، و يتمتع بإعادتها و اجترارها في مخيلته.

* * *

بين موعد الفطور و طعام الغداء، سمعنا قرقعة أخرى في باب الزنزانة الحديدي. كان الحارس ينادي الرقم السحري، و إذا بحامد يقفز إلى خارج الزنزانة. لم يعدْ إلينا حامد إلا في اليوم التالي قبل وجبة الطعام. جاء هذه المرة و قد انفرجت أساريره. بعد إكمال

Twitter: @ketab_n

التحقيق معه من قبل المحققين، هُيئت مقابلة له مع سعدون شاكر، الذي كان مديراً لدائرة المخابرات آنذاك، قال له: «سنعفو عنك، و سيُفرَج عنك خلال يومين،» و قدّم لَه تعويضاً قدره مئة و خمسون ديناراً، و وعده بأنه سيقدم له مبلغاً آخر عند الإفراج عنه و قدره سبعمئة دينار. قال حامد له: الله يطول عمرك!

إن الإعفاء عن شخصٍ ما هو دلالة إلا على كون الفرد مجرماً أصلاً، و تشمله السلطة بتسامحها. و يسبق التسامح المكرمة أو تفترض المكرمة التسامح مع المجرم! و هو التنازل الفوقي لمن هو في الأسفل، فالمكرمة هي التعامل الفوقي مع الفرد الأدنى مرتبة. إنها ليست مسألة حق، حيث لا حقوق لمن في الأسفل، و يكون محظوظاً إن شملته مكرمة السلطة، و عليه أن يتوسل إليها و «يدعو الله أن يطوّل عمرها،» و يكون المنتفع من مكرماتها. تنتعش المكرمة في التوسل و الخضوع لها، و هي تطلب هذا الخضوع و تتوسل إليه، سواءً عن طريق العنف أو العطاء و الهدايا، لأنها في جوهرها تنبني على نقص فوقي يسعى دائماً إلى إرضاء هذا النقص في سيكولوجيتها أو إخفائه.

خطر لي ماذا سيكون موقفي لو استدعاني سعدون شاكر؟ و خاصة بعد أن تبين من إجراءات التحقيق معي أن اعتقالي مفتعَل، و لا توجد تهمة و لا قضية في الأساس. كنت لم أزل أجهل هدف سعدون شاكر من اعتقالي، سوى الحادثة التي حدثت قبل بضع سنوات مع رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر. كان قد نبّهني أكثر من مرة الدكتور علي كمال، الذي كان طبيب القصر و على اتصال دائم مع البكر، إلى أنه يضمر ضغينة ضد كامل الجادرجي، فاقترح عليّ أن أخفف من سفري إلى خارج العراق، فكنت أبيّن له أن عملي الاستشاري يتطلب السفر، و أقول له: لماذا يكون نظام الدولة ضد سفر الأفراد!

Twitter: @ketab_n

ماذا لو ناداني سعدون شاكر و قال لي «عفونا عنك؟» ما الذي يتعين عليّ أن أتصرَّف معه و كيف أجيبه؟ هل أشكره على إعفائي، و لكن العفو عن ماذا؟ هل أقول له أنا بريء، و إن اعتقالي لا مبرر له، و ليس العفو في محله، و أنا لا أطلب مكرمة منه! و لكن هل لي القدرة و الشجاعة على أن أقول له مثل هذا القول، و أنا في هذه الزنزانة لست بإنسان و إنما «رقم» من الأرقام. أنا حبيس في الظَّلْماء و الجوع، ينهش القمل جسدي، و أتعرض للإهانات يومياً، فلا أُعامَل كإنسان، بل لا وجود هنا للإنسان أصلاً. إننا مجرد أرقام! أليس هناك حقوق للفرد، هل أسكت! و ماذا لو طُلب مني الكلام، فهل ستكون لي الجرأة على أن أتكلم بشجاعة و أصرح بما يجول في ذهني، و أقول له: اعتقالي و إهانتي لا مبرر لهما، بل هما قضية مفتعَلة. لا أعتقد أنني سوف أملك مثل هذه الجرأة. ربما ألتزم الصمت. و ماذا لو تطاول عليّ، و عرَّضني للإهانة. ما الذي أفعله في مثل هذا الموقف؟ كنت أفكر و أطيل التفكير، و أقول لنفسي بأنني لا أهاب الإعدام و الموت، و كنت أرددها مرة بعد أخرى. علّي أن أُقنع نفسي بها، و لكن هذا ليس صحيحاً دائماً. كنت أهاب الإهانة و التعذيب، بالرغم من أنني لم أتعرض للتعذيب في السابق. أهابه لما في مخيلتي، و ما شاهدته من تعذيب للآخرين في المخابرات. كنا نسمع أصوات المُعذَّبين بين حين و آخر، وفي وقت متأخر من الليل. كنا نضع الوسادات الواحدة فوق الأخرى و نسند أحدنا الآخر ليتمكن من أن يشاهد من الفتحة التي في أعلى الباب الحديدي ما كان يجري في الطابق الأسفل من المبنى المقابل. شاهدت شباناً جالسين على كرسي و أمامهم المعذِّب يرهبهم بقضيب كهربائي، يوجِّهه إليهم و يلمس المناطق الحساسة من البدن، بين الفخذين، فيرتعش المعتقل و يصرخ

Twitter: @ketab_n

صراخاً لا يطاق. كنا نشاهد أحياناً أولئك المعذَّبين ينهالون عليهم بالضرب بأنواع مختلفة من الأدوات. كنا نسمع صراخ نساء و أطفال من غير أن نرى ما كان يجري. كانت تلك الأصوات و المناظر ترعبني و تفزعني و تؤلمني.

كنت أفكر في حياتي و كياني، فأقول لنفسي: كانت حياتي مُرضية و استمتعت بها، و قد حققت الكثير مما كنت أصبو إليه في العمارة من طموح. ثم أقول: ماذا لو قُطع هذا الوجود فجأة. فأنا من بين القلائل المحظوظين الذين تمتعوا و عملوا الكثير في حياتهم. و لكن عندما كنت أفكر في هذا كله، كنت لا أستطيع النوم من الأرق الذي لطالما تسلّل إليّ في ظُلمَة الليل. فقد قضى غيري في زنزانات المخابرات سنتين أو ثلاث، يُنقلون من زنزانة إلى أخرى، يتمنون لو يحالون إلى المحكمة و يصدر عليهم قرار الحكم لكي يُنقلوا إلى السجون الاعتيادية. كانوا يقارنون السجن بزنزانة المخابرات و يصفونه بـ أوتيل «هلتون».

كنت أسأل نفسي عن الصدفة و المحنة هاتين اللتين أعاني منهما!

ما الوجود إلا صيرورات من تفاعل بين قوانين و متطلبات الوجود و في المقابل عامل الصدفة، و لماذا كانت الصدفة بحيث وجدت نفسي في بئر الظُّلم. أكرر هذا السؤال لنفسي، و أنا في ذلك الظلام. كانت تلك الأسئلة تتزاحم في ذهني قبل فترة العشاء أو بعدها مباشرة عندما يبهت الضياء و يتلاشى و لا يبقى من أشعة الشمس إلا شعاع باهت. هذا هو موعد الانتقال من وجود مظلم مضيء إلى وجود مظلم غير مضيء، و الإضاءة هنا مسألة نسبية، إذ لا تدخل أشعة الشمس زنزانة رقم «٢٦» إلا لبضع دقائق وقتَ الغروب، حينما تدخل الزنزانة

Twitter: @ketab_n

الأشعةُ الأفقية من فتحة صغيرة عالية في الباب الحديدي. و هي فتحة لم تكن وظيفتها أساساً دخول أشعة الشمس أو الضياء، بل هي لمراقبة «الأرقام» الذين هم أجساد ملقاة في داخل الزنزانة بلا حركة و بلا صوت، سوى معاناة داخلية لا تُسمع خارج الأبواب الحديدية. إن أية حركة أو صوت يؤدي إلى الضرب و الإهانة، و ربما إلى أكثر من ذلك. يكون الهمس على حذر عندما يتأكد الجميع من عدم وجود حرس في الممر، و هذا الهمس خافت عادة، و تتخلله الإيماءات للتأكيد على بعض المعاني، حذراً من سماع الحرس. كانت تلك هي المناسبة الأولى التي أحسست بها بأن سمعي ثقيل، فقد صادف أكثر من مرة عندما كنت أهمس بكلمة «يدغني» (أو ينبهني عن طريق الإيماء) الفرد الذي بقربي، و ينبهني إلى أن هناك حرساً في الممر، و يقول لي «حمى»: «ألا تسمع، ألا تسمع!» كان علينا أن نصمت غالب ساعات النهار و الليل. إنها بئر الصمت العميقة القرار، الصمت القابع في الذات الذي يحاصرنا و يحمينا بانتظار موتنا البطيء في الزنزانة.

كانت ثمة علاقة مباشرة بين سعة الزنزانة و غسق الظلمة، فتنزلق جدرانها بجوانبها الأربعة كل مساء، فتقلص الحيز، و تضيقه علينا بقدر ما كانت تُفقدنا اليسير من ضيائها، فكانت تقترب منا و تنقض في دفعها نحونا. و مع اشتداد عتمة جدرانها تدريجياً يرتفع السقف بقدر ما كان يحمل من ضياء النهار، فنصبح في بئر عميقة من العتمة. و مع ازدياد عمقه يعم الصمت و يتوقف الهمس، و ينتهي بذلك النهار، و يبدأ صمت آخر، انتظاراً لوجبة العشاء، ثم صمت الخوف من أوقات دورات التحقيق المفاجئ.

راجعتُ مسيرة حياتي أكثر من مرة، بل كنت أراجعها مراراً خلال

Twitter: @ketab_n

فترات الصمت و الانتظار الطويلين. كنت أقول بأنني من القلائل المحظوظين، في معظم صيرورات حياتي. نعم، لاقيت صعوبات كثيرة و قاسيت الكثير من الآلام، و العواطف الجريحة، و الحيرة و القلق، و كنت بالرغم من كل تلك المعاناة محظوظاً. فقد استمتعت و ضحكت و أحسست و تلذذت، مع أصدقائي و أهلي و أحبائي و زملائي في العمل. نعم، كنت مستمتعاً في عملي، عشقت العمارة و التصميم و اكتشاف سماتهما و الإبداع فيهما و التعرف إليهما، بالرغم من صعوباتها و إثباطاتها لكني أحببتها، فكنت أقول إنني محظوظ مهما كانت الصعوبات و الإحباطات، إذا ما قارنت نفسي بالمفكر الصيني أو الروسي مثلاً، حيث يكبت التفرد و يُسحَق هناك. و بينما استمتعت في تفردية ابتدعتها لنفسي، و حققتها في التصاميم و في طرز المعيش في مأكلي و مشربي و صداقاتي و ملذّاتي، و غالباً ما استطعت اختيار ما أريد منها و إهمال ما لا أريده. فهل انتهى كل هذا!

كنت أعيد النظر في وجودي و أقول ما هذه الصدفة السيئة التي حجبت عني الاستمرار في ذلك الوجود؟ ثم أقول لماذا أنا بالذات؟ كنت أعلم أن الصدفة لا تختار و لا تحدث بعقل أو بتخطيط و إنما صفتها العفوية في العيّنة، في التوقيت و الانتقاء. لذا فإنها تحدث من دون مقدمات واضحة. أنا أعرف جيداً أن هذه السلطة لا تتمكن من الاستمرار في سلطتها و طموحاتها من دون إرهاب أغلب أفراد المجتمع، و لكنها غالباً ما تختار نماذجها عفوياً. و هنا مصدر الإرهاب، و خاصة عندما يكون النموذج بريئاً. و لذا يشعر كل فرد بأنه معرَّض لقسوتها و وحشيتها من دون أن يتمكن من تسبيب اختيارها للفرد كعينة من بين الناس، فتحقق قسوتها و سلطتها عليه. إن هذا نهج معتاد و متنوع لدى السلطات السلطوية، سواء أكانت دينية أم دنيوية.

Twitter: @ketab_n

إن معرفة مسبقة لمتطلبات السلطة المعلنة، المنصوص عليها في القانون أو التي تخضع لرقابة المجتمع، تؤمّن للفرد نهجاً يتمكن فيه من تجنب قسوتها، فيسلم الفرد البريء من إجراءات تُتخذ بحقه. و لكن تختلف تماماً شروط و عفويات إرهاب السلطة السلطوية، و هو أنها تختار شخصاً بريئاً بهدف إحداث الشك الذي يثير القلق فيتبعه رعب الذات و إرهابها.

لا شك في أن الإرهاب هو من المقومات الأساسية لسلطوية السلطة. و الصدفة في نظام الإرهاب هي أن يتعرض فرد ما لممارسة إرهابها و ليس غيره. لماذا هذا و ليس الآخر؟ يرجع ذلك إلى عامل الصدفة، فتؤلف هذه الصدفة مصدر الإرهاب. يتألف الإرهاب من نظام متسق، كأي نظام، صالح أو طالح. و كل نظام فيزيائي يخص المادة الجامدة أو الحياتية أو الاجتماعية، يتحقق في واقعياته بتداخل مع عامل الصدفة، فالصدفة هي مقوم أساسي في النظام، و تخضع عمومية الظاهرة لنظامها، كقانون الجاذبية في المجال الفيزيائي، و قانون الاصطفاء الطبيعي في الدورات و التطور الحياتي. و لكن عينات النظام التي تفاعله تخضع لعامل الصدفة أيضاً. أي إن سألنا لِمَ هذه العينة بالذات و ليس غيرها، فالجواب يكون عامل الصدفة، و هذا التفسير يلغي مفهوم الحتمية. إذاً، لماذا أنا و ليس غيري من يكون عينة إرهاب السلطة القائمة. و هكذا، وجدت نفسي أولاً في زنزانة «٢٦» و ثم في زنزانة رقم «٥».

* * *

كنا في زنزانة «٢٦» حشراً من الأجساد، فالهواء الذي نتنفسه ثقيل ممتزج برطوبة أنفاس الآخرين و روائحهم النتنة. سمعنا قرقعة الباب

Twitter: @ketab_n

الحديدي و طلب إخلاء الزنزانة من المعتقلين، فلم يبق إلا أنا و أبو علي. أصبح كامل حيز مساحة الزنزانة لنا، فشعرنا بنوع من الرفاه و الراحة. استطعنا أن نستلقي و نتمدد بل نتقلب على الفراش بكل حرية بالرغم من الكتل القطنية الصلدة و بلا تماس مع الآخر. نظمنا أرضية الزنزانة و صففنا البطانيات و أصبحت مسطحة مرتبة، فكان الاستلقاء عليها ترفاً لم أستمتع به منذ أكثر من ثلاثة أشهر.

أبو علي راعٍ من غرب العراق، و هي المنطقة الصحراوية بين العراق و سوريا، انتهازي، أناني، متملّق، يخضع للحرس و يناديهم بـ «سيدي». كنا نقول له إن هؤلاء لا يستحقون هذا التعبير، و لقبهم هو الحرس فقط، فكان لا يجيبنا، و يعود و يناديهم بـ«سيدي». كان يستعمل هذا اللقب بمناسبة أو بغير مناسبة، و يتباطأ في استعمال المرحاض من غير مراعاة حصة الآخرين من الوقت، فكنا نوبخه، خاصة محمد الشاعر الكردي، و لكن بلا جدوى. لم يكن المعيش مع أبي علي مريحاً ولا سهلاً.

كانت تلك الليلة، بالرغم من ذلك كله، ممتعة جداً عندما شعرنا بنوع من الترف في أسلوب استلقائنا على الفرش. امتد الحديث بيننا بامتداد سكون الليل، و شمل الحديث أسئلة عن بغداد و عن السفر و الطعام، و ما نأكل في بغداد و ما يأكلون في بلدان العالم. كثرت أسئلته تلك الليلة، بينما كان منعزلاً عن الجماعة في الزنزانة سابقاً. انتقلنا من حديث إلى آخر. و وجه إلي عدة أسئلة، فقال: أيهما أكبر الأرض أم الشمس؟ فكرت كيف يمكن تصور العلاقة بين حجم الشمس مقارنة مع الأرض، و كنت أعلم أن قطر الشمس أكبر من قطر الأرض بمئة و عشر مرات تقريباً. فقلت له: «إذا كان حجم الشمس أشبه برقية (بطيخة) كبيرة جداً، تلك التي لون قشرها أسود، فيكون

Twitter: @ketab_n

حجم الأرض بقدر حمصة واحدة و ربما أصغر.» تعجب، و ضحك و ضحكت معه. و في الصباح جاء الحارس و نادى رقمه و رقمي و نقلنا إلى زنزانتين أخريين. و هكذا انتهى وجودي في زنزانة رقم «٢٦».

الانتظار في ظلمة الزنزانة حالة قاتلة للفكر، يتوقف الفكر فيها عن مسألة هموم الوجود سوى البقاء الغريزي: راحة البدن، تنظيفه و إشباع الجوع المزمن، و الخوف من ظلمة الوجود، و القلق المستمر بسبب ارتباك الوجود الذي كنت فيه.

كان لا بدّ من أن أجد ما يلهي دماغي و يشغله في مسألة خارج هذا الوجود. كنا في بداية السبعينيات نزور أنا و بلقيس يحيى ثنيان في عوامة أرساها في نهر دجلة في منطقة الصليخ، شمالي بغداد، و استعملها كمحل لسكناه. و في وقت سابق اعتُقل و أُودع في زنزانة منفردة لمدة أربعة أشهر. سألته حينذاك كيف كان يقضي الوقت في تلك الوحدة، و كيف كان يتعامل مع الزمن، بمفرده، بلا حوار و لقاء مع الآخرين. إن الوحدة بالنسبة إلى تكوين دماغ الإنسان حالة غير طبيعية، مما يسبب عذاباً نفسياً شديداً. فقال لنا إنه كان يمر بالصدفة من خلال فتحة الزنزانة خيط سائر من النمل، فكان يراقبه و يتعرف إلى المتغيرات في سلوكياته. و هكذا كان يمرن دماغه و يشغله بالأنماط التي تحققت في خيط مسيرة النمل.

قبل أسبوعين أو أكثر من عودتي إلى بغداد عندما أُلقي القبض علي و أُودعت في زنزانة «٢٦»، كنت في مطار كابول في انتظار رحلتي إلى لندن. كانت مدة الانتظار طويلة، فباشرت و أنا في قاعة الانتظار، بكتابة مسودة توسيع نظرية جدلية العمارة، التي بدأت بها حينما كنت طالباً، أي قبل ثمانية و عشرين عاماً.

Twitter: @ketab_n

تذكرت قول يحيى ثنيان بأنه لا يوجد نمل في زنزانة «٢٦»، و الأنماط التي كانت تتكون على جدار الزنزانة بسبب سقوط أشعة الشمس عليه وقت المساء لا تؤلف شكليات متنوعة بالدرجة التي تمكنني من إشغال دماغي بها لفترات طويلة، إضافة إلى أن وقت ظهورها و غيابها كان محدداً جداً. فخطر ببالي أن أقدم على تهيئة مخططات بيانية، أو مخططات انسيابية لنظرية جدلية العمارة التي استحدثت مبادئها أيام الدراسة حينما كنت طالباً في إنكلترا، و وضعت هيكلاً لدراستها و أنا في مطار كابول.

بدأت أضيف في ذهني و أنا في ظلمة الزنزانة على هذه المبادئ و أُقْدم على تحسينها، فكنت أستنفد بهذا النهج ساعات عديدة في تحسين المخططات البيانية التي نظمتها في مخيلتي، و منحتني هذه التمارين فرصة تجاوز هموم فساد الزمن.

ففي قدرة الزنزانة أن تحجز البدن و تكبله و تذله و تُجوِّعه و تُخضعه لمعيش لا تقبل به الكلاب البرية، حسب قول أحمد. و لكن بالرغم من ذلك يتمكن الفكر من اختراق مادة جدرانها الجامدة. فالفكر ليس مادة تشغل حيزاً يُحجز فيه، أو يتحدد بمكان ما، و إنما الفكر حر بطبيعته، فلا تتمكن السلطة من تعقّبه و حجزه، و لذلك بدأت أتنقل بتفكيري من كتاب إلى كتاب آخر، و أطلقت مخيلتي، و باشرت أزور عمارات في مواقع متعددة من العالم، و أتأمل طرزها المتنوعة، و هي تتفرد بسمات تبهر إحساسنا و ذائقاتنا. فلا يمكن للفكر أن يجمد، و لا يسبت إلا مع توقف الدماغ و زواله.

* * *

ذات صباح، قبل وجبة الغذاء تماماً، و بعد مرور أكثر من أحد

Twitter: @ketab_n

عشر يوماً على وجودي في الزنزانة «٢٦»، و إذا بالحرس يطلب من رقم «٢٠٠» أن يخرج. رافقني بعد أن وضع العِصابة على عيني، و قادني إلى غرفة صغيرة. طلب مني هناك رفع العصابة. وجدت رجلاً جالساً أمام منضدة و أمامه تلفون. فسألني عن رقم تلفون بيتي؛ و أدار الرقم، و سلمني السماعة. تناهى إليَّ صوت بلقيس. أخبرتها أن صحتي جيدة. و تمكنا في هذه المكالمة الأولى أن نؤسس بيننا «الشيفرة» التي أخذنا نستعملها في اتصالاتنا التلفونية في ما بعد. كان هذا الاتصال هو الأول لي مع العالم خارج جدار الظلمة، أو مع الظلمة في الجهة الأخرى من الجدار.

كان لدينا ثلاثة مواضيع في المكالمات التي تلت المكالمة الأولى، و حددناها: أولاً، مجرى التحقيق؛ ثانياً وضعي الصحي؛ و ثالثاً، كيف تجري مساعيهم إلى إطلاق سراحي.

أكدت لها ألا يتهاونوا في سعيهم إلى إطلاق سراحي، و أشرت عليها ألا يتهاونوا في إكمال تعمير الدار، و هي الدار التي كنا في مرحلة تعميرها. فأصبحت الإشارة إلى تقدم العمل في الدار «شيفرة» تعني تقدم وساطاتهم، كما أصبح العاملون في تعمير الدار، من نجار و مركب المجاري الهوائية إشارة إلى كبار الموظفين. طلبت منها الاتصال بـ«شوكت»، و هو في الواقع طاهر، الذي كنت أعتقد أن له اتصالاً مباشراً مع نائب الرئيس، صدام حسين، و هو اعتقاد جاء نتيجة الروايات التي كان يقصها عليّ و أظهرت أن له علاقة حميمة و خاصة مع النائب، و قد كان إحساسي بأن الواسطة المؤثرة و المنطقية و الوحيدة يتعين أن تكون مع نائب الرئيس.

أصبحت بعد تلك المخابرة، الفترات بين المكالمات التلفونية في دورات أمدها حوالى عشرة أيام. و قد تمتد أحياناً إلى خمسة عشر يوماً

Twitter: @ketab_n

أو أكثر. كنت أبيّن لبلقيس في هذه المخابرات كيفية سير التحقيق، فأقول مثلاً إن هناك ألماً في ساقي اليسرى، لا يزال مستمراً، أي مجرى التحقيق يتكرر، أو ساء الألم، و يعني أن التحقيق غير مريح، أو إن صحتي جيدة فيعني صحتي في واقعها جيدة، و إن قلت صحتي جيدة جداً فيعني أنني مرتاح إلى مجرى التحقيق. و طلبت منها بعد المكالمة الأولى ألا تلغي الحجوزات التي كنا سجلناها مبدئياً و الخاصة بحفلة رأس السنة، و الأخرى الخاصة بمهرجان لموسيقى موتزارت في الصيف المقبل في سالزبورغ في النمسا. كنت أعني ذلك لأن مجرى التحقيق يدل على أنه ليس ثمة قضية ضدي. كنت أعتقد أن توقيفي قد حصل نتيجة خطأ، و لا بد من أن يصحح عن قريب، و مع ذلك، كان سؤالي يتكرر في كل مكالمة عن مراحل إكمال البيت، الذي يعني المرحلة التي وصلوا بها في ما يتعلق بالاتصال بالمسؤولين عن سبب اعتقالي. فقالت مرة: نحن نعمل على أعلى المستويات لإكمال البناء، فعلمت أن هناك اتصالاً مهماً يتم تحقيقه. و ذكرت مرة أخرى قائلة: يظهر أن إتمام الدار و إكمالها أصبحا معقَّدين و ربما لا يمكننا إكمالهما. فعلمت أن الاتصالات قد فشلت. كانت تلك المخابرة هي الأخيرة، حينما كنت في زنزانة رقم «٥».

عند استدعائي من قبل الحرس لغرض المخابرة التلفونية، و أنا أسير في طابق الزنزانة، لم تكن العِصابة محكمة على عينيّ، فشاهدت في الممر قرب السلم صينية بقطر ٦٠ سنتمتراً مليئة بالأرز وُضعت فوقه قطع كبيرة من اللحم، غطت كامل سطح الأرز تقريباً. لا بد من أن ذلك الطعام الشهي كان مخصَّصاً للحرس في ذلك الطابق فقط.

* * *

حينما كنت في زنزانة «٢٦»، كان معنا في أكثر الأوقات معتقل أو

Twitter: @ketab_n

آخر ممن له خبرة في الأحداث التي تتعلق بمدة التوقيف في المخابرات. قيل إن بعضهم قد قضى فيها أشهراً و منهم من قضى سنوات. و قيل لي إنه عند انتهاء جولة التحقيق يتم تأشير الملف لموعد التحقيق اللاحق، و هذا غالباً ما يكون حسب نمط معين، فمنهم من يخصص لهم ثلاثة أسابيع و آخرون أربعة أسابيع أو ستة. تم بعد آخر مخابرة تلفونية استدعائي إلى الطابق الأسفل، و ما إن دخلت غرفة المحققين حتى طُلب مني أن أزيل عصابة العينين، لأصبح وجهاً لوجه أمام المحققين. كان بينهم الشخصان إياهما اللذان حققا معي في اليوم الأول من اعتقالي، بالإضافة إلى شخص ثالث. طلب الأخير مني أن أروي روايتي، مرة أخرى، و ما إن بدأت بروايتي عن شركة «ويمبي» التي فاتحتني للتعاون معها في مشروع «عكاشات» باعتبارنا مكتباً استشارياً، حتى تطرقوا، ثلاثتهم، عندئذ إلى أسئلة خارجة عن الموضوع، بل يتعلق بعضها بأمور عامة. كان الحديث لطيفاً، و كان المحققون لطيفين معي جداً، ينادونني بـ«أستاذ» كل مرة يخاطبونني فيها. بعد وهلة قصيرة تركنا المحقق الجديد الذي حقق معي لأول مرة و بقيت مع المحقّقين الأولين. و بينما كنا نتكلم رن جرس التلفون، فاستأذن المحقق مني ليجيب على المخابرة. كان حديثه يخص مسألة عائلية. و هكذا انتهى هذا التحقيق، بلا إشارة إلى مصيري أو موعد الإفراج عني.

مضت ثلاثة أسابيع و تمت مناداة رقم « ٢٠٠». وُضعت العصابة على عينيّ مرة أخرى و طُلب مني أن أنزل الدرج متجهاً إلى غرفة التحقيق مرة أخرى. و في طريقي هذه المرة اكتشفت سر ذلك الصوت الذي حيرني في الليلة الأولى، و الذي تخيلته صوت طاووس في منتصف الليل. فإذا به صوت مفصلة لباب أرجوحة swing لم يتم

Twitter: @ketab_n

تزييتها. كانت هذه المرة الخامسة التي يتم فيها التحقيق معي، و لم يحدث أي تغير لما كان في الدورات السابقة من التحقيق. الأسئلة نفسها تتكرر. كنت في حيرة من أمري، أتساءل عن سبب هذا التكرار و إعادة الأسئلة نفسها، كنت عندما أبدأ بالإجابة عن السؤال يُطلب مني الاكتفاء، و ننتقل إلى الحديث عن العموميات، مع ما يرافقه من مجاملات و حوار هادئ. و تتم بعدها مرافقتي من قبل الحرس من الطابق الأسفل إلى أحد الطوابق العلوية كما في الدورات السابقة من التحقيق.

تعاقبت دورات التحقيق و تشابهت في مضمونها، و تكررت المجاملات و الأسئلة نفسها في البداية و من ثم ننتقل إلى العموميات. ذكرت لهم من بين العموميات أنني أنوي كتابة نظرية للعمارة التي كنت قد توصلت إليها حينما كنت طالباً في إنكلترا في بداية الخمسينيات، فقال أحدهم: أرجو ألاّ تنسانا حينما يصدر كتابك و ترسل إلينا نسخة منه، و وعدته بذلك. و في دورة لاحقة بينت بأنني كنت قبل اعتقالي في دور إجراء مسح فوتوغرافي للحياة الاجتماعية و العمارة عامة في العراق. و خلال السنوات الخمس الماضية و منذ منتصف عام ١٩٧٤، أقدمت على تصوير أكثر من خمسة آلاف إلى ستة آلاف صورة. و أخبرتهم بأني حصلت على موافقات للتصوير من مختلف الدوائر الأمنية و غيرها ذات العلاقة، و كنت أحمل معي تلك الموافقات لأُبرزها كلما تصدى لي أحد أفراد السلطات الأمنية. و بينت لهم كذلك أنه بعد اعتقالي من قبل المخابرات، ربما تصبح تلك الموافقات عاطلة، أو غير مقبولة من قبل بعض الدوائر الأمنية. فطلبت منهم تجديدها بعد إطلاق سراحي. فوافق المحققان على طلبي و قال أحدهما: «حينما يطلق سراحك، سنرسل معك مفرزة لحمايتك.»

Twitter: @ketab_n

و هكذا انتهت تلك الدورة كما انتهت التي سبقتها، مع حوار لطيف و مشجع، يميل إلى التفاؤل.

تأخر موعد استدعائي هذه المرة إلى التحقيق الروتيني الذي تكرر مرات عدة، فقد مرّت المدة التي كنت أتوقعها، و بعدها جاء الحارس و نطق رقم «٢٠٠»، و قدم إليّ كمية من الورق مع قلم رصاص، و قال لي: اكتب تقريراً عن قضيتك. فقلت له إني لا أستطيع كتابة التقرير من دون نظاراتي، فطلب مني أن أنتظر في الممر قرب الحمام، فجلست على الأرض منتظراً. و بالرغم من صعوبة الجلوس على الأرض الباردة و الانتظار الطويل، إلا أن الأمر كان مفرحاً، أولا لأنني كنت في هواء طلق و حيز مضيء، و ثانياً، كتابة تقرير عن القضية يشير إلى تحريكها و ربما إنهاء هذه المهزلة. و بعد مرور مدة من الزمن، ربما ساعتين أو أكثر، جاء الحارس نفسه مع مجموعة من النظارات، فاخترت واحدة، و قلت له أين أكتب؟ فقال هنا في الممر. جلست على الأرض و باشرت الكتابة، و بعد مرور ربع ساعة أو أكثر، جاء و سألني هل انتهيت، فأجبته: لا، لأن التقرير طويل، كما أن الكتابة على الأرض متعبة، و لو تهيأ لي مكان أكثر راحة لتمكنت من الإسراع في الكتابة. فأخذني إلى ردهة كبيرة حيث شاهدت أسرّة نوم الحرس، و أجلسني على أحدها، فاستعملت المنضدة المجاورة كمسند للكتابة. كان الجلوس على السرير مريحاً، و كذلك فرصة التمتع بقعود على شيء يعلو عن فراش الزنزانة. و بينما كنت مستغرقاً في كتابة التقرير فاجأني بأن قال لي: إننا نعرفك، أنت المهندس الذي شيدت نُصُب الجندي المجهول، «قضيتك سهلة، الله كريم.» و بعد أن أكملت التقرير، أخذني إلى الحمام و قال: اغسل بدنك و نظف نفسك و احلق لحيتك. فقلت له إن لدي موافقة من المحقق على أن أحتفظ باللحية.

Twitter: @ketab_n

و بعد الانتهاء من الغسل، جاء مرة أخرى و قادني إلى الطابق الأسفل، إلى غرفة لم أرها من قبل. كانت غرفة طويلة مع مقاعد في كلا جانبيها. استطعت أن أرى من تحت العصابة المجموعة الجالسة فيها، ربما اثنان في كل جانب. و لكني بقيت واقفاً و العصابة على عينيّ. كانت هذه هي المرة الأولى التي لم يُسمح لي بالجلوس. و إذا بصوت أجشّ، و عسكري متقطع، يصدر من نهاية الغرفة. طلب بصوته الآمر و هو جالس خلف منضدة كبيرة، كما لو كان يترأس جلسة، و له سلطة، أن أروي له قضيتي. و ما إن بدأت و تلفظت الجملتين الأوليين، و قلت له بأنني استشاري و اتصلت بي شركة «ويمپي»، و ربما لا أكثر من دقيقة أو دقيقتين، قال بصوت واضح: نحن نعلم هذه المعلومات، و هذا يكفي. فجاء الحرس و قادني إلى الممر الجانبي، و إلى موقع لا يبعد أكثر من بضع خطوات عن باب الغرفة و أوقفني بالقرب من منضدة. بقيت هناك مدة طويلة، ربما نصف ساعة. فجاء بعدها بمجموعة من الأوراق كُتب عليها بخط اليد، و هي واضحة بأنها أوراق إفادة تحقيق، فطلب مني توقيعها. كانت العِصابة لا تزال على عينيّ، فرفعتها قليلاً لأتمكن من رؤية الأوراق. قلت له إنني لا أستطيع القراءة لأن النظارات أُخذت مني. قال مؤكداً لي: وقعها لأنها في صالحك، و لا حاجة إلى قراءتها. كانت ظروف التحقيق أو مقابلة ذلك الشخص المهم تشير بوضوح إلى ما أشار إليه العريف. فوقعت في المحل الذي دلني عليه. أخذني إلى الدرج و من الأسفل إلى أحد طوابق المبنى، و منه إلى زنزانة «٢٦».

لم يمض أكثر من يوم أو يومين، حتى قادني الحرس مرة أخرى إلى غرفة التحقيق المعتادة، و أبلغني المحققون الذين أصبحنا يعرف بعضنا بعضاً جيداً، كما لو أصبحت بيننا صداقة قديمة، واحترام

Twitter: @ketab_n

متبادل، بأن التحقيق انتهى و سيُطلَق سراحي عن قريب. سألته ماذا يعني بالقريب، فقال خلال مدة أقصاها يومان أو ثلاثة، و أكد «قبل يوم الخميس،» و ذلك لحين إرسال الأوراق و تصديقها. و قال: «نحن متأسفون لما حدث، و احسبها علينا.» كما قال إن هناك احتمال إحالة سبارك، إلى المحكمة، فهل لي أن أقدم شهادة ضده، فقلت و ما هي الشهادة المطلوبة مني، فقال يدّعي أنك كنت تطارده. (سبارك مدير الشرق الأوسط لشركة «ويمپي» و هو الشخص الذي كنت التقيت به، و كانت علاقتي بتلك الشركة عن طريقه). فقلت هذا غير صحيح، و أنا مستعد لأن أقدم شهادة بهذا المعنى، و الصحيح هو أنني كنت أتابع الموضوع، و قد التقينا ثلاث مرات، مرتين في مكتبي و مرة في مكتب زهير حول مشروع قيمته أكثر من خمسمئة مليون دينار، (بما يعادل آنذاك، ١٥٠٠ مليون دولار أميركي) فكيف بثلاثة اجتماعات تؤلف مطاردة. كما أنني حينما كنت في لندن اتصلت تلفونياً بشركة «ويمپي» و طلبت مقابلة سبارك لغرض التعرف أكثر إلى الشركة، بهدف تأسيس علاقة معها تمتد في المستقبل، (كان هذا بعد أن قررت عدم الاشتراك في المشروع). فقيل لي بأنه خارج إنكلترا، و لكنّ المعماريين اللذين كانا في الشركة أبديا لي أنهما يودان التعرف إليّ، فذهبت إلى مقر الشركة، و بعد الاطلاع على بعض مشاريعها، تناولنا وجبة الغداء معهم، و لم يتم الاتصال مع الشركة منذ ذلك الحين، أي منذ أكثر من عامين أو ثلاثة أعوام. مع ذلك، حينما أقامت الملحقية الثقافية في السفارة العراقية معرضاً لأعمالي المعمارية قبل عودتي من لندن، في خريف ١٩٧٨، أي قبل شهرين، كان في الافتتاح المعماريان اللذان التقيت بهما في شركة «ويمپي»، و يظهر أن حضورهم كان بدعوة من الملحقية الثقافية في السفارة العراقية.

Twitter: @ketab_n

و ما إن عدت إلى الزنزانة حتى طُلب حضوري مرة أخرى إلى الطابق الأسفل و منه إلى غرفة التلفون. كان جالساً وراء المنضدة العريف نفسه في المخابرات التلفونية السابقة. قبل أن يطلب الرقم، قال إن قضيتي اكتملت، و هم في انتظار الأوراق، و هذه آخر مخابرة لي، فسألته كم المدة قبل خروجي، قال أقصاها يومان أو ثلاثة، فسألته: هل يمكن أن أبلغ عائلتي بهذا، فقال: التلفون مراقَب، و لكن يمكنك أن تنوه بهذا المعنى، و حينما كلمت بلقيس أخبرتها بأن تهيئ إكمال الدار بسرعة و قد شُفيت ساقي من الألم.

مرة أخرى صعدت الدرج إلى زنزانة رقم «٢٦». مرت الأيام، و أخذ يساورني القلق والشك. كانت قد مرّت ثلاثة أيام و بعدها عشرة، و لم يكن هناك أية إشارة إلى خروجي. جاء بعد هذا الحارس وقال «٢٠٠، لمّ ملابسك» و هذا نداء لم أسمعه من قبل، لأنه يعني إما الخروج من المخابرات أو إرسال الفرد إلى المحكمة أو نقله إلى زنزانة أخرى. ساورني الشك، فلم نتقدم نحو الدرج، و لم تكن سلوكيات الحارس تدل على أننا سنتقدم نحو الدرج، فرافقني إلى حيز مضيء نسبياً، و فتح الباب و سلاسله الحديدية، و أودعني في زنزانة أخرى و هي زنزانة رقم «٥».

في زنزانة رقم «٥»

كانت زنزانة رقم «٥» أكبر من رقم «٢٦»، أو هكذا بانت لي، لأنها أكثر إضاءة من الزنزانة السابقة، و كان الدخول إليها من «هول» يطل على شباك كبير و مضيء، و هذا هو مصدر إضاءتها، و ليس من ممر ضيق كما هي الحالة في الزنزانة رقم «٢٦». كان فيها ثلاثة معتقلين و كنت أنا رابعهم. الأول إطفائي اسمه سعد من منطقة شمالي

Twitter: @ketab_n

شرقي العراق. سعد لطيف جداً، و نظيف. كان مصاباً بأرق إرهابي دائم، و كان الإرهاب الذي سيطر عليه ناجماً عن خوفه من التحقيق، و في الوقت نفسه، لأنه كان دائماً خائفاً من أنه سيكون متعباً أثناء التحقيق، و لذا لم يتمكن من الإجابة الصحيحة، فكان في دوامة من التعب و الإرهاق و في حلقة مفرغة. كان سبب احتجازه أنَّ أخاه متهَم بالشيوعية. لسعد قابلية خارقة، أو هكذا تراءى لي، في قدرته على معرفة الوقت تماماً، فيحدد الوقت بدقة. فمثلاً، يقول الخامسة و الربع، أو العاشرة إلا عشر دقائق، أو الآن الساعة الثانية و عشرون دقيقة بعد منتصف الليل. و يستنتج الوقت عن طريق الأصوات المتعددة التي كنا نسمعها، منها أصوات حركة القطار و صفيره، و حركة سيارات المخابرات، و زقزقة العصافير في المساء، التي كانت تمكّنه من تحديد موعد الساعة بدقة. فكان يهمنا ناحيتان من معرفة الوقت: أولاً، ما تبقّى من ساعات الليل، و هل أخذنا قسطاً كافياً من النوم، و الناحية الثانية موعد وجبات الطعام، و متى سيكون موعد مجيء الحرس مع الدلو ليتم توزيعه و خاصة طعام الإفطار، إذ نشعر بجوع حاد ذلك الوقت. كان معنا في الزنزانة نفسها حامد، و هو من حيٍّ في الجنوب الغربي من العراق، قصير القامة، بدين، سريع الحركة، يتصف بقفزات متقطعة. حامد صاحب دكان مواد غذائية، و له موقف سياسي، و من جماعة الحزب الوطني الديموقراطي. لا يراعي التنظيمات المتفق عليها من قبل جماعة الزنزانة، خاصة مسألة توزيع حصة كل فرد للمدة التي يقضيها في الحمام، و تنظيم تعاقُب هذا الاستعمال. و هو تنظيم مهم يحظى بواسطته كل منا بمدة مناسبة من الوقت للتبول و التغوط و الغسل. كان حامد يخالف مفردات التنظيم، فكان أحياناً يقرفص فوق حوض المرحاض من غير مراعاة للوقت

Twitter: @ketab_n

المخصص له، و كنا نؤشر له بانتهاء وقته، فلا ينظر نحونا، أو يتظاهر كما لو أنه لا يرى قلقنا و تأشيرنا له بالإسراع. و يبقى جاثماً فوق الحوض بلا حركة. و كان سعد أكثرنا غضباً فيؤشر له و يهدده، و لكن أحياناً يتحرك حامد و أحياناً يتغاضى عنا. فقررنا حلاً للمشكلة أن يكون آخر من يجلس على حوض المرحاض و بذلك يلاحَق من قبل الحرس. كان هذا التنظيم ممكناً و مقبولاً بسبب وجودي معهم و احترامهم لي. لكنه في بعض الأحيان لا يتمسك به و إنما يركض إلى غرفة الاستحمام، و يقفز على حوض المرحاض و يكون الأول و ليس الأخير، و يتغاضى عن النظر إلينا، و يتظاهر كما لو لم يقدم على أية مخالفة واضحة للاتفاق. و ذات يوم حينما كان دوره الأول في التنظيم و ما إن انتهى من قضاء حاجته، و حان موعد تقدم آخر ليجلس على المرحاض، قفز حامد قفزة سريعة، خاطفة، و قرفص مرة أخرى على حوض المرحاض. أدهشنا و أغضبنا، و لم يكن بوسعنا أن نعمل شيئاً سوى كيل الشتائم له همساً والإيماء بأيدينا و بعيوننا و بحواجبنا. عدنا إلى الزنزانة، و كانت حيرة سعد، و الآخرين، كيف يتمكن الفرد من أن يتغوط مرتين متتاليتين.

كان لحامد علاقة يتفرد بها مع الحرس، أو تفرد بعضهم بها معه. فعندما نخرج إلى المرحاض، يتقدم أحد الحرس و يضربه على رقبته الخلفية. كان ذلك يتكرر من غير اعتراض منه، و غالباً ما يتم الأمر بلا صوت أو كلام من كلا الطرفين، و قد سأله سعد أكثر من مرة عن سبب هذه المعاملة؟ و ظل حامد صامتاً بلا جواب.

لم تمض إلا ليلة أو ليلتان لوجودي في هذه الزنزانة، حتى استيقظت و سمعت صوتاً غريباً لم أسمعه من قبل. بقيت أتنصت و لم أستطع تشخيصه. و بعد برهة من الزمن استيقظ سعد فسألته همساً عن

Twitter: @ketab_n

مصدر الصوت، فعرفت منه أنه حامد. كانت أسنان حامد تصطك محدثة صوتاً كصرير الباب، و كان هذا الصوت يستمر طوال الليل و يتقطَّع أحياناً بغير انتظام.

كان معنا في الزنزانة معتقل آخر إيراني الجنسية، لا يكلم أحداً، فهو يفهم العربية و يتكلمها قليلاً. و لكنه لا يكلمنا لأنه يشك بأن أحداً من بين المعتقلين معنا في الزنزانة مدسوس من قبل المخابرات. وزع أغلب وقته في روتين منتظم: إما يصلي أو يدعو و يتوسل إلى ربه، و يأخذ التوسل والدعاء هذان أغلب وقته. قبل الغروب يومياً، أي قبل أن تصبح الزنزانة معتمة، يبدأ بفاصل البكاء الذي يتراوح بين نصف ساعة و أكثر، و يردد كلمات أو جملاً. لا يوجه كلامه إلى أحد بل يكلم نفسه فقط. كان يرافقنا عندما نذهب إلى الحمام، و يكون عادة متهيئاً كالآخرين لدورة الحمام، و لكنه لا ينظر باتجاهنا، و لا يرغب في أن ينظر إليه الآخرون، بل يعيش طوال أيامه معنا في عزلة مطبقة. لم نكن نفهم ما يعني أو يقول، هل هو دعاء أم عتاب أم شكوى إلى الله! لا ندري. ثم يعمد و يمسك قدمه اليمنى و يبكي بصوت خافت وحزين، كالأنين، و يتكرر هذا البكاء و الأنين في الصباح التالي. علمت من الذين كانوا أقدم مني في الزنزانة، أن هذا الرجل قضى في هذه الزنزانة ما لا يقل عن ثلاث أو أربع سنوات. فهو أصلاً كان راعياً على الحدود العراقية ـ الإيرانية. و لم يمض على نقلي لهذه الزنزانة أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، حتى جاء الحارس و نادى الرقم المعين، و أخذ هذا الإيراني جميع ملابسه و غادر. فرحنا جداً له و قال الجميع «خلّص، هذا المسكين.» كان هذا كل ما تم من همس بحق هذا الرجل، و لكنه همس لا يعبر إلا عن جزء من شعور كل منا بالظلم بحقه، و القسوة المريرة التي كنا نعيشها و نعاني منها.

Twitter: @ketab_n

كان يعي ظلمته، كما كنا نعي ظلمتنا. هواؤها ثقيل، مثخن برطوبة الأنفاس. فهي ظلمة لا تتحدد مسبقاً بزمن، ففي هذه الزنزانة يتوقف الزمن ما عدا مواعيد الساعة التي كان يُعلمنا بها سعد.

لا يقطع السكون عندنا سوى خطوات الحرس، و رنين دلو وجبات الطعام الحديدي، و أصوات حركة سيارات المخابرات، و صوت حركة القطار و صفيره البعيد، و أحياناً زقزقة عصفور أو عصفورين.

لا يتغير موقعنا في الزنزانة، فالحدث الجديد في هذه الزنزانة هو ليس الوحدة بين أربعة جدران، لأنه قائم مع امتداد الزمن. و نعلم أننا في عالم لم يتوقف فيه الزمن و المكان فحسب، و إنما أصبح المكان مجمّداً بين أربعة جدران داكنة، رهيبة، حيث نجد هنا و هناك على جدرانها، آثار كتابات مع خطوط مستقيمة و منتظمة، و لا ندري أكانت تشير إلى عدد الأيام أم الأسابيع أم الأشهر لأحد الموقوفين، و هل كانت لمجموعة منهم، أو لأفراد مختلفين في مواعيد مختلفة. كان عدد تلك الخطوط كبيراً و تتألف من مجموعات. كانت كل مجموعة من هذه المؤشرات منفردة لا تشوش المجموعة الأخرى. كنا ننظر إليها، و نسائل أنفسنا هل علينا أن نبدأ و نسجل على الجدران مرور الزمن كما فعل من كان قبلنا هنا؟ خطر ببالي أن أحذو حذو من كان قبلي هنا. ترددت في كل يوم يمر، و أجّلت عملية التأشير كل مرة إلى اليوم التالي.

ماذا لو باشرت بالتأشير كما أشر هؤلاء هذه الجدران من قبلي في الماضي، و هي تأشيرات لا تبوح لنا بواقعية الزمن، و لا بعدد الأسابيع أو الأشهر، و لا كم مرّ عليها من الزمن: أشهر أم أعوام، و ماذا ستكون أهميتها حتى و إن طال تأشيري لعدة أشهر، لعشرة منها

Twitter: @ketab_n

أو أكثر. و لكنها ستكون مؤشرات على جدران باردة معتمة و مغلقة لا لون فيها. و إن أقدمت على تأشيرها و تكاثرت أعداد الخطوط المستقيمة، فمن سأحاجج! كنت أتجاهل هذه التأشيرات سواء كانت على الجدران أم في مخيلتي، لأنها مجرد تعدد لامتداد مجهول من الزمن.

السكون بين الجدران الأربعة، و الصمت، أمران لا بد من إطاعتهما، فقد أصبحا عادة، أو أصبحا نهجاً لا يتجاسر أحد منا على تجاوزه. السكون و الصمت هنا رهيبان، مخيفان، و هما في الوقت نفسه حماية لـ«الرقم»! رهيبان لأنهما يزيدان من ظلمة الزنزانة رعباً. فأي صوت يصدر من أحد تلك «الأرقام»، قد يؤدي إلى إهانة كل «الأرقام» في الزنزانة. و إن تمكن الحارس المكتشف للصوت من معرفة مصدره، أي مَن مِن بين الموجودين سبَّب الصوت، فيؤدي الأمر عادة إلى استدعاء الفرد المعين و تعرضه للشتائم و التهديد بالضرب، هذا إذا كان الحرس من بين المتساهلين. فقد كان بعضهم لا يرغب في إيذاء المعتقلين، أما إذا كان الحرس من غير المتساهلين فيتم إخراج «الرقم» إلى خارج الباب الحديدي فينهال أحدهم عليه بالضرب و الشتائم، باليد أو بدفرات البصطال (الجزمة).

مع كل هذا الصمت، هناك ظاهرة جديدة للبقاء في هذه الزنزانة، و هي نوع السكون، فهو سكون ينقطع بصرخة الحارس في موعد معين، يومياً قبل موعد تقديم وجبة طعام الغداء، و هي صرخة تعقبها دراما محيرة. كان هذا النهج يتكرر تقريباً كل يوم حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً، و نادراً ما كان يحدث في مواعيد أخرى، ففي الموعد المعين ينفجر الصمت بصرخة ألم عميقة، و لا ندري إن كان الصراخ صادراً من جريح أو مريض أو مجنون أو هو تحدٍّ مقصود.

Twitter: @ketab_n

و لكن لا بد من أن مصدره كان من شخص قوي يتحمل أحداث هذه الدراما المؤلمة.

ففي زنزانة قريبة من زنزانة رقم «٥» كان ينفجر فجأة صراخ مؤلم. يتحدد هذا الصوت بنبرة واحدة متكررة، تقتصر على صوت أشبه بلفظة «أيـا». إلا أن نبرة الصوت و ارتفاعها يتغيران بلا نمط معين. أي تتكرر هذه الـ«أيـا»، لكن ترنيمة تكرارها و ارتفاعاتها و نبراتها تتنوع: أحياناً قصيرة و متقطعة، و أخرى تتسم بجرات طويلة، من أعماق مواقع الألم. فينفجر بذلك الصمت المحكم بسلطوية الممرّات، و لا يقطعه سوى وقع أصوات بصاطيل الحرس، و الكلام بينهم يتناوب فنسمعه أحياناً على شكل همس. ربما تعود الحرس على هذه «الأياهات»، و قبلوا بها، أو وجدوا أن لا مفر من قبولها، على الأقل في مراحلها الأولى، أو قبلوا بها بالصيغة التي يقبلون بها بمخالفة أو اعتراض من جهة أخرى، حينما تعكر الصمت الذي فرض على ممرات الزنزانات.

أما نحن «الأرقام المقرفصة» فكنا نفزع كلما نسمع الـ«أيـا» أو «أيـاه» لأنه صوت يتحدى السكون المفروض علينا، و لأننا كنا نترقب تطور حركة الصوت و انتقاله من القبول إلى التهديد. كنا نفرح أحياناً عند سماع هذا الصوت، فكنا نتوق إليه، لأنه التحدي الوحيد لسلطة الحرس، و يؤلف بذلك تحدياً للسكون القاتم الإرهابي. كنا نتألم، في الوقت عينه، لأننا كنا نعلم ما سيحصل بعد بضع دقائق. ترتفع صرخة أعلى من الأخرى بكثير، و لم يكن واضحاً هل الصرخة تقول «أيـا» كما كنت أسمعها أحياناً، أم أنها «أيـاي» كما أسمعها أحياناً أخرى، و ماذا تعني هذه الصرخة: هل هي مجرد صرخة تحدٍّ! أم أنها كلمة لها معنى، فتليها صرخات أعلى صوتاً و نبرةً! فيهب عندئذ أحد الحرس،

Twitter: @ketab_n

أو مجموعة منهم، يهددونه بالضرب و «تكسير العظام»: «اسكت أو نكسر ضلوعك.» من هنا تتغير العلاقة بين الاثنين، ذلك «الرقم» داخل الزنزانة و من وراء الباب الحديدي، و الحرس خارجها و في الممرات مع جزم متعددة تشكّل مصدر ضجيج في ذلك السكون. فيتقدم ذلك «الرقم» و يبتدئ بضرب باب الحديد، و يتجاوب مع هذه الضربات على الحديد «رقم» من بيننا و يهمس يتوسل إلى الله أن ينجي «الرقم» الصارخ هذه المرة من مخالب الحرس. و لكن ما إن تتحقق ثلاث أو أربع صرخات متتالية، بين «أيـا» و «أيـاي» و تلحق بكلمة أخرى أو بكلمتين لا ندري إن كانتا تُلفَظان بالعربية أم بلغة أخرى. و لكن بالرغم من تكرار الصرخات، يبدأ ثانية بضرب الباب، ضربة واحدة تليها ضربات متتالية، فينعدم السكون و الصمت، و ينقلبان إلى ضجيج رهيب، بمثابة تحدٍّ للحرس الذين يفترضون خضوع جميع «الأرقام» لنظامهم. كان حينها يتقدم أحد الحرس نحو الباب الحديدي، فنسمع رنين سلاسل الحديد التي ترتطم بالباب، و يقوم بفكها، فيُفتح الباب بقرقعة صاخبة و يُسحب ذلك «الرقم» من داخل الزنزانة.

لا بد من أن يكون في وعي هذا الإنسان عاطفة و ذكريات و إحساس و ألم، كأي إنسان آخر. فيُسحب إلى الممر، و نسمع أصوات ضربات الحارس على جسده، و مع كل ضربة تصدر صرخة أخرى، «أيـا» أو «أيـاي»، مع كلمة أخرى أو كلمتين. تتكرر الضربات تجاوباً مع كل صرخة، أو يتعاقب الصراخ مع الضربات. يأمر الحارس بالسكوت، و يتحدى الرقم و يصرخ، فتزداد الضربات، حدةً و عدداً. يتقدم حارس آخر، أحياناً مع قهقهة و شتائم و ضرب متنوع. لا بد من أن يكون جسم ذلك «الرقم» ضخماً، فرنة الضربات تدل على ذلك، تتكرر الـ«أيـاه» و تتكرر الضربات المتنوعة من كفخات و ضرب باليد،

Twitter: @ketab_n

و ركل بالبصاطيل التي تصطدم بالبدن، فيختلط الأنين مع أصوات الضربات و مع الـ«أيـات» أو «الأياهـات» و كلمات تتناوب معها. كان كل واحد منا يجمد في مكانه ملتفاً ببطانيته، و نسمع أحدنا يهمس في أذن الآخر: «هذه وحشية»، «ظلم»، و يضع أحدنا رأسه بين يديه، «لم هذه الوحشية؟» «هذا لو يموت أحسن له،» «هذا ليس ببشر.» و يبكي أحدنا و يبقى الآخر كئيباً لمدة من الزمن، و يستمر الضرب، و يزداد معه الأنين، و تقل نسبة سماع «أيـاه» ثم تنقطع. و ربما أصبح البدن على الأرض غير قادر على الحركة أو إصدار حتى أصوات الاحتجاج، و ينال التعب من الحرس أيضاً. نعرف ذلك من نبرة أصواتهم حينما يشتمون «الرقم» و يخاطب أحدهم الآخر، فيتعاونون على دفع ذلك البدن، و هو أقرب إلى جثة، إلى داخل الزنزانة، وراء الباب الحديدي. فنسمع الأنين بصوت عالٍ، و نسمع أحد الحرس يقول بصوت حازم، و يهدده بأنه إذا لم يكف عن هذا، و يسكت الآن، «فسنكسر عظامك،» فيتوقف الصوت، و يعم السكون مرة أخرى. هل كان يصرخ بألفاظ عربية تعبّر عن رعبه؟ لا ندري. هل هذا الإنسان يفهم العربية؟ لا ندري، لأننا لم نسمع منه إجابة واضحة لأقوالهم و تهديداتهم.

هل كانت الصرخة «أيـا» أو «أيـاه» أو «أيـاي» أو «أو أيـاه» أو كلمة أخرى أو كل هذه؟ لا ندري؟

* * *

تفترس القطة الفأر و تنفرد به. و قد تفترس طيراً أو حشرة، فالافتراس عندها ضرورة بيولوجية لتأمين بقائها و استمرار حياتها، و لكنها تداعب فريستها، فتقدم على جعل الفأر قريباً من مخالبها،

Twitter: @ketab_n

تحت سيطرتها، تتأمل فيه و هي مطمئنة من قدرتها، فتدحرج الفأر من جهة إلى جهة أخرى، و أحياناً تقلبه للتأكد من أنه لم يزل حياً. إذا تحرك حركة تدل على حيوية تمكنه من الهرب من قبضتها، فتسدد له ضربة أخرى، ربما مع جرح آخر بمخالبها أو بأسنانها، و هكذا تتقاذفه مخالبها و أسنانها و هو بين الحياة و الموت. تقدم القطة على هذه المداعبة التعذيبية للفأر بهدف التدريب على ملاحظة حركات الضحية و على تنشيط سرعة ردود فعلها لحركاته. هذه ضرورة بيولوجية لتأمين البقاء. و لكن الحيوان، القطة، لا تحول الواسطة إلى غاية.

إلا أن الفأر يتمتع أحيانا بفرصة الهرب، و إن هرب و تمكن من الاختباء بجحره ينجُ بحياته. و لكن صاحبنا لا يتمتع بهذه الفرصة في عالم البشر كما يتمتع بها الحيوان في عالمه. لا يتمتع «الرقم» هنا بفرصة الهرب من قبضة سلطة الحرس، و الحرس حر، كما يشتهي، في إهانة المعتقل و شتمه و ضربه و ركله حتى تُنهَك قواه، و تكون أنهكت قوى المعتدى عليه قبل ذلك.

فلماذا يحول الإنسان الواسطة إلى غاية! هل لهذا الحيوان البشري مداعبات و ملاطفات و حنان مع أطفاله و أهله و أصدقائه؟ كنا نسمع بين حين و آخر، بعد وجبة العشاء، أو في وقت متأخر من الليل، غناء «عتابة» و هي أغانٍ عاطفية. كيف يفصم البشر عواطفهم و أحاسيسهم إلى فصيلتين متناقضتين؟ فإن كانت للإنسان عاطفة نحو أطفاله و أهله، أو جنسه في زمان ما و موقع آخر! فكيف يقدم على تعذيب صاحب الـ«إياه»؟

***

جاء الحرس و صرخ الرقم مع «البس»، فخرج سعد من الزنزانة. و لا ندري هل قاده إلى المحكمة أم إلى الإفراج عنه، و هكذا انتهى

Twitter: @ketab_n

خوف سعد الإطفائي من تحقيق آخر، و هذا ما تمنيت أن يكون. بعد أن ذهب سعد بيوم أو يومين، و في الصباح في توقيت لم أعد أتمكن من تحديده تماماً، بدأ دخان يتسرب من تحت الشق في أسفل الباب الحديدي. أخذ هذا الدخان يسري ببطء، على سطح أرضية الزنزانة. لم أعرف لماذا كان كثيفاً، أو ربما لم يكن كذلك بل لأنه كان يتسرب من تحت الباب، فلم يأخذ بالارتفاع إلا ببطء، و ربما بسبب بُعد موقع الحريق، أو عدم وجود تيارات هوائية. تأملت كثافته و بطأه، إنها فرصة تسمح بالعيش بضع دقائق قبل أن نختنق أكثر مما لو كان دخاناً سريعاً و عالياً، و مع ذلك أخذ يصعد ببطء، و ينتشر في الزنزانة، و بدأت أفكر بالموت البطيء. شعور لم أتعرض له في الماضي. كأن الأمر قد انتهى و لم أشعر بضرورة المقاومة، أي مناداة الحرس. كنت أتأمل هذا النوع من الموت البطيء و الواعي، بلا ألم، و لم اصدق في البداية بأنني سأموت، قلت: هذا غير معقول، و هل ستنتهي الحياة هكذا بالاختناق بالدخان! و من دون اعتراض و لا محاججة و قول أخير! لم نرَ بالرغم من ذلك ضرورة للصراخ و استدعاء الحرس، كنا نسمع حركتهم و صراخهم في إطفاء الحريق. و بينما كنا ننتظر المصير الغريب و هو الموت اختناقاً في زنزانة، و هو حدث فيه عبثية مغالية بالوجود، عندئذ جاء أحد الحرس و فتح الباب الحديدي و أمرنا بألا نخرج و نبقى في الزنزانة، و قال أطفأنا الحريق، و بدأ الدخان يتسرب كذلك ببطء من الزنزانة إلى خارجها و أُغلق الباب مرة أخرى. كم كنت أتمنى أن يكون سعد معنا ليعطينا تعليمات من خلال خبرته في إطفاء الحرائق كيف نواجه مثل هذه الحالة. كانت تلك تجربة مخيفة لأنه لم يكن بيننا من يرشدنا إلى ما يتعين أن نقوم به، فكنا بانتظار أن تعود الأمور إلى مجراها من غير أن تنتهي بموت

Twitter: @ketab_n

أحدنا اختناقاً، و لم يكن أحد بيننا يتصور أنه سيكون الأول لمفارقة هذه الحياة.

بعد الحريق بيوم واحد، جُلب إلى زنزانتنا شاب من البحرين يعرف لعبة مسلية لا تنتهي. نبتدئ بالحرف الأول من الألفية، فيتقدم أحدنا بكلمة تبدأ بذلك الحرف، و يعقبه الآخر بكلمة أخرى تبدأ بالحرف نفسه حتى نستنفد ما نتذكره من الكلمات بذلك الحرف، ثم ننتقل إلى الحرف الآخر. كنا مستمتعين بهذه اللعبة حينما جاء الحارس و قال: «٢٠٠». قدم لي عصابة العينين فوضعتها على عينيّ و اتجهت إلى الطابق الأسفل فغرفة التحقيق المعتادة. هذه المرة كان هناك ثلاثة أشخاص جالسين، أعرف اثنين منهم، و الآخر غريب لم أشاهده من قبل. طلب مني المحقق أن أروي قضيتي مرة أخرى، و كأني لم أروها لهم، و لم يتم استدعائي إلى هذه الغرفة مرات عديدة من قبل. أكملت قصتي بصيغة مختصرة جداً، فالجميع يعرفونها بعد أن قصصتها عدة مرات على مسامعهم، ثم قال أحدهم: هذا يكفي. قلت ماذا عن تهيئة كتاب للأمن حول السماح لي بالتصوير الفوتوغرافي؟ كنت أتقصد هذا، لأنني واجهت لأول مرة نوعاً من التحقيق غير المريح. كان المحقق مجاملاً كالعادة، و لكنه جاف لحد ما. فقال بصوت متردد، و خافت أكاد لا أسمعه: سنهيئ لك الكتاب المطلوب إذا طلعت! كنت في أغلب أوقاتي و أنا في الزنزانة أشعر بالكآبة و الخوف، و لكن لم أشعر بالكآبة أثناء مختلف دورات التحقيق، لأن القضية واضحة بالنسبة إلي، كما ظهر لي بوضوح أنها أصبحت واضحة بالنسبة إلى المحققين أيضاً. لذا كان التحقيق، بالرغم من الظروف التي كنت فيها، يوحي لي بالراحة النفسية. أما هذه المرة، فقد كان الجو مكفهراً بالرغم من المجاملات التي أصبحت معتادة. بعد الانتهاء من التحقيق قادني

Twitter: @ketab_n

الحرس إلى الزنزانة ثانية. تتمتع زنزانة رقم «٥» كما ذكرت ببعض الضياء بالمقارنة مع زنزانة رقم «٢٦»، لكني لم أعد أحسُّ بهذا الضياء. زال كل هذا و أصبحت أشعر بالكآبة أكثر من السابق و صار بابها الحديدي أكثر ضيقاً و إرهاباً لي، و ضاق بي حيز الزنزانة، و شعرت بجدرانها تطبق عليّ. تأخر استدعائي إلى المكالمة التلفونية هذه المرة. و عندما استُدعيت و كلمت بلقيس، أخبرتها بأن كلتا ساقيّ غير جيدة!

و بعد هذا استُدعيت ثانية إلى التحقيق و قيل لي بأن سبارك، مدير شركة «ويمپي» موجود خلف الستارة، و سنقوم باستجوابك، فعليك ألاّ توجه الكلام إليه. و قيل لي إنه يدّعي أنك طلبت منه عمولة بإلحاح. فقلت: أولاً، لم أطلب عمولة و طلبي دائماً هو أجور استشارية مقابل أعمال استشارية، و الوثائق صريحة بهذا و هي محفوظة في المكتب، كما بينت سابقاً. إن مبدأ العمولة ينطبق على عمل لا يتضمن خدمة استشارية، أما مقدار الاستشارة و أجورها فأنا الذي أقرر ذلك، و على الآخر أن يقبل أو يرفض. ثانياً، إذا كان هنالك إلحاح من قبلي في طلباتي فأقول: هذا من حقي و جزء من شروط المتابعة. ثالثاً، كيف يمكن أن يكون هناك إلحاح من قبلي بينما لم نلتق إلا ثلاث مرات فقط. قالوا لي هذا يكفي، و لكن نهج التحقيق لم يكن مريحاً، و كان أشبه بالتحقيق السابق.

ثم استُدعيت مرة أخرى إلى التحقيق، هذه المرة في تلك الغرفة الطويلة التي جرى فيها التحقيق مع ذلك الشخص الذي اعتبرته مهماً. و جرى التحقيق معي معصوب العينين هذه المرة.

بدأ بالسؤال نفسه: ما هي علاقتك بشركة «ويمپي»؟ فأخذت أكرر ما كنت أبدأ به كل مرة في بيان روايتي. و عندما باشرت في سرد موضوع القضية كالعادة قال لي المحقق: هذا يكفي، كما كان يردد في

Twitter: @ketab_n

السابق، و لكن أضاف هذه المرة جملة: «و أبلغك أن هذا تحقيق قضائي.» كنت أجهل معنى هذا المصطلح، فسألته ما يعني بذلك؟ فلم يجبني، كما لو أن سؤالي كان محرجاً له.

كان صوت المحقق هادئاً و طريقة الاستجواب مجاملة كالعادة، إذ كان بيننا احترام متبادل، و الأصح أنه كان يحترمني و هو المحتجِز لي، و لذا، كنت أقدر احترامه. أقول هذا بالطبع لأن المواطن العراقي لا حقوق له، و إلا لما تعرضت لمثل هذا الاعتقال اللاإنساني و لمثل هذه الإهانات. لم تكن لي قضية ضد السلطة، فأنا معتقل ليس لأن لي قضية سياسية أو عسكرية أو اعتراض سياسي فعال على نوع سلطوية السلطة التي تُمارَس في العراق، أو مسألة تتعلق بفقدان الدستور و الحق و العدالة، أو لأن لي علاقة بحزب سياسي ما، سواءً كان مع السلطة أو ضدها، و إنما قضيتي مهنية محضة، و إن اعتقدت السلطات أن هناك مخالفة من قبلي، فعندئذ، في مثل هذه الحالة، تحال إلى الجهة المهنية المختصة، و ليس إلى المخابرات التي يفترض أن تكون وظيفتها أمنية و ليست مهنية. مع ذلك، فقد أوضح سير التحقيق، بالنسبة إلي، كما إلى المحققين، أنه لا توجد قضية تتطلب التحقيق أصلاً.

عندما عدت إلى الزنزانة شعرت بكآبة عميقة. لا أدري لم هذا التغير المفاجئ. و بان لي حتى الغروب ذلك المساء أكثر كآبة من سائر الأيام الأخرى.

تقوقعت في زاويتي، لا أكلم أحداً، أراجع ذاكرتي لكي أعثر على السبب الذي أدى إلى هذا التحول في التحقيق، و إلى هذه النتيجة. تذكرت الدكتور قرني دوغره مجي، الذي روى لي مراراً و في مناسبات عديدة، حينما كان مديراً عاماً لمؤسسة الدواجن، أنه تسلم بطاقة من

Twitter: @ketab_n

أحمد حسن البكر، الذي كان محتجزاً آنذاك من قبل عبد السلام عارف، يطلب منه تعيين حامل البطاقة. فبين قرني للحامل أنه لا يوجد شاغر الآن. و أخبرني عندما علم أحمد حسن البكر باعتذاره عن تعيين ذلك الشخص، قال: «عليه أن ينتظر أعماله حينما أصل إلى الحكم مرة أخرى،» و هذا ما حدث فعلاً، إذ ما إن وصل أحمد حسن البكر إلى السلطة، حتى تمَّ فصل قرني من وظيفته، و أحيل على التقاعد.

حينما كان مكتبي في شارع غازي، قرب الباب الشرقي، لاحظت ذات مرة زائراً عند دخولي المكتب مع علي، و هو الموظف الإداري للمكتب. عرّفني إليه و قال إن اسمه سعدون غيدان. مرت فترة من الزمن و إذا بسعدون يكلّف برئاسة آمرية الحرس الجمهوري حينما أصبح أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية. اتصل سعدون بعلي و اقترح أن يرتب لي مقابلة مع البكر. لم أمانع و خاصة أنه كان لي مكاتب متعددة في الخليج، و كنا في أشد الحاجة إلى موافقات للسفر، حيث كان السفر يُمنَع بين حين و آخر، مما كان يسبب لنا متاعب كثيرة و فقدان الاتصال مع المهندسين المشرفين على الأعمال، الأمر الذي يعرقل متابعة مصالح المكتب، بل كان سبباً في فقدان بعض الأشغال للمكتب، بسبب عدم تمكني من متابعة مصالح المكتب في المواعيد و الاتصالات المناسبة. و من بين المشاريع التي خسرها المكتب، و التي كنا على وشك أن نكلف بها، بناية مجلس النواب في الكويت. علمت في ما بعد، أن المكتب خسر هذا المشروع بسبب تأخري عن الحضور في الموعد المناسب مع الجهة المعنية عن المشروع. من جهة أخرى، لم يكن هنالك آنذاك شبكة اتصالات تلفونية في العراق متصلة بالشبكات الدولية. ففي أكثر من مناسبة لا أتمكن من أن أقدم عرضا استشاريا خارج العراق. و كنت أضطر أحياناً إلى السفر إلى الكويت،

Twitter: @ketab_n

و أرجع في اليوم نفسه، و أنزل في فندق شيراتون لكي أتمكن من استعمال التلفون، و أقوم بالاتصالات الخارجية و أهيّئ العرض المناسب.

تمت تهيئة الموعد و زرت أحمد حسن البكر في القصر. و بعد المجاملات، أبدى البكر رغبته في تحقيق تعاون بين مكتب «الاستشاري العراقي» و السلطة العراقية. بينت له أن عملنا هو استشاري معماري محض، و لا مانع لدينا من أن يتحقق التعاون و ينحصر في المجال الثقافي فقط، كتهيئة المعارض الفنية مثلاً. عند ذلك غيّر الموضوع و انتقل إلى مسألة أخرى، و قال: «نسمع أن علاقتك جيدة بحاكم البحرين، فاطلب منه رخصة فتح فرع لمصرف الرافدين، إذ ما زالت السلطات البحرينية تتردد في منح هذه الرخصة.» ثم أضاف: سأهيِّئ هدية تأخذها معك إلى الحاكم، الشيخ عيسى. في الموعد المحدد، و قبل سفري، اتصلت بسكرتير رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر و سألته عن الهدية، فقال: لقد غُضَّ النظر عنها.

سافرت إلى البحرين و زرت الشيخ عيسى و أعلمته برغبة العراق في فتح فرع لمصرف الرافدين فوافق في الحال.

فحوى هذه الرواية أنني لم أتجاوب مع البكر مع ما كان يدور في باله، و البكر لا ينسى رفض التعاون معه في المجالات التي كان يفكر بها، و هذا ما كنت أسمع عنه من أناس كثيرين و ليس فقط من قرني دوغره مجي. فكّرت ملياً في تلك الحادثة ذلك المساء، متسائلاً هل هناك علاقة بين ذلك الحدث قبل عدة سنوات و وضعي الذي أجد نفسي فيه الآن؟ فالروايات كثيرة عن سلوكيات البكر في هذا الصدد، و ما هي الصدفة التي ربطت ذلك الحدث بقضيتي مع شركة «ويمبي»!

Twitter: @ketab_n

لم تمر إلا بضعة أيام حتى استُدعيت مرة أخرى، و تمت مرافقتي من خلال ممرات لم أمر بها في السابق. حينما كنت في زنزانة رقم «٢٦» نبهني بعض المعتقلين عند المرور في الممرات، إلى أن بعض الحرس يضع أرجلهم في طريق سير المعتقلين فيتعثرون و يسقطون على الأرض. كان الحرس يمارس هذه السلوكية حينما يكون المعتقل في طريقه إلى التحقيق عادة. و لكن لم يحدث هذا السلوك معي حتى الآن. ولذا، كنت أضع دائماً العصابة على عينيّ بطريقة أتمكن فيها من رؤية طريقي، من باب الاحتياط. حدث ذلك السلوك معي هذه المرة بالذات و كنت واعياً و منتبهاً. و حينما لاحظت امتداد الساق أمامي قفزت بخفة سريعة و لم أتعرض للسقوط. كانت هذه دلالة على أنني سأتعرض لتحقيق من نوع آخر، و ربما لتعذيب، إذ كان هذا هو النهج حسب الروايات التي سمعتها.

دخلت الغرفة، و بقيت العصابة على عينيّ، و لكن قال من كان وراء تلك الطاولة الكبيرة: اجلس. كان أمامي هذه المرة فقط حاكم التحقيق صادق سالم. قال قبل أي مقدمة، و كانت العصابة تحجب ناظريّ: «المكاتب الاستشارية بؤرة للفساد، و لا أدري كيف تسمح الثورة ببقائها.» و قال: لقد أخطأتَ في عملك مع شركة «ويمپي»، فأجبته في الحال: لم أخطىء أبداً، فأجابني: «اسكت ابن الكلب.» لزمنا الصمت لبرهة من الزمن، ثم قال: «دفعتني إلى أن أشتم والدك، هذا لم أحلم به يوماً ما، لقد أخطأت، و لولا التوصية لعذبتك و أرسلتك إلى المشنقة.» فأجبته: سأذهب إلى المشنقة و ضميري مرتاح لأنني بريء. فقال: «لقد طلبت منك شركة «ويمپي» التعاون معها في تقديم عرض إلى الحكومة العراقية، و لم تتعاون معها، مما أدى إلى عدم تقديمها عرضاً إلى الحكومة العراقية، فأدى ذلك إلى

Twitter: @ketab_n

خسارة العراق عنصر المنافسة و خسارة اقتصادية. و بناء على المادة «كذا» يعتبر عملك هذا تخريباً اقتصادياً. و بما أن العراق في حالة حرب مع إسرائيل، و عطفاً على "الفقرة كذا من قانون كذا"، فإنك أقدمت على ما يعتبر خيانة عظمى بحق العراق.» و نادى الحارس و رافقني إلى أسفل الدرج، و ثم صعدت إلى طابق الـ«وسط» و إلى زنزانة رقم «٥».

بعد هذا ببضعة أيام جاء الحارس و قال: «٢٠٠، البس» و رافقني إلى الطابق الأسفل، و وجدت نفسي مع جماعتي، زهير و محمد و عدنان، وقفنا كل منا مواجهاً الجدار و ملاصقاً به. جاء العريف الذي كان يهيئ الاتصال التلفوني و أراد أن يواسيني فقال لي: «لقد أحيلت قضيتكم إلى المحكمة و قد طُلبت الرأفة بصالحكم.» و يقصد بهذا، كما هو متعارف عليه، سوف لن يصدر بحقنا حكم الإعدام.

طال الانتظار أمام الجدار، فطلبت من الحارس الذي كان يراقبنا أن أذهب إلى المرحاض، فوجدت المرحاض نظيفاً و هناك صابونة قرب المغسلة، و المرحاض من النوع الشرقي المبني من الطابوق، و لاحظت صرصوراً يتهاوى في الحوض، فلا يمكن وجود صرصور في مراحيض الطوابق العليا بسبب امتلائها، و كان وجوده دلالة على نظافة المرحاض.

بعد هذا تم نقلنا إلى سجن «أبو غريب»، إلى ردهة مخصصة للمعتقلين من قبل المخابرات و هم في طريقهم إلى المحكمة، و قد اصطلح عليها ردهة «التسفير». و يقضي عادة فيها المعتقل مدة شهر ليسترجع بعض قواه و صحته. قبل أن نغادر دائرة المخابرات انتبه أحد الحرس إلى أنني ألبس نعلَي المخابرات، فقال لي: اخلع هذين النعلين، فقلت له إنني لا أملك حذاءً، و لا مانع لدي أن أترك نعلي

Twitter: @ketab_n

المخابرات و أذهب إلى المحكمة حافي القدمين. شعر الحارس بالحرج، و تأمل في الأمر ملياً، ثم سمح لي باقتناء الفردتين المختلفتين في القياس، و انتقلت بهذين النعلين إلى ردهة «التسفير» في سجن الأحكام الخاصة في «أبو غريب».

في «أبو غريب»: ردهة المخابرات

ردهة «التسفير»، هي جزء من سجن الأحكام الخاصة، يكون المعتقلون فيها بمعزل تام عن المسجونين الآخرين. فهؤلاء الذين في «التسفير» ليسوا مسجونين، و إنما هم في مرحلة تهيئتهم إلى محكمة الثورة. تتألف هذه الردهة من زنزانات كبيرة ممتدة على جانبي ممر عريض لا يقل عرضه عن خمسة أمتار، وهذا الممر يرتفع بطابقين، حيث يوجد طابق أعلى مشابه للذي في الطابق الأرضي. الزنزانات مضيئة و لكل منها نافذة تطل على ساحة خارجية، و يفصلها عن الممرّ الداخلي مشبك حديدي، و لذا فهي فرحة نسبياً، تماماً كما وصفها لي أحد المعتقلين في زنزانة «٢٦» من أنها تستحق بحق تسمية أوتيل «هلتون»، و بالرغم من سعتها، لا يشغلها أكثر من معتقلين، و فيها مجال للتمشي و الحركة المريحة و الرياضة.

يقدَّم في هذه الردهة إلى المعتقلين طعام السجون، كالأرز و الدجاج و الخيار و الطماطم و البصل و الفاكهة و غيرها من ترف العيش. كما يجوز للمعتقل أن يشتري ما يشتهي من مأكولات. فاشتريت علبتي عنبة (كبيس المانغو) و علبتي سمك سردين، و عملت منها ساندويتش، فكانت وجبة لذيذة، لم أزل أتذكرها، فلقد كانت من أمتع ما ذقته في تلك الفترة العصيبة. و اشتريت لإفطار الصباح عسلاً، و وضعت الصمون في عتبة النافذة من الخارج تحت أشعة الشمس

Twitter: @ketab_n

لتيبيسه، و استعملته للإفطار مع العسل فأصبح يشبه الخبز المحمص. و قد سمح لي الحارس، الذي كان مهتماً بأمري بوقت إضافي، أن أغسل بيجامتي و ملابسي الداخلية و بدني، و اعتبرته امتيازاً منحني إياه. و شاهدت بوضوح، لأول مرة، الكمية الهائلة من القمل المستوطن بين طيات قماش البيجامة بعد أن وضعت نظارتي. وجدت القمل عبارة عن خيط أبيض ملتصق، كحبات ناعمة تؤلف سلسلة انسابت بين مختلف طيات البيجامة. تمكنت من إزالة القمل، بعد أن أنهكني غسل البيجامة، تحولت معيشتي في الزنزانة إلى استلقاء و نوم مع بيجامة نظيفة تعبق منها رائحة صابون «تايد». تحررنا أنا و البيجامة من القمل.

كان من بين المعتقلين شابان مكلّفان بتوزيع الطعام على المعتقلين الآخرين. أحدهما كردي اسمه سيروان، وهو مهندس زراعي، وسيم الطلعة و لطيف و خدوم، طيب القلب و بشوش، يسعى إلى تلبية متطلبات المعتقلين، من غير إثارة غضب الحرس، أو تجاوز النظام الصارم المفروض على المعيش في هذه الردهة بشكل مفضوح. كان كلاهما يعرف عني بعض الشيء، فنبها الحارس المسؤول عن ردهتنا. كان سيروان يهتم كثيراً في تلبية طلباتي و منحي حصة جيدة من الطعام. كان يقدم إلي ما أفضله من الدجاج، الصدر بدلاً من الفخذ، و يقدم لي خيارة واحدة و خيارتين أحياناً. كما كنت أسأله عن أخبار جماعتي، فكان يخاطر بذلك، فيقف بضع لحظات بقربي، إذ لم يكن بيننا سوى فاصل المشبك الحديدي، و يستمع إلى كلامي الذي كنت أود أن أوصله إلى جماعتي، من التحيات و السؤال عن حالتهم و صحتهم، و خاصة عن أحوال عدنان.

كان معي في الزنزانة شاب يتمتع بصحة جيدة و جسم رياضي،

Twitter: @ketab_n

ينتمي إلى جماعة «الشقاوة» من منطقة باب الشيخ. كان عدد المعتقلين من هؤلاء في هذه الردهة حوالى ثلاثين معتقلاً. أُلقي القبض عليهم و احتُجزوا بأمر من نائب الرئيس صدام حسين، من غير تحديد مدة اعتقالهم التي زادت على الستة أشهر. كان هذا الشاب لطيفاً و دمث الأخلاق، و لكنه كان يتبجح في استعمال السكين، و يتلذذ بوصف تدفق الدم من الشخص الآخر، بعد أن يضربه بسكين.

كان يصف لي بحرارة و شوق كيف كانت نساء المحلة، في إحدى مناطق باب الشيخ، يراقبنه بفخر عن كثب، و هن جالسات على عتبات أبواب دُورهن، معتزات بموقعه المهم بين أفراد «الشقاوة» في تلك المحلة. و تمثل «الشقاوة» في تلك المناطق الرجولة و الشهامة في دفاعهم عن حرمة المحلة و نسائها. و كان يروي لي كيف تتناقل النسوة حكايات بطولاته و ملاحقة الشرطة له و قدرته على التخلص و الهرب منها من دار إلى أخرى، فوق سطوح المنازل.

يجلس الحارس في الممر العريض، أو الصالة الوسطية، و يتناوب على الحراسة ثلاثة أشخاص. كان لأحدهم راديو صغير يستمع به إلى إذاعة تذيع أغاني محمد عبد الوهاب، و كانت هذه فرصة سنحت لي مدة كافية للتعرف إلى موسيقاه و أغانيه، و بخاصة الأغاني القديمة، التي وجدتها ممتعة وملأت عواطفي بالحنين، و أثارتني لدرجة اغرورقت عيناي بالدموع في بعض الأحيان. كان الطعام جيداً و الهواء نقياً، و الفرشة مريحة، و الملابس نظيفة، و يتمتع كل منا بحرية التمشي في الزنزانة و الاستلقاء من غير تماس مع الآخر.

كان في جدران الزنزانة ثقب أو ثقبان صغيران جداً، يُستعملان من قبل المعتقلين في إيصال الرسائل في ما بينهم. كانوا يستعملون لهذا الغرض ورقاً خفيفاً يُلَف على عود شخاط (كبريت) و يُدفَع في ثقب

Twitter: @ketab_n

الجدار حتى يصل إلى الجهة الأخرى، فيتسلمها المعتقل في الزنزانة المجاورة و يقرأ لمن هي معنونة، فيقوم بدوره بدفعها في ثقب الجدار إلى الجهة الأخرى. و هكذا كانت تنتقل الرسائل من ثقب إلى آخر حتى يتم إيصالها إلى المعتقل المعني.

طال بقاؤنا في هذه الردهة شهراً. و في صباح أحد الأيام، تم استدعاء جماعتي كل باسمه الصريح: زهير و محمد و عدنان، و لكن لم يُذكَر اسمي، فنبهت الموظف المكلف باستدعائنا إلى المحكمة، و بعد أن نظر إلى الملف (الإضبارة)، قال: أنت معهم لأن ملف الجماعة باسمك، «جماعة الجادرجي»، و لكن لم يدون اسمي في قائمة الاستدعاء، ثم نُقلنا في سيارات مغلقة إلى محكمة الثورة.

محكمة الثورة

عندما وصلنا إلى قاعة الانتظار في محكمة الثورة التقيت بصديقنا المهندس محمود، و فرحنا بلقاء بعضنا. استُدعي محمود كشاهد، فكانت هذه مناسبة جيدة لأن أطلب منه إعلام بلقيس و نصير بقرارات المحكمة. دخلنا المحكمة و بدأت المرافعة و وجه المدعي العام تهمته إلينا. و بعد أن سمعت خطابه، ساورني تساؤل كيف يمكن لمجموعة من أربعة أشخاص، ليست في السلطة، أن تتمكن من تخريب اقتصادي بالضخامة التي بيّنها المدعي العام، و تؤكد ما ذهب إليه حاكم التحقيق صادق سالم من تهمته بحقي. ثم تبعه المحامي المعين من قبل السلطة، الذي قال: هؤلاء مجرمون بلا شك، و لكن أطلب رحمة المحكمة لتخفيف الحكم. و لم يكن دفاع المحامي أكثر من هذا، و لم يطل كلامه أكثر من دقيقة أو دقيقتين، و الرحمة تعني هنا، كما بينت سابقاً، حكماً لا يشمل الإعدام.

Twitter: @ketab_n

حينما وجه الحاكم التهمة إلي أجبته بأنني المسؤول الأول في اختيار الجماعة و توزيع الواجبات، و كنت أنا أقوم بالاتصالات و المفاوضات مع شركة «ويمپي»، بحكم كوني رئيس المكتب الاستشاري العراقي، و هذا من حقي و ضمن اختصاصي. فصرخ الحاكم غاضباً: «اسكت، أليس أخوك شيوعياً؟» فسكتُّ كما طلب الحاكم، و لم يكن هناك ما يستحق أن أضيفه، أو أتمكن من إضافته.

انتهت المرافعة التي لم تستمر أكثر من عشرين دقيقة، اعترف خلالها كل جماعتي بأنهم غير مسؤولين، و أن المسؤولية تقع بأجمعها على عاتقي كما بينت هذا قبلهم. و بعد انتظار في القاعة دام نصف ساعة أو أكثر، تم استدعاؤنا ثانية و قرأ الحاكم قرار الحكم. فحُكم على محمد و عدنان بالحبس لمدة خمس عشرة سنة، و على زهير و عليّ بالحبس المؤبد مع مصادرة جميع أموالنا. كنا في انتظار محاكمة سيروان و جماعته، و القضية التي جاء من أجلها المهندس محمود كشاهد مع مجموعته، و كانت نتيجة المرافعات التي لم تدم أكثر من دقائق معدودة، كالمرافعات التي تعرضنا لها، و استغربنا عندما حُكم على محمود بالحبس عشر سنوات، و إن جاء بصفته شاهداً. كما تألمنا عندما صدر حكم الإعدام على سيروان و جماعته.

حُكم بالإعدام أيضاً على شخص في القضية نفسها التي طُلب فيها حضور محمود شاهداً، و كان يعمل موظفاً في السفارة البريطانية، و السبب في حكمه، كما فهمنا، أنه لم يقدم تقريراً بالتفصيل الذي طلبته المخابرات منه. ثم نُقلنا بسيارة من نوع فان، مغلقة، و أعادونا إلى دائرة المخابرات.

تمّت في المخابرات مرافقتي إلى غرفة في الطابق العلوي، و في

Twitter: @ketab_n

عمارة لم نكن فيها سابقاً، و هي غرفة طويلة و ضيقة لا يزيد عرضها عن متر و نصف متر، و كان فيها معتقل واحد إما فلسطيني أو سوري. أخبرت الحارس أننا لم نزل بلا طعام، و كانت الساعة حوالى الثانية أو الثالثة بعد الظهر، فقال: انتهى موعد تقديم الطعام.

لم تمرّ أكثر من دقائق و إذا بحارس آخر يناديني باسمي. استغربت ذلك، فقد أصبحت إنساناً له اسم بعد أن صدر الحكم عليّ و لست رقماً. قادني إلى غرفة حاكم التحقيق صادق سالم، و كانت المقابلة هذه المرة من غير عصابة العينين. أصبحنا أنا و حاكم التحقيق وجهاً لوجه هذه المرة.

فقال: «ماذا تقول عن قرار الحكم؟»

فقلت: «حدث»، كنت أقصد أن أقول «صدمة»، و لكن كنت لا أزال في دوامة و أنا أدور في صدمة الحكم المؤبد، و أحداث المحكمة الصورية.

فقال: «الذي أدخلك، سيطلعك. أنت بالنسبة إلينا مهم جداً، و نعتبرك ثروة وطنية، فالذي أدخلك سيُطلعك، و إذا وجدت أي صعوبة أو مضايقة في السجن أو مشكلة، فاتصل بي شخصياً.» كان لطيفاً جداً معي و بشوشاً، فهززتُ برأسي متمتما بكلمة شكر. طلبت منه أن يتم نقلنا إلى السجن قبل المساء، تفادياً لبقائنا ليلة أخرى إضافية في زنزانة المخابرات، فمن المعتاد أن يطول قرار نقل المحكوم إلى السجن عدة أيام. لم يكن الأمر هيناً أن نرجع إلى عتمة زنزانات المخابرات و عفونة هوائها و التعود عليه بعد «رفاه» نسبي دام شهراً في سجن «التسفير».

تركت غرفة الحاكم صادق سالم، و انتقلت من قلق الوجود في

Twitter: @ketab_n

زنزانات المخابرات، إلى قلق من نوع آخر، و هو قلق موعد صدور «مكرمة» السلطة.

تمت قيادتي إلى الزنزانة في الطابق الأعلى، و بعد برهة سمعت ضرباً و بكاءً من شخص يتوسل. سألت الذي كان معي في الزنزانة عن الأمر، فبين لي أنه شخص يهودي إيراني، كان الحرس يقومون في كل يوم و في الوقت نفسه بضربه عدة ضربات و ينتهي الأمر.

لم يمض إلا وقت قصير لا يتجاوز الساعة أو الساعتين، حتى تم نقلنا إلى سجن «أبو غريب». و ما إن تركنا أبواب مبنى المخابرات، حتى كنا قد تركنا خلفنا مئة و اثنتين و عشرين ليلة في ظلمة زنزاناتها، و ثلاثين ليلة في زنزانة «التسفير».

وصلنا إلى بوابة سجن الأحكام الخاصة في «أبو غريب» حوالى الساعة الخامسة مساءً. كنا ننتظر على أحر من الجمر داخل سيارة الـ«فان» المغلق لفتح بابها، إلا أن إدارة سجن الأحكام الخاصة لم توافق على تسلمنا و إيداعنا في منشآتها، بصيغة رسمية. يظهر أن وصولنا كان بعد المواعيد المعتادة، و ربما أزعجهم نقلنا بهذه العجلة بناءً على توصية خاصة من حاكم التحقيق صادق سالم لكي لا نبقى محتجزين في المخابرات لمدة يومين أو ثلاثة أخرى، كما هو المعتاد. أخيراً، و بعد نقاش طويل بين حرس المخابرات و إدارة السجن، تم الاتفاق على إيداعنا ليلةً واحدة في ردهة أحكام الإعدام، فنزلنا «ضيوفاً» عندهم.

رفعة الجادرجي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

خارج جدران «أبو غريب»

محاكمة رفعة، الأربعاء ٢٣ أيار ١٩٧٩

كانت الحركة في دار أم رفعة ذلك اليوم غير طبيعية، فقد عرف معظم الأقارب و الأصدقاء بموعد محاكمة رفعة، بالرغم من السرية التي أحيطت بها من قبل المحكمة العسكرية العليا.

برزت أمام عينيّ محاكمة أبي رفعة، عندما اعتُقل عام ١٩٥٦، بسبب زيارته مصر أثناء العدوان الثلاثي و مقابلته عبد الناصر. كما كان من بين الموقّعين على البرقية التي أرسلتها لجنة الاتصال الشعبي، تستنكر فيها استئناف ضخ النفط من العراق إلى حيفا، و أُذيعت من قبل المحطات العربية.

كان محامي الدفاع الدكتور حسن زكريا. تجمع الناس أمام باب المحكمة، كان بعضهم من الصحافيين الأجانب، الذين حاولوا دخول المحكمة، و لكن أُخرجوا منها و لم يُسمح لهم بحضور الجلسة، و انتظروا مع مجموعة من الناس خارج باب المحكمة. صدر الحكم على كامل الجادرجي بالسجن ثلاثة أعوام، فضج الناس و استاؤوا من قسوة الحكم عليه و عدم تبرئته. كان العراق يمرّ في حالة من الغليان

Twitter: @ketab_n

بعد العدوان الثلاثي على مصر، فمُنعت المظاهرات، و أُغلقت الصحف الوطنية، و أُعلنت الأحكام العرفية، و تم التذرع بذلك ليكون الحكم الصادر قطعياً غير قابل للاستئناف. و لكن أصبح اسم كامل الجادرجي رمزاً للنضال ضد الاضطهاد.

بعد صدور الحكم عليه، نُقل إلى سجن بغداد، و وُضع في البداية في غرفة رطبة ينز ماء المطر من سقفها في الأيام الماطرة، فيضطر إلى وضع وعاء عميق تتجمع فيه قطرات الماء. ثم تغيرت المعاملة فنُقل أبو رفعة إلى جناح آخر في السجن، و خُصص له سجين كان يقوم بخدمته، و سُمح له بتغطية أرض الغرفة و جدرانها الرطبة بالسجاد، كما سُمح له بالزيارات مرتين في الأسبوع. و عندما علم كامل الجادرجي عن تبجح نوري السعيد في المعاملة الجيدة التي وفرها له في السجن، و الذي نُشر في جريدة **البلاد**، «فهو يرتدي الملابس المدنية و يتلقى الطعام من الخارج ويستقبل الضيوف، و يستطيع أن يقيم حفلة عشاء في السجن،» ردّ عليه كامل الجادرجي برسالة قائلاً: إن ما قاله عنه نوري السعيد غير صحيح، و إن ما يتمتع به من معاملة ممتازة واصفاً إياها بـ«السجن الكريم»، لا تليق بسجين سياسي.

كانت المعاملة التي حظي بها أبو رفعة، معاملة خاصة لم تطبَّق على السجناء السياسيين الآخرين الذين حُكم عليهم في العهد الملكي. فقد كان التعذيب الجسدي من ضرب و إهانة السجناء السياسيين و الاعتداء عليهم من الوسائل المتبعة في الحصول على الاعترافات منهم.

اليوم محاكمة رفعة نجل كامل الجادرجي. كيف دارت عجلة

Twitter: @ketab_n

الزمن و طحنتنا بدورانها السريع، و كيف نعيش الآن ثانية تلك اللحظات الطويلة و القاتلة من الانتظار و القلق التي مرّت علينا قبل ربع قرن تقريباً؟ و لكن الفرق هائل و شاسع، كالفرق بين الأرض والسماء.

خصصت الدولة محامياً منتمياً إلى حزب البعث للدفاع عن مجموعة رفعة، و لا يُعتبر هذا محامياً بالمعنى المعروف في القانون و العرف الدولي، بل هو موظف عينته السلطة ليقوم بتأدية هذه المهمة، مقابل أجرٍ مقطوع.

كان نصير على معرفة بأحد المحامين الذين عينتهم السلطة للمرافعة الشكلية عن مجموعة رفعة. زاره نصير قبل المحاكمة بيوم و طلب منه أن يخبره عن الحكم بعد انتهاء المحاكمة. إذ إن جلسات محكمة الثورة محاطة بسرية تامة، فلا يعلن عن موعد المحاكمة، و لا يُسمح بالطبع لذوي المتهم بحضورها، و لا يبلّغون عنها حتى بعد صدور الحكم. و عندما ينقل المحكوم عليه إلى السجن، يُسمح للسجين بأن يبعث برقية بواسطة مديرية السجن، يُعلم ذويه فيها بموعد الزيارة الرسمية في السجن. و يعيش أهل السجين في قلق متواصل في انتظار و توقع تلك البرقية من السجن: انتظار قصاصة ورق صغيرة، تتعلق بها الآمال و تبنى عليها المواعيد، و يمكن أن تغيّر رتابة الحياة من لون إلى آخر.

كان المحامي الذي عُين للدفاع عن رفعة من قبل المحكمة، بعثياً و مكلّفاً بالعمل بصورة رسمية، مقابل أجر مقطوع قدره خمسون ديناراً عراقياً لكل جلسة، و كان يُعتبر ذلك آنذاك ريعاً جيداً. لا تتعلق وظيفة مثل هذا المحامي بالدفاع عن المتهم بالمفهوم المتعارف عليه في العالم المدني المتحضر، و إنما هو دفاع صوري، لا يطلب المحامي فيه غير

Twitter: @ketab_n

الرأفة و الرحمة من السلطة بحق المتهم و تخفيض الحكم في بعض الأحيان. ولا تستغرق محاكمة المتهم عادة أكثر من بضع دقائق، قبل أن يقرأ الحكم المقرر بحقه مسبقاً.

قضيت معظم النهار بالانتظار، أعدّ الدقائق و الساعات أمام عقارب الساعة البطيئة بدورانها! انتهى الانتظار بعودة نصير عند الساعة الخامسة مساءً.

امتلأت دار أم رفعة بالناس، الأهل و الأقارب و الأصدقاء و الجيران، يتوافدون من كل حدب و صوب. توجه الرجال نحو دار نصير و النساء نحو دار أم رفعة. هيمن الصمت و الهدوء على مجلس الرجال، و حشرجة البكاء المخنوق في مجلس النساء. لم أجرؤ على الذهاب إلى دار أم رفعة. كنت لا أزال بانتظار نصير في دارنا الجديدة في الجانب الآخر من حديقة أبي رفعة، التي انتقلت إليها قبل صدور الحكم على رفعة ببضعة أسابيع.

شاهدت نصير عن بعدٍ يتلكأ بخطواته، و قرأت في وجهه المتجهم و الممتقع، قرار قسوة الحكم الصادر بحق رفعة. جلس على كرسي بجانبي يسود بيننا الصمت و يخيم الوجوم، لا نعرف كيف نبدأ الحديث. شعرت بعبء الحزن و الألم اللذين كان ينوء تحتهما، فقد جثت الكلمات ضاغطة على شفتيه، و أزاح ما ينوء به عندما نطق كلمة «مؤبد». كانت كلمة مؤبد كإعصار هز كياني. صُعقت من شدة الصدمة، بعد انتظار دام مئة و اثنين و خمسين يوماً، فقد كنت أتوقع براءته، و عودته إلى داره. اعتراني الذهول، و اعتصمت بالصمت. اتكأت على كرسي لأقي أنقاض جسدي من السقوط على الأرض. ظل نصير صامتاً و لم يتفوه بكلمة أخرى. اخترق جدار الصمت بيننا رنين

Twitter: @ketab_n

التلفون، و إذا بصوت والدي القلق يسأل عن قرار الحكم. انصرف عندئذ نصير إلى داره التي كانت تعج بالناس.

انفلت الصمت السجين بين شفتيّ، و عصرت كلمة «مؤبد» بين فكيّ و أسناني، و سال عصيرها القاتم، المرّ بين شفتيّ: مؤبد، مؤبد، مؤبد. صُعق والدي مثلما صُعقنا بقسوة الحكم. وضعت سماعة التلفون، و ظل صدى كلمة مؤبد يطن في أذنيّ بإيقاع حاد متصل. التفتُّ نحو النافذة التي تطل على حديقة الدار شاردة الذهن، أطلت النظر، شاخصة بعينيّ نحو جمال الطبيعة، جمال الربيع بعنفوانه الزاهي الضاحك، و عشب الحديقة الغامق المقصوص المتساوي كسجادة خضراء، و الياسمين المتسلق على جدران دارنا بأزهاره المتفتحة، و ألوانه الوردية و البيضاء، تفوح رائحته العطرة في أجواء الحديقة. تطلعت إلى السماء بعينين شاردتين، تحاولان أن تكتشفا ما يضمره المستقبل في الأفق البعيد. كانت الشمس عند المغيب، و قد كستها بخطوطها الحمراء و الصفراء، و انعكست على العشب الأخضر الذي تلوّن بألوان المغيب و أفول ذلك اليوم الذي بدا لي كأفول حياة رفعة خلف القضبان الحديدية التي أُوصدت أبوابها المعتمة عليه، و منعته من رؤية جمال الطبيعة. لن يرى جمال الربيع في حديقة دارنا ثانية! ستنطفئ حياته بين جدران السجن الباردة إلى الأبد، بعيداً عن حرارة الشمس و دفئها، و بعيداً عن أحبائه و أصدقائه!

توارى جمال الطبيعة خلف حاجز من التعب و الإرهاق، و هيمن الواقع المُر عليّ تدريجياً. شعرت بالاختناق من الغضب، و بصداع عنيف. حدقت ثانية في الفراغ، في عتمة الدار، و أحسست بجدرانه الموحشة تطبق عليّ و تكاد تبتلعني، خرجت هاربة إلى الحديقة. و إذا

Twitter: @ketab_n

بأمينة، شقيقة رفعة، تبكي بصمت وحدها. قالت لي بصوت خافت و الدموع تنساب على وجنتيها: «ليش أجيتوا؟» أجبتها: «لحبه لبغداد، و عدم استطاعته البعد عنها.»

سمعت عندئذ صوت بكاء ممزوج بأنين. التفتُّ ناحية مصدر الصوت و إذا بالسائق حسين جالس على الدرج الذي يؤدي إلى غرفة ضيوف أبي رفعة يبكي بصوت مخنوق، و الدموع تنساب على وجنتيه، متمتماً و هو يردد «شلون عمي رفعة ينسجن مؤبد؟ شلون؟ شلون يابا شلون!»

أدرت ظهري و اتجهت ناحية جدار الحديقة. حاولت أن أتمالك شعوري و أكبت دموعي، فقد علّمنا والدي منذ نعومة أظفارنا أن البكاء ضعف.

لم أبك في مواجهة الأزمات و الأحزان. لم أبك عندما توفي أبو رفعة، بل جلست تلك الليلة بجانب نعشه حتى الصباح برفقة ابنته و زوجته. شعرت بفقدانه و خسارته لنا و لي بالذات من أعماقي الحزينة، و لكن حزنت عليه بلا دموع، فقد نضبت دموع عينيّ منذ الطفولة، و ظلت كلمات والدي «البكاء ضعف» راسخة كالوشم في ذهني.

جلست قرب النعش بجانب ابنته الرقيقة أمينة، الهادئة في حديثها و بكائها على أعز شخص فقدته في حياتها، تنساب دموعها على خديها بصمت. أمامي أم رفعة التي ترمّلت منذ ساعات، لا أسمع إلا أنينها و ضرب ركبتيها بيديها اللتين ترتفعان و تنخفضان بإيقاع موسيقي حزين.

ترك موته فراغاً عميقاً في حياتي و حياة رفعة. كنا نزوره في غرفته

Twitter: @ketab_n

كل يوم بعد عودتنا من العمل قبل الغداء، نجلس أمام طاولة الكتابة الكبيرة، أو حول المدفأة في فصل الشتاء، بعد أن يخرج آخر ضيف من ضيوفه ليبدأ صفحة جديدة في حديثه معنا، ينسى بها هموم السياسة و مشاكلها، و كان يردد على أسماعنا دائماً «ما تعرفون الظروف الصعبة التي أعمل بها.»

كان الحديث بيني و بينه يميل إلى المداعبة المرحة أحياناً، و ينقلب إلى لعبة «البنك بونك» أحياناً أخرى، عندما لا يعجبه جوابي، فيكبس الكرة بلطف وأحياناً بشدة عندما يشم رائحة الاعتداد بالنفس في ردّي، فأعيدها بلطف و تأنٍّ، لا أتعدى حدود الاحترام و الهيبة التي فرضها علينا كهالة حوله. أُحس أمامه بصغر شأني حيال وسع ثقافته، فقد كان بمعلوماته الواسعة المتشعبة كموسوعة، يتحدث في الأدب و الفنون التشكيلية و العمارة و فن التصوير و النجارة و البستنة و فن تصفيف الزهور، و لا يتردد في السؤال إن لم يكن له معرفة كافية عن موضوع ما.

اختزن الحزن و الألم في أعماقي لمدة طويلة، فقد طال كبت أحاسيسي و عواطفي، التي ظلت معلقة كأرجوحة بين الأمل و اليأس لخمسة أشهر، و لم أستطع أن أنفّس عن غضبي المكتوم، ثم انسابت الدموع ساخنة على وجهي من تلقائها، و انهالت بسخاء على يديّ و ملابسي متناسية وصية والدي: «البكاء ضعف.» انطلق الحزن المتراكم في جوفي، سمعت أنين إنسان مجروح، و انفتح الجرح العميق، المتقيّح بداخلي، و انقلب الأنين إلى صراخ، صراخ من أعماقي المكبوتة، صراخ على الظلم المتمثل في مجتمعنا، صراخ الفرد العاجز المشلول. بكيت على رفعة، الذي قُطف كزهرة من بين أحبائه

Twitter: @ketab_n

و أصدقائه، في ذروة إنتاجه و إبداعه، و فقد كل شيء في الحياة، و ستنطوي سنوات عمره في داخل جدران السجن الباردة. بكيت على حالي و شعرت بأن كلانا يعيش في سجن؛ هو سجين ظلم النظام، وأنا سجينة ظلم تقاليد المجتمع و أعرافه.

لم أبك على أمي التي أرضعتني حليبها، و سهرت الليالي من أجلي. ارتعشت الدموع في عينيّ، و لكنها جمدت في مكانها، و رفضت أن تنساب. قضيت شهراً كاملاً معها في المستشفى، أشاطرها ساعات عذابها و آلامها، و أشرفت على المهدئات و المسكنات التي كانت تعطيها الممرضة لها. و عندما لفظت أنفاسها الأخيرة، شعرت براحة نفسية، فقد تخلصت من العذاب الذي عانته من مرضها القصير. سُلمت ملفها عندما تركت المستشفى. نظرت إليه وانحبست الدموع في عينيّ. شعرت بفقدانها و خسارتها و لكني لم أقوَ على البكاء. لقد أصبحت أمي حبراً على ورق الملف الذي أحمله بين يديّ.

الآن تسيل دموعي كتيار هادر من أعماقي، لا أدري من أين رويت عينيَّ بعد جفافهما الطويل، جفاف صحراء عطشى أُغرقت بسيول مياه مفاجئة! لم أشعر إلا و يد جارتنا أم عدنان تحاول أن تبعدني عن جدار الحديقة الذي تمسكت به. شعرتُ بتوتر جسدي و قوة قبضة يديّ على الجدار، فلم تستطع زحزحتي عنه إلا بمساعدة نسوة أخريات. تناولت حبتين من «الفاليوم»، فشعرت بالارتخاء و الدفء يسريان في يديّ الجامدتين و الدم يجري في عروقي.

بقيت تلك الليلة جالسة في «الطارمة» المطلة على الشارع العام مع والدة رفعة و أشقائه، حتى الثالثة فجراً.

Twitter: @ketab_n

أخبرني نصير أن المحامي الذي دافع عن رفعة، قال له: إن أحكاماً مختلفة صدرت بحق المتهمين الثلاثة الآخرين الذين حوكموا في القضية نفسها. لم يجرؤ على أن يسأل الحاكم عن الحكم بالتفصيل! هذا هو محامي الدفاع الذي قام بالدفاع عن المجموعة التي كان من ضمنها رفعة!

* * *

تناهى إلى سمع صديقنا الدكتور خليل صدور الحكم المؤبد على رفعة، فلم يمرّ على دار نصير، بل استمر يدور بسيارته بلا هدف في شوارع مدينة بغداد حتى الواحدة صباحاً، عندما مرّ أمام دار أم رفعة، و وجد جميع أعضاء العائلة جالسين في «الطارمة» المطلة على مدخل الدار، فجلس معنا لا يدري هل يواسينا أم يواسي نفسه؟ كانت عيناه محمرتين. عرفت أنه بكى قبل أن يأتي لمواساتنا. تركنا الدكتور خليل بعد ساعتين، و اتجه كل منا إلى داره.

كانت تربطنا بالدكتور خليل علاقة وثيقة، منذ منتصف الخمسينيات. كان تفكيره المتيقظ و المتميز بسرعة الرد على الآخرين، لشدة ذكائه وفكره الثاقب و سرعة بديهته و ملاحظته الدقيقة، و أسلوبه الساخر اللاذع في وصفه الأشخاص، الذي كان سبباً في خلق أعداء كثيرين له، يتجنبونه و يشعرون أمامه بانتقاص لشخصيتهم. كان خليل من أصدقائنا المخلصين و قد دامت صداقتنا عدة عقود. مخلص في موقفه تجاه رفعة، يحترم رأيه و يقدّر إنجازاته المعمارية، إذ استطاع رفعة التوصل إلى ما يصبو إليه من إنجازات في العمارة و التنظير المعماري. أما الدكتور خليل فلم يستطع أن ينجز إنجازا مهماً في

Twitter: @ketab_n

الحقل الذي عمل فيه، بل ظل طبيباً كالأطباء الآخرين، يقوم بعمل روتيني من تدريس و تحليل في المختبر بالرغم من الطموح العالي الذي كان يصبو إليه.

ظلت تلك الحسرة تخزه كشوكة في أعماقه بعد عودته إلى بغداد من أميركا قبل إنجاز ما كان يصبو إلى تحقيقه. كان من أوائل الناس الذين قاموا بتجارب تأثير الدهن على الشرايين و القلب، مع فريق من الأطباء الأميركيين. كانت تلك الدراسات في بداياتها عام ١٩٥٩. و كان العلماء الأميركيون متقدمين على غيرهم من الباحثين في هذا الحقل، و قد اعتقد الدكتور خليل دائماً أن الفريق الذي عمل معه سيحصل يوماً ما على «جائزة نوبل».

أصبح الدكتور خليل، بعد صدور الحكم المؤبد على رفعة، يتردد علينا صباحاً قبل ذهابه إلى المختبر. كنت أستقبله في دار أم رفعة، و نتحدث بمواضيع مختلفة عامة، أو عما أقوم به من مساعدة رفعة في أبحاثه. كان يكنّ الود و المحبة الخالصة له. يسألني كلما عدت من زيارتي إلى السجن عن أخباره، فأطمئنه إلى أن معنوياته عالية جداً، و أحدثه عن انغماره في الكتابة و المطالعة. كنت أشعر بأنه كان قلقاً على صحتي المتردية بمرور الأيام العسيرة التي خضتها، و الفترة العصيبة التي كنت أمرّ بها، و لكن كان يتحول مزاحه، في بعض الأحيان، إلى كلمات جارحة تحزّ بنفسي و تجرحني كسكين حادة، كان متألماً لما حل بصديقه، و لكنه في الوقت نفسه، كان يجلب لي أخباراً و شائعات خبيثة، و كثيراً ما كانت تلك الشائعات تقضّ مضجعي، و تحرمني من النوم. كنت أتعجب من ذلك التناقض الذي جُبل عليه الدكتور خليل في محبته و وخزه المؤلم لأصدقائه كلسعة

Twitter: @ketab_n

النحلة. و لكن روح المزاح و التجريح ظلتا ملازمتين له حتى و هو يسخر من نفسه في ساعات مرضه الأخيرة. ظل مزاحه مستمراً حتى في آخر مخابرة تلفونية بيننا. كان مزاحاً مصحوباً بضحكة حزينة. كنت أعلم في أعماقي أنه لم تبق له إلا أيام معدودة و لو أنه كان متمسكاً بالأمل. و قد فقدنا بوفاته صديقاً يتميز بقوة ملاحظاته عن الناس، و لو تخصص بعلم الاجتماع لأصبح من العلماء البارزين.

* * *

زارتني صباح اليوم التالي صديقتي بتول محاولة مواساتي و تخفيف وطأة الصدمة.

نظرت إلى وجهها الذي لا زالت عليه مسحة خفيفة من نضارة الشباب. ذكرتني بنضارة وجهها، يوم التقيت بها في ثانوية البنات في الكرادة الشرقية، جلست بجانبها على الرحلة، في الصف الثاني المتوسط، أُخذت ببريق عينيها اللتين تنمان عن قوة شخصيتها المتكاملة بالرغم من صغر سنها، و شعرها الأشقر المجدول بضفيرتين تنتهيان بشريط ذي ألوان زاهية. و لكن طغى عليّ جمال روحها، و ذهنها المتيقظ و فكرها الثاقب المتقد، و جرأتها على المناقشة. كانت متحررة بآرائها، طليعية بمفاهيمها، ثائرة على المجتمع التقليدي الضيق الذي تعيش فيه. شعرت بتميزها عن أقرانها و شدني سلوكها الذي يختلف عن الطالبات في الصف. توثقت بيننا صداقة عميقة متينة، لم تقوضها أو تدمرها الأعاصير التي عصفت بالعراق، بل زادتها متانة و قوة. تنحدر بتول من عائلة ثرية. كان والدها حاكماً (قاضياً) لفترة من الزمن، و لكن عقليته تقليدية، متشددة مع بناته، فهو لا يسمح لهن بالخروج من الدار إلا بصحبة والدتهن لزيارة الأقارب و الأصدقاء.

Twitter: @ketab_n

و كان السائق يوصلها برفقة أختها إلى المدرسة صباحاً، ويجلبهما إلى الدار بعد انتهاء الدوام.

كانت تتوق إلى الحرية التي حُرمت منها و التي كنت أتمتع بها على صغر سني. كان والدي يعاملنا معاملة الند للند، و نتكلم معه كما نتكلم مع صديق لنا. و أصبحت بتول بالنسبة إلى والدي كابنته الرابعة. كان معجباً بثورتها على الركود الاجتماعي و الفكري الذي يطوقها من كل جانب.

أخبرتني بتول أنهم طلبوا حضور أخيها المهندس محمود كشاهد في القضية التي اعتقل من أجلها سابقاً، و لا تدري النتيجة بعد.

تركت دارنا في الساعة الواحدة ظهراً، بعد أن ذهبت لمواساة أم رفعة التي لا تزال مقلتاها دامعتين. ثم ذهبت لزيارة أهلها، و إذا بدارهم تفيض بالأقارب و الأصدقاء، فعلمت أن أخاها الذي استُدعي كشاهد أصبح متهماً و صدر عليه الحكم بالسجن لمدة عشرة أعوام.

استطاعت أن تتصل تلفونياً بنائب رئيس الجمهورية صدام حسين. و عندما رن التلفون و رفعت السماعة، و إذا بصوته، فقالت له بصوت متردد و مرتجف: «لقد صدر الحكم على محمود بعشرة أعوام.»

أجابها مندهشاً: «شلون؟»

قالت: «لقد طلبوا حضوره كشاهد، و إذا به يصبح متهماً.»

أجابها: «لقد خرج بكفالة، مو معنى هذا أنه بريء؟»

قالت: «لقد قلت لي بنفسك إنه بريء، فكيف أصبح متهماً و حُكم عليه بالسجن؟»

أجابها: «الأمور مو كلها بيدي، أعطيني مجال يا بنتي، شهر

Twitter: @ketab_n

شهرين، حتى أشوف شكدر أسوّي، و أوعدج ما يطوّل أكثر من ثلاثة أشهر.»

قضى محمود عامين و نصف العام بعد تلك المكالمة التلفونية.

* * *

زارني والدي مساء اليوم التالي، خيم الحزن و الألم على أسارير وجهه. و لكنه بعد أن شرب الشاي، اتكأ على الكنبة منشداً بعض قصائد المتنبي التي كان يقرأها و يترنم بها، بل يتنفسها و يعيشها.

أبعدني حديثه المشوّق عن أجوائي القاتمة، و عن استمرار الحياة الموحشة التي كنت أحياها، و التي لا لون مفرحاً لها في تلك الفترة الحالكة التي كنت أمرّ بها، و بعث فيها ألواناً زاهية، و أضاء المساحات المعتمة في أعماقي، و دبت حرارة الحياة فيها من جديد. نقلتني تلك الساعات التي قضاها معي إلى أجوائه المحلقة و المتفائلة دائماً بالإنسانية. كان يقول و يكرر دائماً «لا يمكن للظلم أن يستمر و لا بد للفجر أن ينبلج!» كم هو جميل أن يحلم الإنسان! إن العالم الذي يخلو من الأحلام لا يستحق العيش، بل يصبح كابوساً.

* * *

بعد أن صدر الحكم بالسجن المؤبد على رفعة بثلاثة أيام، زارني صديقنا محمود ظهر ذلك اليوم، ترك ابنه بالسيارة، بالرغم من حرّ الظهيرة، و لكنه أصرّ على ذلك و أدركت سبب إصراره. فهو لا يأتمن ابنه الصغير على سماع الحديث الذي سيدور بيننا، و هو في عمر لا يستطيع أن يقدّر مدى خطورة الموضوع. جلب لي نسخة من قرار الحكم الصادر بحق رفعة من محكمة الثورة. فقد بعثت المحكمة نسخاً إلى عدد من الوزارات و المديريات، لتنفيذ قرار مصادرة الأموال.

Twitter: @ketab_n

شعرت عندما جلب محمود نص القرار، أنه لا تزال هنالك مصابيح تضيء الظلمة المعتمة التي ابتلعتني من كل صوب، تلك المصابيح القليلة التي ساعدتني على الاستمرار في الحياة و مقاومة المشاكل و مجابهة المعضلات بشجاعة. إن تلك الرابطة الإنسانية الصافية الخالية من المصالح، لم تزل موجودة بالرغم من ندرتها، و محمود كان أحد تلك المصابيح.

كان محمود من الأصدقاء المخلصين، تعود علاقتنا به إلى ربع قرن تقريباً، و من العراقيين القلائل الليبراليي التفكير، و هو يتقن اللغة الإنكليزية لدراسته في إحدى جامعات إنكلترا. مطّلع على الأدب الإنكليزي بصورة عامة و على المسرح بصورة خاصة، له اهتمام بالسينما، يتتبع الفيلم لا لغرض المتعة فقط، كما هي الحال بين معظم الناس، بل كأداة تثقيفية مهمة.

أحب محمود متعة الحياة و قدّرها. عشنا أحياناً، عندما كنا نسافر إلى شمال العراق، و نقيم في خيم بدائية بعيدة عن الحضارة و المدنية. كان يفكّر دائماً كيف يوفّر لنا ما نحتاج إليه من وسائل الراحة في تلك الرحلات. كان «أبيقوري» السلوك، يحب الطعام الجيد و يلتذ به. كنا نحضّر معاً مائدة أنيقة في مظهرها و جوهرها، فتضفي على تلك الرحلات جمالاً و سحراً. كان يلتذ بالجلوس حول المائدة، و يخلق بأحاديثه المتنوعة جواً مرحاً ممتعاً.

دعينا بصحبته إلى شمال العراق في منطقة حاج عمران القريبة من الحدود الإيرانية، بعد الهدنة التي أُبرمت بين مُلاّ مصطفى البرزاني و الحكومة التي كانت برئاسة عبد الرحمن البزاز آنذاك. نُصبت لنا الخيم، تتوسطها خيمة كبيرة للجلوس و الطعام. كنا نجلس حول مائدة

Twitter: @ketab_n

بأطعمتها اللذيذة و كأننا في مطعم من مطاعم فنادق الدرجة الأولى.

زارنا ذات مساء في تلك الرحلة ملا مصطفى البرزاني مع حشد من مقاتلي البشمركة. قمت أنا و فائزة، زوجة محمود، لإعداد الشاي، و إذا بأحد مرافقي المُلا يقول لنا: إن «جايجي الملا الخاص يقوم بعمل الشاي.» أدركنا قصده، و انسحبنا بهدوء، فقد كان الملا مصطفى حذراً، لا يشرب الشاي خوفاً من إضافة السم له. و لكن عندما قدمتُ له الكيك مع الشاي، لم يتردد، بل أخذ قطعة و بدأ بأكلها حالاً. استغرب مرافقه من سلوكه، فقد تخطى تعليمات الحماية التي كان يتبعها بحذافيرها، فهو لا يأكل و لا يشرب ما يُقدَّم إليه، خوفاً من محاولة تسميمه الذي تعرض له مرات عدة. و اعتُبِر أكله للكيك سابقة، و في الوقت نفسه تقديراً كبيراً لما كان يكنّه من احترام لوالد رفعة.

تألم محمود لاعتقال رفعة و بكى كالطفل بحرارة و حرقة عندما أخبرته أنه سيحال إلى محكمة الثورة. شعر بخسارة و بفقدان شخص عزيز عليه عندما صدر الحكم عليه بالسجن المؤبد. كان يمرّ عليّ قبل كل سفرة له إلى خارج العراق، فأكلفه بحمل رسالة أو إجراء نداء أو بإيصال خبر لا أستطيع إيصاله من بغداد. كان يجلب معه أحياناً أنواعاً من الفاكهة و الأطعمة التي يحبها رفعة.

بعد أن تسلمت قرار الحكم المؤبد من محمود، حاولت أن أحصل عليه بصورة رسمية، فقدمت عريضة رسمية إلى مديرية السجون، أطلب فيها إبلاغي بقرار الحكم الذي صدر على زوجي، فرفضوا تبليغي رسمياً، يظهر أن الكتمان و السرية يحيطان قرارات محكمة الثورة حتى بعد صدور الحكم و تبليغ الوزارات و المديريات

Twitter: @ketab_n

المختصة بما في ذلك نقابة المهندسين. و لذا، تسلمت صورة بقرار فصل رفعة من عضوية نقابة المهندسين، باعتباره «مجرماً»، بناءً على القرار الذي صدر عن محكمة الثورة و ظل سراً من الأسرار! و بدلاً من أن تقف نقابة المهندسين كمؤسسة تدافع عن أحد أعضائها، أصبحت أداة مسيَّرة من قبل السلطة، فأقدمت على فصله من عضوية النقابة. لم أتسلم قرار الحكم، حتى بعد الإفراج عنه، و ظلت النسخة الوحيدة بحوزتي هي النسخة التي جلبها لي محمود.

بدأت بصدور الحكم المؤبد على رفعة، مرحلة جديدة من الانتظار، انتظار موعد الزيارات الرسمية للسجن، و الانتظار في الطابور الطويل أمام بوابة السجن الكبيرة، و انتظار تخفيف الحكم عليه. كانت في كل زيارة تتجدد الآمال، ثم تتبدد و تموت ثانية. عشت الشائعات الكاذبة و صدقتها أحياناً، لأنها كانت تعطيني بصيصاً خافتاً من الأمل فتساعدني على العيش بظل الانتظار.

بعد يومين، ذهب يقظان و نصير إلى السجن. كان اليوم الرسمي المخصَّص لمقابلة السجناء من قبل ذويهم. فبعثت بعض الملابس و الأدوية و المعلبات.

فتّشا قاعات السجن فلم يعثرا على أثر لرفعة. عندئذ أخبرهم أحد حراس السجن أنه لم يزل في «الاستقبال». و الاستقبال هو الجناح الذي يوضع فيه السجناء الجدد، حتى يتم إيجاد مكان لهم في السجن.

زارتني بتول في اليوم التالي و أعطتني قائمة بعثها رفعة مع أخيها المهندس محمود الذي سلمها إلى زوجته أثناء الزيارة الرسمية إلى السجناء. كانت القائمة تحتوي على أكثر من خمسين طلباً، معظمها تتعلق بالطعام. ذهبنا بعد خمسة أيام، أنا و أم رفعة، إلى الجهة

Twitter: @ketab_n

المختصة بأمور السجن، و حصلنا على موافقة خاصة لزيارته. وصلنا سجن «أبو غريب» في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً. لم يبق لنا من الوقت إلا ربع ساعة. و بعد تذمر وتململ من قِبَل موظفي السجن، و توسل واستجداء من قِبَلنا، قال أحدهم: «هاي ما صارت، كل ساعة مواجهة، خو فد مرة سووها عامة.» كانت عائلة زهير زارت قبلنا سجينها الذي صدر عليه الحكم المؤبد. ثم سمح لي و لأم رفعة بمواجهة رفعة. و عندما وصلنا «سجن الأحكام الخاصة للإصلاح الاجتماعي»، سمح الحارس بالبداية لي فقط، و بعد نقاش، وافق على أن ترافقني والدة رفعة. اتجهنا نحو غرفة الإدارة، و رافقتنا باحثة اجتماعية اسمها بهيجة، موظفة بالسجن، سألتني: هل أنت زوجة رفعة؟ أجبت: نعم، فسمحت لنا بأن ندخل غرفة الإدارة بعد أن فتشتنا، ثم بعث المدير المسؤول على رفعة، و انتظرنا بضع دقائق، استطعت خلالها أن أشاهد السجناء من بين القضبان الحديدية، مرتدين بزّات السجن البنية اللون.

تراءى أمامي فجأة شبح ظل رفعة؟ لم أصدِّق عينيّ! جلد ملتصق على هيكل من عظام! وجه ضامر ذو عظام ناتئة، شاحب، شمعي اللون، كتمثال من تماثيل «مدام تسو» في متحف الشمع في لندن! لم يبق في وجهه الرخامي إلا عينان متسعتان باهتتان منطفئتان، فقد قُتلت روح النضارة فيهما.

كان مرتدياً بزة السجن البنية اللون، بنطلون أقصر بخمسة أصابع عن قدمه، واسع عليه، مشدود بزنار رمادي اللون من البلاستيك حول خصره، و نعل رمادي اللون من البلاستيك، ينتعله البعض عندما ينظفون الدور و يغسلون أشجار الحدائق من الغبار في بغداد.

Twitter: @ketab_n

سُمح لي و لوالدته بمدة خمس دقائق فقط! بعد أن قضينا بضع ساعات في الحصول على الموافقة. انهارت أم رفعة أمام هذا المشهد، و لم يعد باستطاعتها السيطرة على أحاسيسها و شعورها. انهالت دموعها متدفقة على خديها، صامتة، لا تنبس بكلمة، بل تتطلع إلى وجه ابنها، تتأمله بحرارة، و كأنها لم تصدق أنه حي أمامها.

تزاحمت الكلمات في لجة بحر من الأسئلة الحائرة و تلاطمت بذهني بلا نسق؛ أسئلة تحوم بلظاها في رأسي، تقذف بعضها البعض، تتدافع بعنف، تطفو حيناً و تحجب بعضها البعض حيناً آخر. ظل معظمها بلا جواب.

دار الحديث عن توافه الحياة المهمة لسجين عاش طوال فترة اعتقاله بلا طعام، في عتمة الزنزانة البعيدة عن حرارة الشمس و دفء الحياة. تكلمنا عن القائمة التي أحضرها لي، لجلبها له في الزيارة القادمة. علا صوت السجّان معلناً بانتهاء الدقائق الخمس. قبلته والدته على رأسه، و طبعتُ قبلة خاطفة على شفتيه المتيبستين بين نظرات السجّان الحادة و مسؤولة الخدمة الاجتماعية بهيجة. كانت هي المرة الأولى و الأخيرة التي أرى في السجن باحثة اجتماعية.

خرجنا من غرفة المدير إلى بوابة السجن. كنتُ أتلفت و أتلكأ بالسير و أجرُّ خطواتي لعلّي أحظى برؤيته لبضع لحظات أخرى، أستلّها من بين القضبان الحديدية التي ساقه السجّان إلى داخلها.

نسيت بالرغم من ذلك المعاناة و شدة العقاب و الحكم المؤبد. اخترقت سعادتي الحدود و الأجواء كالطيور المهاجرة، فطرت فرحاً: رفعة حي أمامي! لم تكتحل عيناي برؤيته منذ شهور! و كذّبتُ عينيّ

Twitter: @ketab_n

لما رأتاه من نحول جسده المخيف، و شحوب لونه الشمعي: إنه حي على قيد الحياة!

فُتشنا ثانية. كانت قد فتشت الأغراض التي جلبناها قبل أن يسلموها إليه. وصل نصير بعدنا بدقائق، لم يسمحوا له بمواجهة أخيه، بان الحزن و خيبة الأمل عليه.

كانت عينا السائق حسين محمرَّتين من البكاء، فقد بكى ثانية عندما شاهد رفعة يسير مع السجّان نحو القضبان الحديدية. كان حسين يكنّ الود و المحبة و الإخلاص لعائلة الجادرجي، و لكن كان لرفعة منزلة خاصة عنده، فقد قسّم العائلة إلى درجات و مراتب، و احتل رفعة فيها المرتبة الثانية بعد والده. و عندما توفي والد رفعة حاز رفعة المرتبة الأولى، و أصبح سائقه الخاص في المكتب أيضاً، ارتفعت منزلتي بالتبعية عند حسين، لا لشيء إلا لأنني زوجة رفعة. اعتبر نفسه أحد أعضاء العائلة التي قضى معها أربعة عقود، و أطلق على نفسه اسم «حسين الجادرجي». كان يُعرَف بهذه الكنية من قبل جميع الأصدقاء و الأقارب و المعارف. كان له الفضل في تعليم جميع أعضاء العائلة قيادة السيارة، بما في ذلك الأحفاد و بعض الأقرباء، فالجميع يدينون لحسين بتلك المعرفة. و لذا، فإن جميع أعضاء العائلة يتنافسون في إرضائه، و هو حاضر دائماً لتلبية مطالبها.

ركبت السيارة مع أم رفعة، و خرجنا من بوابة السجن و قطعنا جداره الشاهق الذي يمتد أكثر من نصف كيلومتر، عادت عينا رفعة الباهتتان، الخاليتان من بريق الحياة و الأمل، أمامي. وجهه الشاحب الرخامي لا يفارقني و أنا عائدة في السيارة إلى دارنا. لم أشعر بمسافة الطريق الطويلة بين سجن «أبو غريب» و بغداد. كنت فرحة بلقائه

Twitter: @ketab_n

الأول، لقاء الدقائق الخمس القصيرة، بعد أكثر من خمسة أشهر من انتظار الساعات و الأيام التي نهش القلق و الخوف و الشكوك أجوائي الصافية، و حوّلها إلى غيوم داكنة. تخدَّرت أحاسيسي و أصبح كل ما يُقدَّم إلي من فتات هو هبة و مكرمة و ليس تعدياً على أبسط حقوقي.

كان فرحي بلقائه كفرحي به عندما التقيت به أول مرة قبل خطوبتنا في دار أحد أصدقائنا. كنت جالسة على أريكة في الحديقة، عندما أطل شاب وسيم الطلعة، جميل المحيّا، بملابس بنية اللون، عكست ألوانها على شعره الأصفر القصير، و عينيه الواسعتين الممزوجتين بخضرة العشب و شهد العسل. حيّاني و جلس في الجهة الأخرى المقابلة لي.

مرت لحظات من الصمت حتى جاءت مضيفتنا بالشاي، و قدمته إلينا. قطع رفعة حاجز الصمت بيننا بالسؤال عن والدي الذي كان محكوماً عليه بالسجن لعام كامل. أجبته باقتضاب عن سؤاله، للحياء الذي أحسست به. غطت حمرة الخجل وجهي، التي تخونني دائماً في الحالات الحرجة، فلا أستطيع خداعها.

انهالت الأسئلة من رفعة و كأنني أخوض امتحاناً في تاريخ الفن و الموسيقى و الأدب. أسئلة مختلفة عن الموسيقيين الروس و الألمان و الفرنسيين و الإيطاليين، أسئلة عن الرسامين في العالم الغربي و الحركات الفنية في القرنين التاسع عشر و العشرين. ثم شعرت بنوع من الراحة عندما دارت الأسئلة و تركزت أخيراً على الأدب الغربي، فلي إلمام به، وأستطيع الإجابة عنه بثقة العارف، و ليس بتردد الجاهل.

أعادني صوت أم رفعة بسؤالها بعد أن وصلنا إلى الدار إلى مرارة الواقع. هل تنتظرني لتناول الغداء في دارهم؟ أومأتُ بالموافقة، فلا

Twitter: @ketab_n

أريد أن تطوقني وحيدة جدران داري الباردة المظلمة الخالية من الحياة بعد عودتي من السجن!

* * *

أعدت النظر في حياتي بعد عودتي من تلك الزيارة، و ركّزت جميع طاقاتي لتلبية مطالب رفعة و احتياجاته في إكمال البحوث التي بدأها عندما كان طالباً في كلية همرسمث في لندن. قرر محاربة السجن و رتابة الأيام فيه، بالكتابة و الإنتاج الفكري. أصبحت غرفته في المكتب الاستشاري العراقي مركزاً لي، أنجزت فيها تلك المهمة.

عندما بدأت الدوام في المكتب الاستشاري، لم يكن قد ظل إلا عدد قليل من المهندسين المعماريين فيه، فقد ترك معظمهم المكتب بعد اعتقال رفعة و الحكم بالمؤبد عليه. لم يبق من المعماريين المهمين إلا أتيلا و عوف. كما أن المكتب الاستشاري العراقي لم يحصل في تلك الفترة على مشاريع جديدة، بل كانت معظمها أعمالاً تكميلية لمشاريع سابقة، و بتقلص أعمال المكتب الاستشاري تقلص على أثرها عدد الموظفين و المهندسين الذين كانوا يعملون فيه.

كان المهندس المعماري أتيلا من معماريي المكتب الاستشاري المخلصين و من الذين استمروا في العمل فيه بالرغم من العواصف التي مرّت على المكتب في تلك الفترة. كان قلقاً و متألماً على رفعة عندما كان معتقلاً في زنزانة المخابرات، و ثم أخذ يمرّ عليّ يومياً في غرفة رفعة في المكتب الاستشاري، يساعدني في تلبية طلباته الكثيرة بعد أن صدر الحكم المؤبد عليه في السجن. كان يساعدني في العثور على الملفات الخاصة ببعض المشاريع في مكتبة المكتب و يعطي التعليمات للطباع نوري في تلبية جميع ما أطلبه من تجليد و تنظيم

Twitter: @ketab_n

للكتب التي بدأت في استنساخها. كان أتيلا وزوجته تولا في مقدمة من ذهبوا إلى السجن لزيارة رفعة.

كنت أذهب في الصباح إلى المكتب الاستشاري، أحضر الصفحات و الفصول التي أشرها لي رفعة، و التي عليّ أن أستنسخها، فأقطع شارع النضال إلى الجهة الأخرى من المكتب حيث يقع مكتب الاستنساخ. و لكن المشكلة التي جابهتها في البداية، هي أن معظم محلات الاستنساخ المرخّص بها من قبل السلطة، يشرف عليها مسؤولون مرتبطون بالمخابرات أو الأمن. حاولت لبضعة أشهر استنساخ صفحات من كتب معمارية و كسبت بذلك ثقتهم تدريجياً، و استطعت أن أقوم بالاستنساخ من دون إشراف، فاستنسخت الأعمال التي كان يقوم بكتابتها في السجن مثل كتاب **صورة أب** و غيره من الكتب.

حاولت أن أتخطى عقبة الحزن التي هيمنت عليّ، فأغرقت نفسي بالعمل، بالقراءة و التأشير و استنساخ الصفحات من عشرات الكتب، ثم تنظيمها و تجليدها، و أخيراً التفكير في كيفية تهريبها إلى رفعة. كان تهريب بعض المقاطع أو الصور الفنية في بداية الأمر مشكلة كبيرة، فالتفتيش دقيق جداً، و لا يمكن تهريب ورقة صغيرة، فكيف بعدة فصول من عدة كتب!

كنت أحضّر في الليل جميع ما يطلبه مني في الزيارة السابقة، و أكون متوجهة في طريقي إلى السجن عند شروق الشمس بصحبة السائق حسين، و أقف في الصف الأول مع الزائرين، قبل فتح بوابة السجن، و أترك جميع الأغراض التي طلبها مني مع حسين لأنها تحتاج إلى تفتيش دقيق، و أجلب معي الكتب المغلفة عادة بغلاف أبيض

Twitter: @ketab_n

مكتوب عليه اسمه و تاريخ الزيارة الرسمية. أتركها في مدخل السجن، ليأخذها السجّان بدوره إلى مديرية أمن السجن، ثم تُسلَّم إلى رفعة بعد الموافقة عليها. و اعتدت أن أكتب قائمتين بالكتب التي أجلبها له، أضع واحدة داخل الرزمة و الأخرى أخفيها بين الملابس النظيفة التي أجلبها معي عادة.

كانت القائمة التي أخفيها بين الملابس مهمة جداً، حيث تمكنه من معرفة الكتب التي لم يتسلمها من مديرية أمن السجن. و لو أن جميع الكتب كانت تُسلَّم إليه عادة، لأن معظمها عن تاريخ العمارة أو عن الأستطيقية و فلسفة الجمال. كان يطلب في بعض الأحيان كتباً لا علاقة لها بالعمارة أو الفن. طلب مني مثلاً أن أجلب له كتاباً عن الصحة، أصدرته جريدة **صنداي تايمز** ***Sunday Times*** البريطانية، و كان من بين الصور في الكتاب صورة فتاة ذات ثديين عاريين، لها علاقة بفحص مرض سرطان الثدي. سألني عن الكتاب، مرات عديدة، و استغربت من عدم تسلمه، و لكن بعد مرور شهر تقريباً، أعيد الكتاب مكتوباً عليه «لا يسمح به المسؤول عن أمن السجن، لأنه مضر بالأخلاق!»

أطلت التفكير عندما قرأت هذه الملاحظة. كيف أستطيع إدخال هذا الكتاب ثانية و تسليمه إلى رفعة. فهو كتاب يتعلق بالصحة وبعيد عن الجنس. وجدت طريقة أخرى، خدعت بها الموظف المسؤول في السجن عن الكتب. أتلفت الغلاف و الصفحة الأولى التي عليها إشارة المنع، و أعدت تغليفه بغلاف وردي اللون، ثم لصقت معاً الصفحتين اللتين من أجلها مُنع الكتاب، و وضعته مع الكتب الأخرى. و بهذه الطريقة تسلّم الكتاب نفسه ثانية.

Twitter: @ketab_n

اضطرتني تلك الحادثة إلى أن أجد الحيل المناسبة، التي لا يستطيع موظف الأمن المسؤول رفض تسليم الكتب الفنية إلى رفعة. فعندما طلب مني كتباً متعددة تبحث تاريخ الفن في عصر النهضة و تتضمن صور أجسام رجال و نساء عراة، غطيت عورات الرجال و صدور النساء، و رسمت بقلم الحبر ملابس السباحة المؤلفة من قطعتين، «البكّيني» على جميع العراة في الصور، و غيرت بذلك رسوم أولئك العباقرة من أمثال روبنز Rubens و بوتيشيلي Botticelli و فيرونيزي Veronese، حتى تنجو هذه الكتب من الرقابة.

ازدادت طلباته صعوبة، عندما طلب كتاب *Kitsch Art*، أي الفن الكتشي، حيث فيه فصل كامل عن التصوير البورنوغرافي، أي الفن الإباحي. واجهت بذلك مشكلة جديدة لا يمكن حلها بالرسم و تغطية بعض أجزاء الجسد. فاضطررت إلى لصق جميع أوراق ذلك الفصل بالصمغ. تأخر الكتاب بالرغم من تلك «العملية الجراحية» و لم يستلمه إلا بعد ثلاثة أسابيع. و لكنه عندما استلم الكتاب، كان الفصل الذي قضيت ساعات بلصقه مفتوحاً و بعض أوراقه مهلهلة لكثرة ما قُلّبت من قبل موظفي أمن السجن، مستمتعين بصور أجساد النساء العاريات.

طلب مني ذات يوم آلة صغيرة slide viewer لمشاهدة السلايدات. فكرت ملياً في كيفية تهريبها، فرزمتها بالمناشف التي كنت أجلبها معي، و تمهلت قليلاً و تلكأت بالحركة لكي يسبقني مَن كان خلفي في الصف، كي أصل بدوري في التفتيش أمام السجّان الكردي. و عندما فتح الحقيبة و عثر على آلة السلايدات، قال لي: ما وظيفة هذه الآلة؟ أجبته: إنها آلة يستطيع أن يقرأ رفعة بها سلايدات الخرائط. قال لي: غطيها بالمناشف، و ساعدني في تغطيتها قبل أن يراني سجّان

Twitter: @ketab_n

آخر فيصادرها. دخلت بتلك الطريقة تلك الآلة التي ساعدته على قراءة الخرائط و الرسوم!

جابهت مشكلة أخرى في إخراج ما يكتبه من نصوص في السجن. وجدت حلاً لذلك بوضع أوراق هذه النصوص التي يكتبها بين الملابس التي يبعثها معنا للغسيل، فكنت ألفها بتلك الملابس و أضعها في «زنبيل» و أرسلها مع السائق حسين، قبل أن أترك السجن، لأن التفتيش مع حسين كان أقل شدة من تفتيشي.

* * *

كانت أول زيارة رسمية لنا في الجناح المخصص للأكراد، فقد شارك رفعة سجينان من الأكراد في غرفة لا يتجاوز طولها الأمتار الثلاثة و عرضها مترين. جلسنا على فراشه الموضوع على الأرض، و ترك السجينان الكرديان الغرفة لنا لضيقها، و خرجا لمقابلة أقربائهما في ممر السجن.

لم تطل إقامته في هذا الجناح إلا بضعة أسابيع فقد أُعفي عن جميع الأكراد و الماسونيين، و نقل رفعة و جماعته إلى جناح آخر في السجن.

كان والدي يشدُّ أزري في تلك الفترة القاسية التي كنت أمرّ فيها، و يساعدني على الاستمرار في تحمُّل الأحداث و مشاكل الحياة اليومية التي كنت أعاني منها. أزوره مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع في دار أختي حياة، أصغي إلى أحاديثه الشيِّقة التي لا يمل منها، في الأدب و الشعر و الفلسفة و السياسة، فقد اتسم بذاكرة قوية و فكر ثاقب حاد. كان الاغتباط بادياً على قسمات وجهه، بزيارتي إليه، و كانت تأتي معي في بعض الأحيان بتول التي كانت شبيهة بوالدي، في حفظ عيون الشعر

Twitter: @ketab_n

العربي و خاصة شعر المتنبي. كنا نقضي ساعات في النقاش، و كان والدي المحدث في نهاية الأمر، الذي كثيراً ما أجد نفسي مصغية إليه.

لم يكن والدي يعرف التحدث بقضايا الحياة اليومية الصغيرة، إذ كان يعتبرها أحاديث تافهة، فهو شبيه في هذا المجال برفعة الذي لم أسمعه يتحدث بقضايا يومية صغيرة أيضاً.

تألم والدي لاعتقال رفعة و سَجنه، و شعر مثلنا بعجزه أمام جدار السلطة الشاهق، و عدم مقدرتنا على اختراقه. كان يتساءل دائما «هل يمكن أن يُسجَن إنسان مثالي مثل رفعة؟ أين القيم و أين المقاييس؟»

لم يقتصر خوفه على رفعة فقط، كنت أحس بقلقه عليّ أيضاً، عندما يتأمل وجهي الضامر و عينيَّ القلقتين اللتين تفصحان عما أكتمه من عذاب نفسي متواصل. و شاءت الظروف أن يزداد القلق و الألم اللذان كنا نحياهما، فقد اعتُقل الدكتور محمد، زوج أختي حياة، في مديرية الأمن مرتين، قضى أسبوعين في المرة الأولى، و أُفرج عنه ثم اعتُقل ثانية لمدة شهر آخر، و لكنه لم ينج من التعذيب الجسدي و النفسي على أيدي المسؤولين من جلّادي المعتقل.

تضاعف العنف و اضطهاد الناس الذين لا يؤمنون بفلسفة حزب البعث في تلك الفترة، و اتُّخذ قرار بتنظيف الجامعات من الأساتذة غير الأعضاء بحزب البعث. كانت أختي حياة على رأس القائمة، فقد كانت أستاذة الأدب الروسي في جامعة بغداد فنُقلت إلى أحد المشاريع الصناعية في مدينة الديوانية التي تبعد مئة و سبعين كيلومتراً عن بغداد، و التابعة لوزارة الصناعة، لعدم رضوخها و رفضها الانتماء إلى حزب البعث.

كنت قلقة على صحة والدي، فقد غابت الابتسامة التي كانت لا

Twitter: @ketab_n

تفارقه و حل محلها القلق المتواصل. كان يعاني الصداع الذي أعاقه عن كتابة مذكراته، التي لم تر النور، خاصة في ما يتعلق بالحركة الأدبية التي نمت و ازدهرت في الثلاثينيات في مدينة النجف. كان من رواد تلك الحركة، و لعب دوراً مهماً في المقالات التي كتبها على صفحات الصحف آنذاك، و أثارت الجدل و النقاش اللذين احتدما بين المجموعة الثائرة من المثقفين الذين اعتنقوا التجديد بكل معانيه و بين المتمسكين بالقيم القديمة ضد أي نوع من التجديد.

ذهبنا جميعنا بعد ذلك في يوم الزيارة الرسمية، و رافقنا والدي مع حياة و زوجها و ابنتيها مهى و زينب، و آل الجادرجي، و عدد كبير من الأصدقاء. كانت الزيارة الثالثة إلى رفعة بعد أن صدر الحكم عليه بالسجن المؤبد.

أُقيمت الزيارة الرسمية الثالثة هذه المرة في قاعة كبيرة أُعدت خصيصاً لذلك الغرض. جلسنا على مصطبات خشبية، ذكرتني بمصطبات مدرستي الابتدائية، بلونها و سمك خشبها، مواجهين بعضنا البعض. كنا مراقَبين من قِبَل السجّانين، و محاطين بالسجناء و عائلاتهم، و لكن عمّت البهجة بالرغم من بؤس القاعة التي يحوم فيها الذباب بكثرة بأحجامه المختلفة. و علا الضجيج، و امتزجت الأحاديث بضحكات الأطفال الذين كانوا يلعبون و يختبئون أحياناً بين المصطبات.

جلس رفعة بيننا بنحول جسده و شحوب لونه. لم يكن باستطاعة والدي كبت مشاعره و عواطفه، فاغرورقت عيناه بالدموع، و بكى! أشحت بوجهي لئلا تلتقي عيناي بعينيه الدامعتين، فقد كانت هي المرة الأولى التي أشاهد فيها أبي يبكي! هو الذي علّمنا منذ الصغر أن البكاء

Twitter: @ketab_n

ضعف! التفت إليّ قائلاً: «أصبح خيرة الناس بالسجن، رفعة و المهندس محمود! أهذا ما ناضلنا من أجله؟» كان الذين زاروا السجن في ذلك اليوم، معظمهم من الأطباء و المحامين و المهندسين و رجال الأعمال.

اتجه الجميع عندما أُعلن عن انتهاء الزيارة الرسمية، نحو باب القاعة و وقف الأقرباء و الأصدقاء في صف واحد، مودعين رفعة واحداً بعد الآخر. كنت آخر من ودعه، فاختنق بالعبرات لشدة انفعاله و اغرورقت عيناه بالدموع عندما التحقتُ بالآخرين متجهة نحو بوابة السجن.

كانت هي المرة الأولى و الأخيرة التي زار بها والدي السجن و قابل فيها رفعة، فبعد أسبوعين، اصطدم بدراجة مهى، ابنة أختي حياة، و انكسر كاحل قدمه.

قضيت معه عشرة أيام في المستشفى. كان راقداً في فراشه، و كاحله مجبَّس بقالب من الجبس، و لكن لم يُقعده المرض عن أحاديثه الشيُقة المتنوعة. كنا نأمل أن يعود إلى الدار بعد عشرة أيام، و لكن خثرة دم أدت إلى جلطة بالدماغ، فقد بها وعيه.

قضيت الأيام الثلاثة الأخيرة من حياته في المستشفى. كان مُسجّى في غرفة الإنعاش، ببيجامته الكحلية اللون، وأنابيب مصل التغذية و الأوكسجين في أنفه و يديه. كنت أطل عليه عدة مرات في النهار، أقف بضع دقائق أتأمله، يتنفس ببطء. أقف أحياناً وقفة حزن و أسىً عليه، فلم أكن أرغب في أن أراه في وضعه الذي لا أمل فيه. وددت لو تخلص من الحياة، على أن يصبح مقعداً على هامشها.

جلست في قاعة المستشفى المطلة على نهر دجلة. حدقت إلى

Twitter: @ketab_n

النهر المنساب بهدوء في شهر تموز، و ركبت زورق الذكريات الضاحكة التي طواها الزمن في مخيلتي، و تدفقت صور حية لذكريات الصبا الجميلة المرحة. كانت مدرستي في الكرادة الشرقية تطل على نهر دجلة نفسه، و كان صبيان ثانوية الكرادة الشرقية و شبانها في شارع مدرستنا نفسه، يترصدون الصبايا عند خروجهن من المدرسة. كنا جميعنا في سن المراهقة، و كانت تلك فرصة مهمة لكلا الجنسين في اختلاس النظرات و لو عن بُعد.

تراءى وجه والدي و ضحكته التي رنت في أذني، عندما سلمته الرسالة التي سلمتني إياها مديرة المدرسة بعد تأنيبها الشديد لي، و التي كانت تتضمن ما يمليه تفكير صبيان يافعين إلى فتيات يافعات. ضحك ضحكة عريضة عندما قرأها و ربت على كتفي، فقد شعر بالحرج الذي كنت أعانيه، قائلاً: سأكتب للمديرة رسالة، أشرح فيها الحرية و الثقة المتبادلة التي ربيت عليها أبنائي و بناتي. و لولا نظرته و موقفه المتحرر، لوقعت في مأزق صعب أمام المديرة آنذاك. لكني أحسست بالثقة و الانتصار و الزهو عندما سلمتها رسالة والدي في اليوم التالي. فتغيرت أسارير وجهها الصارم و تقاطيعه الجامدة، و انفرجت شفتاها عن ابتسامة وديعة.

لم تنقطع الرسائل إلي من مدرسة البنين، و لكن تغير موقف المديرة نحوي، و ذلك بسبب موقف أبي، و أخذت تسلمني الرسائل من غير أن تفتحها، و كنت أسلّمها بدوري إلى والدي.

انتشر موضوع الرسائل بين صديقاتي، و جعلتني أحاديثهن أشعر بأنني محظوظة، فقد كن يعانين حرمان تلك الحرية التي كنت أتمتع بها، فاعتبرتها حقاً طبيعياً. كن يعشن تحت رقابة دائمة من قبل الأب

Twitter: @ketab_n

و الأم و الأشقاء. كان المجتمع التقليدي في العراق في تلك الفترة، مجتمعاً ضيقاً، يطوق المرأة و يقنِّن حريتها لدرجة الاختناق.

تميّزت عنهن بموقف والدي المتزن، بنظرته المعاصرة بحرية و مساواة المرأة في الحقوق مع الرجل، التي آمن بها و أزال بذلك الشكوك التي كانت تعتلج في صدر مديرة المدرسة.

نظرت إلى الجالسين حولي، يمجّون سجائرهم بعمق و ينفثون دخانها المتكاثف في جو القاعة الكئيب. أفاقت الذكريات الحزينة من سباتها تُزاحم و تدفع الذكريات المرحة، و برز بقوة نهر من الذكريات الحزينة التي طوَّقت حياة والدي منذ اعتقاله الأول عام ١٩٤٩، لأنه لم يكن في يوم من الأيام من مثقفي السلطة و مفكريها، بل كان مفكراً حراً، و ناقداً للسلطة طوال حياته. أدى به ذلك الموقف إلى السجن والنفي و التشريد. أصبح نزيل معتقلات و سجون العهد الملكي و عهد عبد الكريم قاسم، و اختار المنفى عندما خابت آماله في ثورة ١٩٥٨، فذهب إلى الصين و من ثم إلى الاتحاد السوفياتي باحثاً عن الأمان و العمل، و لكن وجد فكره مقيَّداً في تينك الدولتين، و أصبح عرضة للصراع الأيديولوجي الذي كان قائماً بينهما آنذاك. عاد من الغربة القاسية إلى مسقط رأسه لبنان، بعيداً عن عائلته و أولاده في العراق، و لكنه خرج بأعجوبة من لبنان خلال الحرب الأهلية الطاحنة المدمرة التي اقتاتت مواطنيها كما تقتات النار الهشيم، متوجهاً ثانية إلى العراق في عام ١٩٧٦ . عاش آخر ثلاثة أعوام من حياته متألماً من الأوضاع السياسية العامة في البلدان العربية، و من أوضاع عائلته التي أحيط أعضاؤها بالاعتقال و السجن.

رُفع المصل المغذي من يديه و الأوكسجين من أنفه، عندما توقف

Twitter: @ketab_n

قلبه عن النبض في ١١ تموز ١٩٧٩. غابة حزن داكنة تشابكت في أعماقي و تسلقت أدغالها كياني عندما فقدت والدي، فقد كان الضوء الساطع الذي أنار لي درب الحياة الوعر. هويت في مغارة مظلمة، و تجمد الزمن بموته. شعرت بفجوة كبيرة في حياتي، عندما فقدت أباً وصديقاً، كنت بأمسّ الحاجة إليه، لملء تلك الثغرة التي تنبض بأحاديثه الشيِّقة، و إلى نظرته المتفائلة بالرغم من السجن و التشريد، و ضحكاته التي توقفت فجأة و كانت بلسماً للجرح العميق الذي كنت أحياه.

* * *

كان اعتقال رفعة و الحكم المؤبد عليه، محكاً قاسياً و امتحاناً صعباً لعلاقاتنا الاجتماعية في مجتمع يسيطر عليه الحزب الواحد بقبضته البوليسية الصارمة. لقد سحق الرعب شخصية الناس و نكس الذل رؤوسهم التي كانت مرفوعة بفخر و اعتداد قبل أن يتسرب و يسكن في أعماق نفوسهم، و يشل حركتهم و يصبحوا آلات مسخرة بأيدي السلطة. و أصبح المواطن العراقي خائفاً حتى من ظله. فغربل الرعب عدداً من الأصدقاء و المعارف و الأقارب. كانت أم رفعة توصيني و تؤكد عليّ دائماً ألا أتفوه بكلمة نقد تمس الوضع العام أمام ضيوفها، خوفاً من نقلهم كلامي إلى الجهات الرسمية. لقد أصبح الشك و الكتمان و السرية التامة من المظاهر التي يتحلى بها الفرد العراقي، و فرض على نفسه الرقابة الذاتية، و كأنه يعيش في معتقل كبير، وأصبحت أتفه الأمور اليومية سراً لا يمكن البوح به، خوفاً من الوشاية.

كانت لسعة الشامتين بنظراتهم كلسعة النحلة، و لكن كانت خيبتي

Twitter: @ketab_n

عميقة و لسعتي مؤلمة كلدغة العقرب المفاجئة من الأصدقاء الذين ظننتهم سنداً لي في تلك المحنة.

شعرت بهيمنة الرعب و مفعوله عندما انتشر فلفّ جوه الخانق شوارع المدينة و أزقة الحي و بيوت المعارف و الأصدقاء، و خُدّرت ضمائر الناس و فتكت بالروابط و فككت الصداقات. حزنت عليهم، و تألمت من بعضهم، تألمت من أولئك الأصدقاء، خاصةً الذين كانت تربطنا بهم صداقة أصيلة قديمة لأكثر من بضعة عقود، منذ أيام الدراسة الثانوية، كصداقة ألبير لرفعة.

كان ألبير من أصدقاء رفعة في كلية بغداد، و غالباً ما كانا يتحدثان عن إعجابهما ببعض فتيات بغداد الجميلات، و يذهبان لتعلم الرقص الغربي في أول صالة رقص فتحت لتعليم هذا الفن. فقد كان ذلك المكان من المناسبات المهمة في تعرفهم إلى الفتيات اللواتي كن يأتين لإتقان هذا الفن أيضاً. كان ألبير من الذين يحبون الموسيقى الشرقية، و تعلّم عزف العود على أحد أساتذة العود المشهورين. ثم التقيا ثانية في إنكلترا عندما سافرا لإكمال دراستيهما الجامعيتين.

تزوج أثناء دراسته من فتاة إيرلندية و عادا إلى بغداد. كنا نلتقي في الدعوات التي نقيمها في دارنا، أو في دارهم، كما كنا نُدعى إلى جميع مناسبات عيد الميلاد (الكرسمس) لديهم في بغداد، و كأننا جزء لا يتجزأ من العائلة. حاولت زوجته في تلك المناسبات خلق أجواء مرحة تنافس فيها أجواء عيد الميلاد في بلدها البعيد.

انقطع ألبير و زوجته عن زيارتنا فجأة بعدما أُلقي القبض على رفعة، و لم يتصلا بي حتى تلفونياً، و لكن بعد مرور ثلاثة أشهر

Twitter: @ketab_n

تقريباً، التقى بهما يقظان، أصغر أشقاء رفعة ذات أمسية في أحد النوادي، و همس بأذنه، «شلونها بلقيس، سلم لي عليها، و اعتذر لي منها، فلا أستطيع الاتصال بها بسبب ظروفي.»

كان اعتقال رفعة بالنسبة إلى ألبير كنسمة محرقة، تركت أثرها العميق فيه، فقد كان متألماً على صديقه و خائفاً على نفسه، يعيش في صراع نفسي، لأنه يكنّ حباً عميقاً له و يثمّن الصداقة الحميمة بينهما، و لكن الخوف و الفزع كانا رادعين مهيمنين على سلوكه.

ربما كان هنالك عذر لخوفه إلى هذه الدرجة، إذ لم يعتقل فقط صديقه رفعة في تلك الفترة، بل اعتُقل صديق آخر من أصدقائه، و لم يطلق سراحه إلا بعد أن حصلت زوجته الأجنبية الجنسية على مقابلة نائب رئيس الجمهورية صدام حسين.

كان هنالك عدد من الذين عادوا بعد أن أكملوا دراستهم في أوروبا و أميركا و تزوجوا بنساء أجنبيات انسجمن مع الجو الثقافي و الفني و الاجتماعي في العراق، فأتقن بعضهن اللهجة العراقية، و منهن من درسن اللغة العربية. و لكن كانت أول صدمة جابهتها أولئك النسوة، عندما صدرت تعليمات تقتضي بأن تتخلى الزوجة الأجنبية عن جنسيتها، إن كانت ترغب في البقاء مع زوجها و العيش في العراق، و شملت تلك التعليمات حتى النساء العربيات. أدت تلك التعليمات إلى تقويض العائلة في بعض الأحيان، و منهن من تركن البلد فعدن إلى أوطانهن، و منهن من نجحن في العودة إلى أوطانهن بصحبة أزواجهن، و منهن من تخلين عن الجنسية و تجنَّسن بالجنسية العراقية، و لكن لم تُسقط السفارات جنسيات أولئك النسوة، إذ كانت متفهمة للأوضاع التي تصدر بها مثل هذه التعليمات.

Twitter: @ketab_n

كان الرعب الذي سيطر على بعض أصدقائنا و معارفنا لا يمكن تصويره إلا في الروايات و الأفلام السينمائية. كان بعضهم عندما يلتقون بي يتجنبون السؤال عن رفعة، بالرغم من أنهم يودون معرفة أخباره، و منهم من أصبح يخاف حتى لفظ اسمه. كان بعضهم يكرر السؤال مرتين أو ثلاثاً عليّ: «شلونيج، زينة و بعد شلونيج، زينة.» كنت أعلم أن السؤال الأول كان عني، أما السؤال الثاني، فكان يقصد به رفعة، و يتجنبون بذلك لفظ اسمه، لربما يسمعهم أحد في المكتب الاستشاري فيشي بهم.

كان مهدي من الأصدقاء الذين نلتقي بهم دائماً في دار ألبير و في النوادي و الجمعيات الفنية. كان يتحلى بروح الفكاهة و النكتة اللاذعة، و المزاح باستمرار، له القابلية و الموهبة على حفظ «النكتة» و سردها و ابتكارها. كنا في كثير من الأحيان نتعب من الضحك المتواصل عندما يكون مهدي بيننا و يسرد علينا نكاته.

كان مهدي مغتاظاً من الحكم المؤبد على رفعة، و كلما يعود من إحدى رحلاته من أوروبا، يجلب معه أنواعاً مختلفة من الجبن و الشوكولاته، يتركها في المكتب الاستشاري العراقي، و كنت في حيرة عند تسلم تلك الهدايا المجهولة الهوية و لا أستطيع أن أقدم الشكر إلى صاحبها.

كنت ذات يوم في المكتب، أحضّر بعض المواد التي طلبها مني رفعة، و إذا بالفرّاش الساعي، يقول لي: هذا الكيس جلبه شخص لرفعة. فتحت الكيس، و إذا به مجموعة من الجبن الفرنسي. سألت الفرّاش عن اسم الشخص الذي جلبه، أجابني: «رفض أن يعطي اسمه، و قال لي هي تعرف!»

Twitter: @ketab_n

كنت أجهل في البداية تماماً هوية ذلك الشخص، و لكن عندما تكررت العملية مرات عديدة، استطعت أن أخمن أنه مهدي، لعلاقته بشركات السفر.

كنت أذهب إلى المكتب يومياً لتحضير المواد التي كان يطلبها رفعة مني في الزيارة السابقة. كان أحد المهندسين المدنيين يُبعث من قبل المكتب في بغداد إلى المكتب الاستشاري العراقي في البحرين، فقد كانت للمكتب عدة فروع خارج العراق، في أبي ظبي و بيروت و لندن و البحرين. كان كلما يعود من البحرين يمرّ عليّ ويقص عليّ آخر أخبار رحلته، و بمن التقى من أصدقاء رفعة في البحرين. كان بعضهم يسأل عنه دائماً، مثل السيد علي يوسف فخرو.

جاء ذات صباح قائلاً: «أمر خدمة، آني رايح اليوم للبحرين،» قلت له: «أود أن أرسل رسالة لترسلها إلى لندن، و ذلك لسرعة البريد.» أخذ الرسالة متحمساً و بلا أي تردد، و لكن عاد بعد ساعتين، قائلاً و الرسالة بيده: «متأسف، و تعذريني ما أكدر آخذ الرسالة معي!» أخذت الرسالة منه قائلة له: «باستطاعتك أن تفتح الرسالة الآن و تقرأها، فليس فيها شيء مخالف لتعاليم السلطة!» أجاب: «لا، أحسن ما آخذها، أخاف تخلق لي مشاكل!»

كان وجهه يتصبب عرقاً، عندما أعاد الرسالة، شاعراً بالخجل الممزوج بالخوف، شعرت بالإحراج و الصراع النفسي الذي كان يعانيه، فهو متألم لأنه لم يستطع أن يلبي أبسط خدمة لي، و هو محرج و خائف في الوقت نفسه من عقاب المجهول.

و لكن بالرغم من حذره، فإن ذلك لم يحمه و لم يكن درعاً له تقيه من تسفيره و نفيه خارج العراق، لأن هويته «تبعية» و ليست

Twitter: @ketab_n

«عثمانية»، و ألحق بالناس الذين هجّروا و وضعوا بين حدود العراق و إيران. كان ذنبه الوحيد أنه ولد بهوية تبعية، و إن كانت أصوله العميقة عربية، و لا يتكلم اللغة الإيرانية.

ساد جو من الكآبة على المكتب الاستشاري العراقي، فقد فَقَد ثلاثة من موظفيه في يوم واحد، و كان سبب اختفائهم و جريمتهم الوحيدة أنهم يحملون دفتر نفوس «تبعية». طغى الحديث ذلك اليوم في المكتب عن «التبعية» من الذين هجّروا و صودرت بيوتهم، فقد قامت السلطة بحملة واسعة للتخلص من كل من يحمل هوية «تبعية» بغض النظر إن كان ذلك الشخص مناهضاً للسلطة أو محايداً.

عدت إلى الدار كئيبة، و ذهبت عصر ذلك اليوم لزيارة أختي حياة. وجدت حياة في الدوّامة نفسها من الأحداث. دار الحديث ثانية عن «التبعية»، فقد اضطر أحد أساتذة الجامعة إلى ترك وظيفته و زوجته و طفلتيه، لأن هويته «تبعية»، أما هوية زوجته فكانت عثمانية، و خيّرها رجال الأمن الذين رافقوا زوجها بين البقاء في الدار مع طفلتيها، أو مصادرة دارها إن التحقت به. كانت الزوجة في حيرة من أمرها، فهي إن رافقت زوجها لا تعلم ما سيحل بهما و ربما يبقيان بلا مأوى! فاضطرت إلى عدم مرافقته و البقاء في الدار. كانت حياة متألمة و حزينة على الأستاذ و زوجته، و لا تدري كيف تساعدهما!

عدت ذلك المساء من زيارتي إلى حياة، و ذهبت مباشرة إلى دار نصير، إذ كنت أحياناً أمر عليه و أسأله عن آخر الأخبار و خاصة ما يتعلق بموضوع رفعة قبل أن أذهب إلى داري. كنا نقف في بعض الأحيان خارج عتبة دار والده، ليقص عليّ آخر الأخبار، و أصبح الوقوف خارج عتبة الدار عادة بعد أن يخرج الضيوف من دار أم رفعة،

Twitter: @ketab_n

إذ كنا، أنا و نصير، نتجنب أن يصغي الآخرون إلى حديثنا، و خاصة والدته. كنا نحاول أن نجنبها سماع الأخبار السيئة التي تتعلق بابنها.

منذ أن دخلت دار نصير شعرت بجو الكآبة المهيمن عليه، فزوجته أميرة جالسة، مرتبكة و منفعلة، واضعة رأسها بين يديها أحياناً، أو ماسكة السيجارة بيدها تمجّها و تنفث دخانها كلولب يتصاعد في جو الغرفة. تصورت أنها تشكو من صداع الرأس، و لكن علمت من حديثها، أن دار ابنة خالتها قد صودرت و بيع أثاثها بالمزاد العلني، من سجادها و مبرداتها و مجمداتها، و خُتمت بالشمع الأحمر، فلا يستطيع أصحاب الدار دخول دارهم الواقعة في حي المنصور بعد الآن!

كانت دار ابنة خالة أميرة داراً جديدة لم يمض على بنائها أكثر من عامين، فقد بناها زوجها لينشئ أطفاله بها و ليتعلموا و يتخرجوا في الجامعات و يجدوا لهم أعمالاً في هذا البلد، الذي كانوا يعتبرونه وطنهم! و لم يخطر ببالهم في يوم من الأيام أنهم سيهجّرون لأن جنسيتهم «تبعية» و أنهم سيخسرون بذلك أملاكهم، و يعيشون في خيم على الحدود، يجهلون مصيرهم و مصير أولادهم!

هجّر عدد كبير من الناس، يتراوح عددهم بأكثر من مئة و خمسين ألف عائلة. كانت موجة الرعب التي شملت «التبعية» بداية لموجات جديدة أقبلت عليها السلطة في خنق التساؤل و التفكير!

لم تكن الصورة مظلمة تماماً، بالرغم من الجو المكفهر و الرعب الذي سيطر على الناس في تلك الفترة، بل كانت هنالك مصابيح خافتة تضيء العتمة التي عشناها: و كان من بين الأصدقاء و المعارف من تحدى الخوف و كسر طوقه فأثبتوا عكس ما كنت أتوقعه منهم.

Twitter: @ketab_n

ذهب بعض من المعارف الذين تربطنا بهم علاقة سطحية إلى أبعد من الزيارات، فعرضوا على نصير مبلغاً ضخماً من المال، فشكرهم على تلك الالتفاتة، قائلاً لهم إنه ليس بحاجة إلى المال.

***

عادت الحياة في دار أم رفعة إلى وضعها الاعتيادي، فقلّ تدريجياً عدد الضيوف الذين كانوا يتوافدون صباحاً و مساءً، و عادت الحياة إلى رتابتها الرمادية اللون، و إلى ركودها الموحش. شعرت ببرودة الوحدة المخيمة عليّ معظم الليالي، عندما كنت أعود إلى داري المظلمة. و حالما أفتح بابها أحس بالفراغ المعتم يبتعلني. لم تكن معاناتي من الوحدة فقط و القلق على مصير رفعة، بل عانيت من موقف المجتمع التقليدي و نظرته إلى المرأة.

أحسست بضغط نفسي عنيف، و وجدت نفسي في مطحنة المجتمع التي تسحق الإنسان و تجعله أداة تحركه كما تحرك الدمى الميكانيكية، و يشعر المرء بعجزه في تسيير حياته كفرد مستقل له كيانه المتميز. إنها السدود التي يفرضها المجتمع على المرأة، فيكبلها بقيوده و يحجب عنها فضاء الحرية التي يتمتع بها الرجل عادة. أصبحتُ أعامَل كأرملة بالرغم من أن زوجي حي على قيد الحياة. و تجنب الناس دعوتي، لأن زوجي سجين، و المفترَض بزوجة السجين ألا تتمتع بالحياة. لو كان الوضع معكوساً لما شعر زوجي بالإهانة التي تعرضتُ لها من قبل المجتمع.

الأرملة لا حق لها بالتبرج أو ارتداء الألوان البهيجة، أو الدعوة إلى عشاء أو حفلة شاي، أو زيارة نادٍ أو جمعية. إنها من المحرّمات، عليها أن تُدفَن في عقر دارها و تعيش في عزلة طوال حياتها.

Twitter: @ketab_n

لم أكن أُدعى إلى حفل خطوبة أو عرس حتى من قبل أقرب الناس إليّ، فقد أخفوا و كتموا أفراحهم عني، التي تناهت إلى مسمعي أحيانا بالصدفة. استغربت و تألمت من ذلك السلوك، بل انزعجت من قلة اللياقة و المجاملة التي لم يتركوا لي حتى حق الخيار في الرفض! و لكن هذا ما اعتادوا عليه في حياتهم التقليدية القاسية و ما أملاه عليهم العُرف الاجتماعي.

سمح العرف الاجتماعي لي بحضور المآتم و سماع البكاء و النحيب اللذين كنت أفضل أن أكون بعيدة عنهما، و لكنهما حرماني من سماع ضحكات الناس و أفراحهم.

المجتمع التقليدي قاسٍ على المرأة، و لا يدع الانغلاق الاجتماعي لها المجال في أن تخرج من الركود الذي تعاني منه. المرأة تعوزها الجرأة الاجتماعية، فهي لم تتحرر عندما ارتدت آخر تقليعات المودة، و سرّحت شعرها بتسريحة «فيدال ساسون» و قادت سيارتها الخاصة، فالعقلية المهيمنة لا تزال عقلية المجتمع الزراعي الأبوي الذي يعود إلى آلاف السنين، و الثقافة الذكورية الأبوية هي المسيطرة على مجتمعنا.

انحصر حقي في حضور المآتم فقط، فذهبت إلى مآتم الأصدقاء و الأقارب، حيث يسود جو من الحزن و الكآبة، يرافقه البكاء و النحيب و اللطم أحياناً على الصدور في حلقات للندب. كانت تلك المآتم تتسم بالطابع الطبقي و الطائفي الذي ينتمي إليه الميت. فمأتم طبيب قُتل بحادث سيارة يختلف بأجواء حزنه عن مأتم رجل جاوز التسعين من العمر، و مأتم طائفة شيعية يختلف في جميع مظاهره عن مأتم طائفة سنية.

Twitter: @ketab_n

كان الجلوس على الأرض من المشاكل التي جابهتني في حضوري المآتم و سببت لي المتاعب و آلام الظهر المزمنة التي لم أستطع التغلب عليها. كنت أحاول في بعض الأحيان أن أتحرك ببطء و أغير بذلك الوضع الذي أجلس به لكي أتفادى بذلك الخَدَر الذي كان يسري في أصابع قدميّ.

كان في تلك المآتم نسوة لا يستطعن التوقف عن الكلام، أو الهمس في آذان بعضهن خلال قراءة القرآن، و يرتفع الهمس أحياناً و يصبح وشوشة، ثم ضجيجاً ممزوجاً بتقديم فناجين القهوة المُرة و أقداح الماء و علب السجائر، عندما يتوقف قارئ القرآن عن تلاوته.

أصبحت تلك المآتم مرهقة لي، فكنت أعود إلى الدار كئيبة، أستمع إلى مغنية الأوبرا ماريا كلاس، و أتخلص من أشباح الموتى التي هيمنت عليّ. كان صوتها كمهدّئ و مخدِّر لأعصابي المتعَبة، يُشعرني سماعه باسترخاء وراحة لامتناهيين.

صرت أتجنب زيارة المعارض الفنية التي كنت أُدعى إليها يوم الافتتاح، فأقف على بعد كاف لكي أتفادى جفاء بعض الناس و تجاهلهم إياي، كأنهم يخافون وباءً أنقله لهم إن ردّوا عليّ السلام. نظرت إليهم بازدراء، عندما كانوا أول الوافدين لزيارتنا بعد الإفراج المفاجئ عن رفعة.

اضطررت، صيفَ ذلك العام، إلى السفر إلى لبنان و إنكلترا. استغرب بعض أصدقائنا فكرة السفر و قال أحدهم مستهجناً: بلقيس تسافر؟ أجبته: نعم، سأسافر إلى بيروت لحضور مأتم والدي الذي توفي منذ فترة قصيرة. و لم أجرؤ على أن أذكر أمامه أنني سوف أسافر

Twitter: @ketab_n

لفحص طبي سنوي في لندن أيضاً و أتحدى بذلك قسوة المجتمع، لأن السفر مقترن دائماً بالمتعة و التسلية، و لا يخطر ببالهم أن للسفر جوانب أخرى، غير الترويح عن النفس.

انكويت بلوعة فراق أعز و أقرب شخص لي، و لكن المعاناة من المجتمع كانت أقسى و أصعب. كان يحزّ في نفسي أن أجد أناساً مثقفين و متعلمين يؤمنون بقيم التحرر و لكنهم يتصرفون بأسلوب المجتمع الأبوي و لا يختلفون في تفكيرهم و تطبيقهم التقاليد عن الإنسان الجاهل البسيط. تكمن هنا الصعوبة، فلا نزال نحتاج إلى أجيال لتحديث العقلية في مجتمعنا و إلغاء القيم السلفية - عُرف المجتمع و عاداته - التي هي أقوى بكثير من الآراء التحررية التي يؤمنون بها، لتحدي العرف القائم في المجتمع.

كنت أفكر دائماً و أتساءل: هل سيقضي رفعة طيلة حياته خلف القضبان الحديدية، و بين جدران السجن المعتمة؟ فلا أرى إلا طريقاً مسدوداً أمامي، فأشعر باليأس يدب في أعماقي و لا أرى شيئاً إلا الظلمة، و لكن يعود الأمل ثانية، عندما يُطلَق سراح سجناء صدر الحكم المؤبد عليهم، و لا يقضون أكثر من عام أو عامين من مدة الحكم. كنت أتأرجح دائماً بين أمواج الأمل و اليأس، و لكني حاربت الضعف كي لا يتسرب و يهيمن عليّ كما هيمن على بعض صديقاتي و معارفي.

اتجه البعض إلى الدعاء و الصلاة، و تعالت في صمت الليل و سكونه و ضجيج النهار و صخبه، صلوات و دعاء و ابتهال أولئك النسوة، لعلها تستجاب و يُفرَج عن أحبائهم و أولادهم. فلليأس رائحة نتنة عندما يخبو الأمل، و لا يستطيع الإنسان الاستمرار في الحياة

Twitter: @ketab_n

اليومية، بل يتمسك عندئذ بالغيبيات و يلجأ إلى السحر و الشعوذة و التعاويذ.

عجبت من تخاذل بعض صديقاتي و خاصة اللواتي لم يكنّ يؤمنّ بالسحر، فتخاذلن عندما هيمن الضعف و اليأس عليهن، و شعرن بتلاشي الأمل في إطلاق سراح أزواجهن و أشقائهن، فاتجهن نحو «خيرة» الفنجان المتحرك، حيث كن يجلسن حول طاولة عليها فنجان فارغ، يطلبن حضور الأرواح الميتة، و عندما يبدأ الفنجان بالحركة - حسبما كان يُخيَّل إليهن - يستطعن أن يقرأن من تلك الحركة المدة التي سيقضيها أزواجهن في السجن، أو كن في كثير من الأحيان ينظرن إلى المستقبل من خلال بقايا فنجان القهوة المقلوب.

لم يكتف البعض بـ«خيرة» الفنجان المتحرك أو بقايا فنجان القهوة، و إنما زرن معظم العرّافات المشهورات في بغداد، ليؤكدن لهن إطلاق سراح أزواجهن قريباً. و كلما تناهى إلى سمعهن أن هنالك عرّافة ذائعة الصيت، كن يذهبن لزيارتها لاستقراء خفايا مستقبل أزاوجهن من خلال قراءة الكف أو الوَدَع. أصبحت آمال أولئك النسوة معلقة بامرأة جاهلة لا تعي و لا تفهم ما تقول، تتنبأ بخفايا المستقبل و مصير الأعزاء! كن ينقلن تنبؤاتها كأنها حقيقة واقعة. و استشارت إحداهن أحد العرافين الباكستانيين عن مصير زوجها في السجن عندما كانت في لندن، و جلبت معها الشريط الذي سجله لها، و كانت تستمع إلى الشريط، و تعيده على أسماع صديقاتها و كأنها تخبرهن بآخر الاكتشافات العلمية!

عندما وُلدت لأخي إبراهيم بنت، سُميت «أمل» لشدة حبهم لرفعة، و اقترن اسم مولودتهم الجديدة مع أمل الإفراج السريع عنه.

Twitter: @ketab_n

ذهبنا لزيارته في السجن، ففرح رفعة بخبر المولودة الجديدة و هنأهم و شكرهم على هذه الالتفاتة الحميمة، ثم علق بقوله: «سوف لا يتم الإفراج عني بسبب هذه الغيبيات.»

كنت من بين القلة اللواتي لم تسرِ عليهن تلك العدوى، فقد نشأت منذ طفولتي لا أؤمن بالغيبيات، و كان لوالدي تأثير مباشر في ذلك. كانت بعض النساء اللواتي يزرن أم رفعة يقترحن عليها «أن أقرأ سورة معينة من سور القرآن ألف مرة.» كانت تجيبهن أم رفعة بيأس قائلة: «عيني، ما يأمنون بهل الشي.» و لكني تجنبت الخوض في تلك الأحاديث البعيدة عن تفكيري و تمسكت بسلاح الصمت، فالصمت أحيانا أقوى تعبيراً من الكلام.

* * *

مرّ عام على صدور الحكم المؤبد على رفعة في السجن، و عاد الربيع بعنفوانه ثانية إلى حديقة دارنا. تفتحت ورود الجوري و ملأ عبيرها جو الحديقة، و فاحت رائحة الياسمين المتسلق جدار دارنا بألوانه الوردية و البيضاء، و امتزجت بعبق ورد الجوري و «الشّبوي» الليلي.

كنت أقضي فترة الظهيرة مع البستاني حسن، أشرف على تنظيم الحديقة. مرّت في تلك الفترة، على العكس منا، حديقة دارنا في أجمل فترة من عمرها، فانتعش الثيل الأخضر إلى أخضر غامق اللون، و أصبحت الحديقة متناغمة بألوانها و عبيرها كتناغم قطعة موسيقية رائعة.

توقف مواء القطط الذي حرمني من النوم في شهر شباط، و كأنها شعرت بأنفاس الربيع و ما يحيطها من سحر و جمال. شاركتنا القطط

Twitter: @ketab_n

السائبة في الحديقة، فقد كانت حديقة دارنا مرتعاً لها، فولد عدد من القطط الصغيرة، بينها قطط مرقطة و مخططة، منها الجميلة و القبيحة. كان بين تلك القطط قط أعور، عاصر جميع القطط، و كانت القطط الجميلة تُسرق دائماً أو تعطى هدايا لأطفال الحي بعدما يفطمون عن أمهم. و تعود تلك القطط ثانية لتلد في العام القادم صغارها في الحديقة التي أصبحت ملجأً آمناً لها، تتغذى و تحمي صغارها من القنص و السرقة، فقد كان الطباخ جعفر يحب إطعام القطط السائبة، و ذكرني بأبي رفعة الذي كان يحب الحيوانات و خاصة القطط، التي كانت تلتف حول مائدته في الصيف عندما كان يتناول طعام العشاء، و تشاركه في طعامه. لم تكن تلك القطط تجرؤ على دخول الدار، إذ كانت أم رفعة لا تحب تربية الحيوانات بصورة عامة، و كانت تقف لها بالمرصاد إن تجرأت قطة من القطط بعبورها عتبة الدار.

كان رفعة كوالده يحب الحيوانات، و خاصة القطط، و لكني لم أشجعه على اقتنائها، لأنني لا أزال أعتقد أن الحيوانات تحتاج إلى اعتناء دائم خاص بها، و كنت أردد دائماً: إن كنت ترغب في تربية الحيوانات فعليك الاعتناء بها. و كان حينها يلوذ بالصمت!

أحببتُ، بالرغم من عدم ولعي بالحيوانات من القطط و الكلاب، القططَ الصغيرة الثلاث التي وُلدت ذلك العام، لسواد لونها الخالي من البقع، و زرقة عيونها الداكنة، فكنت أتفقدها أحياناً بصحبة الطباخ جعفر، الذي كان كريماً في إطعامها، فيجلب الحليب لصغارها و اللحم لها، و يعاملها كما تعامل المرضع بعد الولادة.

كانت الأم لا تترك صغارها إلا ما ندر. كانت تشعر بالخطر المحدق بها، تخاف القط «العتوي» الأعور، و الذكور الذين ملأوا

Twitter: @ketab_n

الحديقة بحثاً عن صغار القطط، فللحمها الطري طعم لذيذ و نكهة خاصة. كما عرف أطفال الحي بالقطط الجميلة الغريبة الألوان. فكانت الأم مطوقة من قبل ذكور القطط و أطفال الحي، تحارب على جبهتين، و لا تطمئن إلا لجعفر الذي يجلب لها طعامها.

بعد بضعة أسابيع علا مواء القطة، مواء مؤلم محزن. ذهبت إلى ملجئها، فوجدتها تنبش و تذري تراب الحديقة بمخالبها و تموء، كأنها تندب صغارها التي فقدتها فجأة. تألمت لمنظرها و حيرتها، و عجبت لتلك القسوة التي أحاطت مجتمعنا، و شملت حتى أطفال الحي!

عدت إلى داري كئيبة، فقد أثارت تلك الحادثة فيّ مشاعر كانت مكبوتة، و شعرت كالقطة التي كانت تستنجد لإعادة صغارها و لكن بلا جدوى!

* * *

حاولت بعد مرور أكثر من عام، أن أبعث بعريضة إلى السيد رئيس الجمهورية صدام حسين، أطلب بها مقابلته. فوافق مازن على تسليم العريضة.

ذهب يقظان إلى داره لتسليمه العريضة، و بدأ مازن قائلاً: «سأستلم العريضة و أسلمها بدوري إلى القصر، ربما تضيع لأنها ستكون بدون تسجيل. الأفضل أن تتركوا عريضة مماثلة لها، تُسجَّل في استعلامات القصر.» ثم أضاف: «أنا صراحة أخاف، و سيؤثر تقديم هذه العريضة في مركزي، و ستوضع علامة استفهام في ملفي! إذ كل من له علم بقضية رفعة، يعرف أنها قضية سياسية، تتعلق بتحسّن العلاقات مع إنكلترا. فمتى تتحسن هذه العلاقة، لا ندري، ربما سنة أو سنتين، عندئذ سيفرج عنه.» بان لي الخوف الذي يقبع في أعماق

Twitter: @ketab_n

تلافيف الدماغ و بين الضلوع و تحت العظام، يسري في الدم و يخترق مسامات الجسد، و الهواء الذي تستنشقه الرئتان، فيخدر الأعصاب و يشل الكيان. الخوف الذي تحول إلى رعب، يعيشه مازن ليل نهار، بسبب وظيفته! فتسليم عريضة في طلب مقابلة الرئيس، سيؤثر في وضعه في القصر. قررت ألا أبعث أية عريضة بواسطته.

* * *

كان نائب الرئيس صدام حسين، قد أصبح رئيساً للجمهورية، وأصبحت زيارته إلى المدارس و البيوت من مظاهر الحياة اليومية، و لطالما صفق الناس له تصفيقاً حاراً مبتهجين فرحين بتلك الزيارات، و اعتبروا زيارته إلى بيوتهم معجزة من المعجزات!

انتقلت زياراته المفاجئة إلى المدارس و شملت دُور الناس و مطابخهم، وفتح ثلاجاتهم و مجمداتهم. زيّن الناس غرف استقبالهم بصوره المؤطرة بأطر مزخرفة، مبتهلين له، لعله يسمع ابتهالهم و رجاءهم، فيزورهم بصحبة التلفزيون العراقي، الذي بث تلك الزيارات العفوية في ظاهرها، كمحض صدفة، على شاشة تلفزيون بغداد، و كجزء من نشرة الأخبار المسائية.

و لما ازدادت حوادث اعتقال الناس الاعتباطي من قبل السلطة، أصبحت زيارته أُمنية من الأماني، و سرت العدوى بين أهالي المعتقلين و المسجونين. و منهم من تحققت أمنيته بتلك الزيارة.

من الذين تحققت أمنيتهم عائلة أحد الوزراء السابقين، الذي صدر الحكم عليه بالسجن المؤبد، لأنه صرف كما قيل مبلغاً من المال في إحدى سفراته خارج العراق من حساب له في أحد البنوك خارج العراق، إذ لا يحق للعراقي فتح حساب خارج بلده.

Twitter: @ketab_n

لم يكن ذلك الوزير بالشخصية المحبوبة في العراق، سواءً عندما كان وزيراً أو بصورة عامة، و لكن الحكم المجحف بحقه، أدى إلى عطف الناس عليه. بعد أن قضى سنة من الحكم الصادر بحقه من محكمة الثورة، تم الإفراج عنه، و ذلك عندما زار الرئيس إحدى المدارس في حي المنصور، حيث استُقبل بالأناشيد و الهتافات من قبل طالبات المدرسة. و بعد انتهاء الزيارة، ركب سيارته، فرمت طالبة نفسها على نافذة السيارة، و بيدها باقة زهور، و عيناها مغرورقتان بالدموع. سألها الرئيس عن سبب بكائها؟

أجابته: إن والدي بالسجن.

قال لها: «من هو والدك؟!»

أجابت عن اسم والدها، قال لها: «هو مو خوش آدمي، و أذى البلد هواي، لكن لخاطرج راح أطلعه.» و بعد فترة قصيرة أطلق سراحه.

انتشرت هذه القصة بين الناس، و انتقلت إلى بيوت عائلات السجناء. أصبحت كل عائلة لها سجين في سجون العراق، تفكر بل تحلم بالطريقة التي يمكن بها الإفراج عن سجينها، و أخذت تلك العائلات تلقّن أولادها ما سيقولونه للرئيس، إن أتاح الحظ لهم تلك الزيارة. فقد أصبح المنقذ لهم من المصيبة التي أصابتهم. و وصلت العدوى إلى أم رفعة، و بدأت تلقّن أطفال نصير بترديدها أمامهم: «شتكولون للرئيس إذا زار مدرستكم؟» كانت مي ابنة نصير صغيرة آنذاك، لا تتجاوز السادسة من العمر، فتجيبها: «نريد عمي رفعة منك،» أما كامل فكان أكبر من شقيقته سناً، و كان مدركاً للوضع، فعندما سألته جدته، نكّس رأسه صامتاً.

Twitter: @ketab_n

لم يكن الإفراج عن ذلك الوزير بتلك العفوية الظاهرة للعيان، و إنما كانت منظمة مسبقاً من قبل شقيق زوجته الذي كان موظفاً في تشريفات القصر.

اتخذ العفو عن زهير الذي صدر الحكم المؤبد عليه مع رفعة، النهج نفسه، و هذه المرة كانت زيارة الرئيس إلى بيت زوجة زهير قد نظمها طارق العبد الله أحد أقربائهم، وأمين السر لمجلس قيادة الثورة.

حكت لي زوجته تفاصيل الزيارة. كان لها علم بالإفراج عن زوجها قبل أسبوع من زيارة الرئيس إليهم. فنظفت الدار تنظيفاً جيداً يليق باستقبال رئيس دولة! غسلت الستائر و كوتها و حضّرت «الكليجة» التي تُقدَّم في الأعياد و الأفراح عادة. و قد بث مساء ذلك اليوم التلفزيون العراقي الزيارة إلى دار زوجة زهير كجزء من نشرة الأخبار المسائية و كأنها زيارة عفوية.

* * *

أصبح أملنا أقوى من السابق في الإفراج عن رفعة عندما تقلد السيد نائب الرئيس صدام حسين رئاسة الجمهورية، فلم يكن حاقداً عليه كرئيس الجمهورية السابق أحمد حسن البكر الذي وقّع الحكم المؤبد بحقه.

كان يسألني رفعة في كل زيارة، «شنو آخر الأخبار،» و كنت في كثير من الأحيان أقص عليه الشائعات المنتشرة في البلد، فهي المصدر الوحيد الذي يستقي الناس معلوماتهم منها. فالشائعات لا تنضب، كالساقية التي لا تنضب من الماء، بل تمتلئ كلما اقتربت من الجفاف بماء الجداول الأخرى التي تغذيها.

Twitter: @ketab_n

كانت تربط المهندس بسّام أواصر صداقة بوزير الدفاع عدنان خير الله طلفاح، و قد تعرفت سهير إلى وزير الدفاع و زوجته بواسطة صهرها بسّام. سهير مهندسة معمارية كزوجها رعد الذي التقت به في المكتب الاستشاري العراقي قبل زواجها به. كانت من المهندسات اللواتي اعتمد عليهن رفعة في البحث، إذ كان في المكتب فريق يقوم بإعداد الأبحاث المتعلقة بالمشاريع، و كانت سهير رئيسة ذلك القسم للجَلَد الخاص الذي كانت تتحلى به. كانت متألمة لما حصل لرفعة، و حاولت هي و زوجها مساعدتنا، و اتبعت الطرق التي يمكن أن نتوصل بها إلى نتيجة ملموسة، فحصلت على موعد لزيارة زوجته.

ذهبت لزيارتهم بصحبة سهير و استقبلتنا أم علي زوجة عدنان طلفاح و إحدى بنات أحمد حسن البكر، رئيس الجمهورية السابق. جلسنا في قاعة كبيرة، كانت قبل بضعة أعوام قاعة استقبال ضيوف السفير البريطاني. و لكن عندما تسلم حزب البعث مقاليد الحكم، حُول حي كرادة مريم الذي من ضمنه القصر الجمهوري إلى حي بعثي، و استُملكت الدور في ذلك الحي، مما اضطر الناس الذين كانوا يقطنون فيه إلى الانتقال إلى أحياء أخرى، كما فعل السفير البريطاني الذي انتقل إلى حي المنصور، وأصبحت داره مسكناً لوزير الدفاع.

جلسنا في القاعة الكبيرة، المؤثثة بأثاث مقتبس عن الطُرُز الفرنسية لعصري لويس الخامس عشر و السادس عشر، و وقع نظري على حجم شاشة التلفزيون الكبيرة في زاوية من زوايا القاعة، التي يبلغ طولها و عرضها أكثر من متر تقريباً. لا أتذكر ما كان يعرض عليها من مناهج، و لكن امتزج صوت التلفزيون بالأحاديث التي دارت بيننا.

جلبت لنا الشاي معينة وهي خادمة فيليبينية، أنيقة المظهر، مرتدية

Twitter: @ketab_n

ملابس الخدمة الرسمية، مدربة على العمل بدقة و إتقان. قفز أمامي طفل صغير مع مربية أخرى من الفيليبين. التفتت أم علي نحوي قائلة: «كم أنا ممتنّة و مرتاحة من هؤلاء البنات، اللواتي يقمن بالتنظيف و الطبخ و الإشراف على المائدة، و أنا بحاجة إلى أكثر من خمس خادمات في مثل هذه الدار الواسعة!»

استغربت صِغَر سنها، فهي أم لأربعة أطفال و لم تتجاوز العشرين من العمر. فقد تزوجت بعد تخرجها من المدرسة المتوسطة مباشرة، و لم تحصل حتى على شهادة بكالوريا الثانوية.

كانت شقراء، ذات شعر طويل متدلٍّ على كتفيها، و بشرة بيضاء حليبية اللون، و عينين خضراوين واسعتين، وشفتين مكتنزتين بلون الحمرة القاني التي غطت أظافر يديها و قدميها. بعد نصف ساعة، جاء زوجها عدنان و سلم علينا، موجهاً الحديث إلي: «إن شاء الله كل شيء خير.» و هذه هي اللغة التي تُستعمل عادة عندما يقصد بها أن الأمور ربما تتغير قريباً إلى الأحسن.

أصرّت زوجته أم علي عندما قمنا لتوديعها، على تناول العشاء معها، فانتقلنا إلى غرفة الطعام. جذبت نظري أناقة المائدة و ترتيبها، كانت فتاتان تقومان بتقديم الصحون. أما الطعام، فقد شمل كل ما حُرمنا منه من أطعمة منذ أن أصبحت المؤسسات الحكومية تقوم باستيراد الأطعمة بدل التجار. حرمنا من الروبيان الكبير الحجم (القريدس) المستورد من الخليج الذي وُضع أمامي على المائدة، مطبوخاً بأنواع مختلفة، و الدجاج و الفاكهة المستوردة كالموز. فقد مرّ علينا زمن طويل نسينا حتى طعمه.

حُرم الناس من أبسط المواد الرئيسة في حياتهم اليومية، و أصبح

Twitter: @ketab_n

الحصول على المواد الغذائية اليومية من المشاكل الرئيسية في حياة المواطن العراقي. كانت العائلة في معظم الأحيان تتعاون في ما بينها للحصول على تلك المواد، و كان الأصدقاء و الأقارب أحياناً يجلبون لنا ما يستطيعون الحصول عليه قبل موعد الزيارة الرسمية لرفعة في السجن.

أصبح عدد كبير من النسوة اللواتي لا يعملن في الوظائف الحكومية، متفرغات للقيام بهذه المهمة صباحاً عندما تصل المواد الغذائية إلى الأسواق، فينتقلن من بقال إلى آخر و من سوق إلى سوق بحثاً عن السمك و الدجاج و البيض و الفاكهة. كن ينتظرن بصف طويل لمدة طويلة تتجاوز الساعة أو الساعتين في بعض الأحيان. أصبح الانتظار في الطابور شائعاً في بغداد، كطابور الانتظار على المواد الغذائية في الاتحاد السوفياتي و دول أوروبا الشرقية آنذاك. فقد استوردت السلطة نظام تأميم المواد الغذائية من تلك الدول. و أصبح المارة يقفون بدورهم في الطابور من غير السؤال عما سيوزَّع في ذلك الطابور. بعد شراء المواد، ينقسم الطابور إلى طابورين عند الدفع، أحدهما للنساء و الآخر للرجال، و لا أدري ما هي الحكمة في ذلك، فلماذا لا يقسّم الطابور قسمين منذ البداية حسب الجنس؟

كانت عدوية، حماة أمينة، من أولئك النسوة اللواتي كرّسن جهودهن اليومية للسوق و الحصول على المواد الغذائية اليومية للعائلة. جاءت ذات يوم مستبشرة مبتسمة، قائلة بكلام المنتصرة: حصلت على صندوقين من الدجاج، جلبت أحدهما لكم!

كانت مؤسسة الاستيراد، تستورد الدجاج من مناطق مختلفة في العالم، من البرازيل و لبنان و الصين. كان الدجاج المستورد تلك

Twitter: @ketab_n

المرة من الصين. و لكن لم تدم الفرحة طويلاً، فاضطررنا إلى رميه في كيس النفايات لطعمه الزنخ. فقد أُطعم غذاءً يحتوي على السمك. ملأت رائحته النتنة أجواء الشارع، و نفرت من أكله حتى الكلاب السائبة، و لم نتخلص من تلك الرائحة النتنة إلا بعد أسبوع عندما جُمعت النفايات بالسيارات الخاصة لنقلها.

عندما خرجنا من دار وزير الدفاع، وجدت في مدخل الدار طبق التمر الذي جلبناه معنا، و بجانبه حفنة من نوى التمر. و عندما جلسنا في السيارة التفت إليّ حسين قائلاً: «لقد أكل عدنان كمية كبيرة من طبق التمر، يبين عجبه هوايه.»

* * *

ظلت الأمور معلقة، بعد زيارتي إلى دار عدنان طلفاح، و مرت بضعة أشهر أخرى، عندما اقترحت سهير تقديم عريضة إلى رئيس الجمهورية بواسطة وزير الدفاع. فقد دعاها عدنان طلفاح مع زوجها رعد و زوج أختها بسّام إلى تناول الغداء في مزرعته، و أصبح المجال أسهل من السابق في فتح الموضوع أمام الرئيس بعد أن عفا عن زهير الذي حُكم عليه للأسباب نفسها التي حوكم من أجلها رفعة.

كان رعد حذراً عندما بدأ بالكلام عن رفعة أمام وزير الدفاع، و لكنه استمر في تقييم ما قام به رفعة من خدمة للبلد، كمعمار معروف و له شهرة واسعة في العالم، و خاصة العالم العربي. ثم تكلم عن الدهشة و الاستغراب اللذين قوبل بهما الحكم المؤبد على شخص بمنزلته في العالم العربي، حيث كان رعد آنذاك يعمل في الخليج.

كان رعد من بين المهندسين المعماريين الذين عملوا بتماس مباشر مع رفعة في المكتب الاستشاري العراقي، إذ كان ينوب عنه في

Twitter: @ketab_n

المفاوضات أثناء تقديم المشاريع للجهات المعنية، و خاصة خارج العراق.

أجابه عدنان: «شخص مثل رفعة و ابن عائلة و بهذه الخبرة و المقدرة، شلون يقوم بتخريب اقتصاد البلد؟» كان رعد يعلم جيداً أن قضية رفعة لا علاقة لها بتخريب اقتصاد البلد، و أن ما جرى لرفعة و سبارك ممثل شركة «ويمبي» هو قضية سياسية تتعلق برفض الحكومة البريطانية تسليم قاتل عبد الرزاق النايف رئيس وزراء سابق، في لندن. لم يشأ رعد أن يثيره، فقال له: «الآن، الوضع يختلف بعد أن عفا الرئيس عن أحد المحكومين في القضية نفسها، و أصبح من الممكن فتح الموضوع مع السيد الرئيس للنظر في قضيته.»

أجابه عدنان: «خلي زوجته تقدم عريضة، و أنا عندما أجد الفرصة المناسبة، و يكون الرئيس بوضع و مزاج جيدين، يمكنني أن أفاتحه بموضوع رفعة، لكن لا يمكن أن أعدكم بشيء، فإذا أجابني بـ«لا»، فلا أستطيع أن أفتح الموضوع معه ثانية. و لكن أتمنى أن يكون خيراً.»

كان الرئيس صدام حسين يكنّ المحبة و الاحترام لعدنان، و لا يرد له طلباً.

في اليوم التالي، عند غروب الشمس، كان عدنان بصحبة الرئيس يفطران معاً، و كان أول يوم من أيام رمضان عام ١٩٨٠، وعندما وجد الجو ملائماً لفتح الموضوع معه، تكلم عن موضوع الإفراج عن رفعة، خاصة بعد أن أفرج عن زهير في القضية نفسها، و سلّمه العريضة.

تجهم وجه الرئيس قائلاً: «يعني دفرنا باب برجلنا، و طلع ابنهم محكوم مؤبد، يعني صار قانون؟»

Twitter: @ketab_n

كنا نعرف جيداً أن القضية ليست بتلك السهولة و لم يدفر باباً، و إنما طارق العبد الله أحد أقرباء زهير في القصر، رتّب موضوع الزيارة.

قال له عدنان: «إن شخصاً بمستوى رفعة يمكن الاستفادة من خبرته و تجاربه في العمارة.»

مرت لحظات من الصمت، قال: «زين راح أطلّعه.»

أخبرنا بسّام تلك الليلة تلفونياً ما دار من حديث بين الرئيس و وزير الدفاع، و نقل لنا ما قاله عدنان له: «إن الرئيس وعد بالإفراج عن رفعة، و لكن لا أدري بالضبط متى؟ إذ لم أجرؤ على أن أسأله هذا السؤال. فربما يفرج عنه بعد يوم أو شهر أو سنة، لا أعرف.» ثم أضاف قائلاً: «عندما يعد الرئيس لا يخلف بوعده، و لا يتراجع، ويبقى بعد ذلك الوقت الذي يقرر الإفراج عنه.»

ذكّرتني هذه الحادثة بحادثة وزير خارجية الاتحاد السوفياتي مولوتوف، عندما أُلقيَ القبض على زوجته، و لم يجرؤ على أن يسأل ستالين عن مصيرها، بالرغم من أنه كان يلتقي به يومياً.

عشت ثانية جو القلق و الانتظار لفترة من الزمن، متوقعة في كل لحظة تحقيق المعجزة! و عودة رفعة إلى داره ثانية!

* * *

كنا نجلس في الأعياد مسمّرين بكراسينا، شاخصين بأعيننا أمام شاشة التلفزيون، نستمع إلى صوت المذيع المجلجل، يقرأ الإعفاءات و المراحم التي أسبغها الرئيس على السجناء. لقد أصبح الإعفاء عن السجناء قاعدة ننتظرها بفارغ الصبر في كل عيد. كنا مسمّرين بكراسينا

Twitter: @ketab_n

نسمع الإعفاءات عندما عفا الرئيس عن الأكراد و الماسونيين، و لكن توقف صوت المذيع فجأة و لم يذكر شيئاً عن سجناء التخريب الاقتصادي. و مرّ عيد و جاء آخر، و قرأت قائمة المراحم و الإعفاءات، و لكنها في كل مرة لم تشمل سجيننا! توقعنا هذه المرة، أن قائمة المراحم عن السجناء في عيد رمضان، ستشمل رفعة بعد أن كلمه وزير الدفاع! و لكن خابت آمالنا ثانية كما خابت في السابق، و وجدت نفسي أعيد بيتاً من قصيدة المتنبي:

عيدٌ بأية حالٍ عدتَ يا عيدُ
بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ

بلقيس شرارة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

داخل ظلمة «أبو غريب»

في ردهة الإعدام

كان استقبالنا من قبل حرس ردهة الإعدام جيداً جداً، ربما لأننا ضيوف لمدة ليلة واحدة فقط، أو ربما لأننا كنا مصنَّفين من نوع آخر. خُصصت لكل منا زنزانة، و يا له من «رفاه». الزنزانة كبيرة، أربعة أمتار طولاً ومتران و نصف المتر عرضاً، و فيها باب مصنوع من قضبان حديدية، مفتوح على الممر الرئيس للردهة، مع مرحاض شرقي خاص نظيف. كان هذا تحولاً من ظلمة المخابرات إلى «رفاهية» ردهة الإعدام. لا تحتوي الزنزانة على أكثر من بطانية واحدة، فكان عليّ أن أتعلم النوم و الاستلقاء بلا وسادة. هذا لا يهم ما دام هناك ماء للاستحمام و هدوء و حيز للحركة. غادر الحرس الردهة و أصبحت بلا رقابة.

جاء الحارس في المساء و قدم إلينا خيارة واحدة مع صمونة، و اعتذر منا، و قال إن وصولنا كان مفاجئاً و لذا لم يُهيَّأ لنا الطعام المناسب.

كنت في الطابق العلوي من الردهة، و كان محمد في زنزانة

Twitter: @ketab_n

الطابق الأسفل، في موقع يواجهني تقريباً. و ما إن استقررنا لفترة وجيزة، حتى أخذ يكلم نزيلاً آخر عن سبب وجوده في هذه الردهة. كان حوارهما بحرية و بصوت مرتفع، من دون الخوف من رقابة الحرس: كان النزيل الآخر محامياً عراقياً يعمل في إحدى المدن الإنكليزية، إما مانشستر أو برمنغهام، لم أعد أدري، و قد استقر هناك قبل أكثر من عشر سنوات، و كانت له علاقة ودية مع السلطة العراقية. تم استدعاؤه إلى بغداد قبل ثلاث سنوات و أُودع حال وصوله المطار في هذه الزنزانة، و لم يسمح له برؤية أحد. و قال إنه ليس عنده من الأقارب سوى خالة واحدة، زارته مرتين أو ثلاثاً. إنه هنا في انتظار طال أمده و لا يعرف سبب اعتقاله أو مدته، أو سبب إيداعه في زنزانة الإعدام. كان إلى جوار هذا العراقي شخص أسود اللون، و قد وضع على القضبان الحديدية التي تفصله عن الممر الوسطي، أقمشة ملونة و بطانيات، ليؤلف منها حاجزاً و خلوة لنفسه، ربما ليكون بعيداً عن الأحداث التي كانت تجري هناك.

إلى سجن الأحكام الخاصة:
داخل جدران «أبو غريب»، في ردهة استقبال النزلاء

طُلب منا في صباح اليوم التالي أن نتجمع قرب باب الردهة، فكُبلت أيدينا، كل اثنين معاً، فكنت أنا مع عدنان. لم يهمنا الأمر أنا و عدنان، و لكن انزعاج زهير كان واضحاً. و هكذا سرنا و نحن نقطع المسافة بين السجنين. كانت سفرة «ممتعة»، دامت عشر دقائق أو ربما ربع ساعة، كنا ننظر إلى السماء وإلى الشمس وإلى النباتات. لم يكن يهمنا إن كانت نباتات شوكية، فيكفي أن لونها أخضر. أخذنا نستمتع بحرية رؤية الفضاء و الوجود فيه. يمتد هذا الفضاء بين السجنين، فراغ

Twitter: @ketab_n

كبير يقطعه مبزل يعكس ماؤه زرقة السماء. تراكمت النباتات البرية حول جوانبه بالرغم من مائه المالح. سفرة ممتعة، و كل ما كان ينقصها، أو يعكرها، هو عدم وجود مصور فوتوغرافي ليصورنا و نحن مكبَّلون بالأغلال، و أنا لا أزال في نعلي المخابرات. و قد كانت أمنية لم تتحقق، كغيرها من الأمنيات، تصويري و أنا بلحيتي و في بيجامة المخابرات.

دخلنا إلى مدخل سجن الأحكام الخاصة، ثم اقتادنا الحرس إلى غرفة أحد جوانبها من القضبان الحديدية تطل على ممر الإدارة الواسع. كان وجودنا خلف تلك القضبان واضحاً بالنسبة إلى الموظفين و الحرس، و كنا في الوقت نفسه نشاهد حركاتهم من تلك الغرفة التي هي غرفة استقبال النزلاء من قبل إدارة السجن. أصبح تصنيفنا من الآن فصاعداً نزلاء، لسنا بمعتقلين أو سجناء، و إنما نزلاء. و اكتسبنا بهذا النوع من التصنيف أو المرتبة حقوقاً كثيرة، منها حق شراء البضائع. و كان أول ما اشتريته ماكينة حلاقة.

يوجد في تلك الزنزانة حمام، و هو عبارة عن جدار بارتفاع لا يزيد عن المتر و خلفه حنفية ماء، فأقدمنا على الاستحمام و الحلاقة واحداً بعد الآخر. و حلقت لحيتي التي لم تلمسها موسى الحلاقة منذ بضعة أشهر. كانت تتسم بشيب واضح، و للشيب وقاره و جماله. لا أدري لماذا استعجلت في حلقها، بعد أن أصبحت جزءاً مني، و قد رأيت وجهي باللحية في قطعة صغيرة من مرآة وُضعت ذلك اليوم في الحمام القريب من زنزانة رقم «٢٦»، فوجدت وجهي يشبه تماماً وجه جدي.

استقبلنا في هذه الزنزانة حمدان، و كان أول من تكلم معنا من بين النزلاء. يتمتع حمدان بشخصية مرموقة بين مختلف مراتب الناس

Twitter: @ketab_n

الموجودين في السجن من النزلاء و الحرس و الموظفين. فهو، و إن كان نزيلاً مثلنا، و لكن له وظائف متعددة في بيئة الأحكام الخاصة. فهو صاحب حانوت متجول، عنده بضائع تعود له، يبيعها لمختلف الناس الموجودين في السجن. و البضائع التي يزوّد بها أولئك الموجودين في السجن متنوعة، و حسب الطلب في كثير من الأحيان. أي إن لم تكن متوفرة، فهو يقوم بتوفيرها بعد الزيارة اللاحقة الرسمية للزوار عن طريق طلبها و تسلمها من عائلته التي تزوره، إذ تدخل هذه العائلة يوم الزيارة محمَّلة بالبضائع و الجميع يعلم أنها ليست لاستعمال حمدان الخاص و إنما لحانوته المتجول. كان لحمدان وظائف أخرى متعددة، منها أنه كان في وقت سابق «قرعنجي» أي منظف القاووش (الردهات) و غير ذلك. كان يتمتع باحترام الجميع لأن معاملته في البيع و الشراء مستقيمة. كان يبيع لكثير من النزلاء و غيرهم بالدَّين. و قد زودنا حمدان بأدوات الحلاقة، مع نعلين متساويي القياس.

كانت الليلة التي قضيناها هادئة و مريحة نسبياً، و ممتعة أيضاً لأننا التقينا ببعضنا كجماعة في محل واحد لأول مرة منذ سنوات، كما توفر حيز مريح للنوم لكل منا. انتهت علاقتي بزهير بانتهاء علاقتي مع المشروع و متابعتي له، و كان التقاؤنا في مناسبتين فقط. كنت ألتقي بمحمد أسبوعياً، للصداقة القديمة التي امتدت عدّة سنوات، بينما كانت علاقتي بعدنان عَرَضية. دخل بيتنا تلك الليلة المهندس محمود و اكتسب صفة فرد من الجماعة. و في تلك الليلة أخبرت جماعتي بتفاصيل ما دار من حديث بيني وبين حاكم التحقيق صادق سالم، و شاعت الغبطة و الفرح بين الجماعة.

تم استدعاؤنا في صباح اليوم التالي، الواحد تلو الآخر، إلى دائرة الباحث الاجتماعي، الذي سجل معلومات عنا، و عن نوع الحكم،

Twitter: @ketab_n

و لكن من طريقة أسئلته كان واضحاً لديه أننا مجرمون خطرون على الدولة! لم يؤد وظيفته كمرشد لنا للتبيؤ في معيش السجن، و لم نسمع عنه، أو نرى له أثراً بعد هذا في معيش نزلاء السجن. ثم تلتها مقابلة مع موظف الأمن، بعد أن طلبت مني الجماعة أن أنوب عنها. و لم يكن استقباله لي أكثر حماسة من الأول. طلبت منه أن يكون توزيع مواقعنا بقدر الإمكان في الزنزانة نفسها أو في زنزانات متقاربة، فامتعض من هذا الطلب، و لم يبين لي ما سيكون قراره، لأن قراراً مثل هذا يُعتبر في تفكير رجال الأمن مسألة أمنية. كان طلبي مهماً بالنسبة إلى جماعتنا. كنا قلقين في الخوض في هذه التجربة الجديدة، و لم يكن لنا تصور ما سيكون عليه وضعنا في السجن. كان تصورنا أنه إذا تم جمعنا في ردهة واحدة فسنتمكن من حماية بعضنا، أو منح كل منا للآخر دعماً معنوياً على الأقل، و التعرف إلى هذه التجربة كمجموعة و ليس كأفراد.

تم إخراجنا في ذلك الصباح من زنزانة الاستقبال إلى الممر الرئيسي للسجن، و اصطففنا بصف واحد، الواحد خلف الآخر. كنت الأول في الصف، و سمعنا من المارين و الواقفين قربنا، يؤشرون علينا و يهمسون بقولهم «جماعة الجادرجي.» و قادنا الحرس من الممر إلى إحدى الردهات، و كانت ردهة الأكراد.

في ردهة الأكراد

تشبه ردهة الأكراد كثيراً في معالمها ردهة «التسفير» التابعة للمخابرات. كانت مجاورة لها و في الجانب نفسه من الممر الرئيسي. عند وصولنا إليها، استقبلنا عبد الرزاق. وهو النزيل المسؤول عن هذه الردهة. قام بتوزيعنا في زنزانات متفرقة، بناءً على التعليمات الصادرة

Twitter: @ketab_n

من قبل الموظف الأمني. لا تزيد أبعاد هذه الزنزانات عن مترين عرضاً و ثلاثة أمتار طولاً، و هي مضيئة، و لكنها أصغر بكثير من زنزانات «التسفير».

تم استدعاؤنا، في اليوم الثاني أو الثالث من نزولنا في ردهة الأكراد، إلى مخازن السجن التي تزود النزلاء بالملابس الخاصة و هي بنية اللون. اختار كل منا سروالاً و قميصاً، و ذهبنا بعدها إلى الخياط الذي قام بإجراء بعض التعديلات عليها لجعلها تناسب أحجامنا. مع ذلك، بقي سروالي عريضاً جداً و قصيراً، فلا بد من أنه كان قد فُصّل لشخص بدين و قصير القامة.

تتألف ردهة الأكراد من طابقين، يربطهما سلم مع ممر مفتوح على وسط الردهة. يتألف وسط الردهة هذا من «هول» عرضه لا يقل عن خمسة أمتار. هذا مصدر التشابه مع ردهة «التسفير» فقط. فهناك اختلاف جوهري بين الردهتين، ففي الأولى سكون و صمت مفروضان على الكلام و الحركة. و تنحصر الحركة خارج الزنزانة في مواعيد محددة عند خروج المعتقلين منها في طريقهم إلى ثلاث دورات لغرض الاستحمام و تنظيف الملابس في آن واحد.

امتلأت في هذه الردهة الساحة الوسطية و الممرات و الطابق الأعلى بالنزلاء و بقدورهم و ملابسهم و راديواتهم و سجاداتهم و مدافئهم من نوع «علاء الدين»، التي يستعملها البعض صيفاً و شتاءً لغرض الطبخ، إضافة إلى صناديق بيضاء من مادة الـ«ستايربور» التي تُستعمل كمبردات لحفظ الطعام، و مواقد الغاز المفتوحة التي تكاد تكون في استعمال دائم للطبخ أثناء النهار، و تُستعمل كذلك لتهيئة الشاي بعد وجبات الطعام أو بين الوجبات و في مناسبة زيارة أحدهم إلى الآخر، فهي زيارات متواصلة، إذ ينتقل الفرد من زنزانة إلى أخرى

Twitter: @ketab_n

باستمرار، و هكذا يتجدد النشاط الاجتماعي في دورات متصلة لا تنتهي، و لذا لا تنطفىء هذه المواقد الغازية إلا نادراً. كنا كمستعمرة نمل في حركة دائمة.

الصناديق البيضاء اللون التي تملأ الحيز الكبير من الردهة، عبارة عن صناديق عازلة يُحفظ فيها الطعام، و تُملأ يومياً بقطع من الثلج، بعد تفريغها يومياً من الثلج الذائب. لذا، تسد هذه الصناديق حاجة رئيسية في المعيش داخل الردهة، فلولاها لتحدد طعام النزيل بما تقدمه إليه إدارة السجن، و هذا لا يعني تحديد نوع الطعام و تكراره فحسب، و بالتالي الملل منه، إنما أهم من ذلك بكثير هو انقطاع «النزيل» عن الصلة المعنوية و المادية عن عالمه الخارجي، مع العائلة و الأصدقاء، إضافة إلى التنويع الذي يحصل عليه عن طريق هذه التجهيزات التي ترد من الخارج. كما أنها تؤمن له ما كان يشتهيه في عالمه خارج جدران السجن.

يستنفد «نزلاء» الردهة الكثير من وقتهم و طاقاتهم في تهيئة طعام الوجبة. و في أوقات الفراغ، بين وجبة طعام و أخرى، يقدم البعض على حياكة النمنم، لغرض بيعه أو تقديمه هدايا، للتسلية و لقضاء الوقت. و يكون الكثير منهم في حالة نشاط من زيارة الواحد إلى الآخر، أو طلب بعض المواد، أو نقل آخر خبر من الإشاعات حول المفاوضات بين الجانب الكردي و الحكومة. و هذه مفاوضات إن نجحت فسيتحقق معها عفو عام بالنسبة إلى هؤلاء المسجونين الأكراد. تمتزج أصوات هذه الحركات و عمليات الطبخ و الزيارات و الحياكة و إيصال الإشاعات و تداولها مع أصوات الراديوهات. هناك في الردهة دائماً ما لا يقل عن أربعة أو خمسة راديوهات، و هي تذيع باستمرار الأخبار و الغناء بلغات متعددة و أغانٍ متنوعة.

Twitter: @ketab_n

استقبلنا الأكراد بكل ترحاب و تعاطف، و عرضوا علينا كل المساعدة، و أطعمونا من طعامهم.

إن ما يلاحظه الزائر أو النزيل الجديد، في الوهلة الأولى، لهذه الردهة بين الأكراد، هو الجهد الكثير الذي يُستنفد لتهيئة الطعام، فكل وجبة تكون مقلية بزيت حيواني، و مع كل وجبة يهيَّأ الأرز، و بعض اللحم. و ما إن تنتهي وجبة الطعام حتى يتقدم الفرد الذي قام بعملية الطهو فيرمي في برميل النفايات ما تبقَّى منها، و أحياناً تكون كمية كبيرة لا تقل عن ثلث الكمية التي تم طبخها أصلاً، إن لم تكن نصف الكمية. لا يعترض أحد على هذا التبذير، في المادة و الطاقة، و ربما لم يلحظه أحد، و قد أصبحت هذه سلوكيات مناسبة و مألوفة للمعتقل الكردي الذي أصبح بمعزل عن الخدمات التي كانت تهيئها له العائلة، فأخذت تُعتبر هذه السلوكيات عَرَضية مؤقتة، و إن دامت عدة سنوات. فإن قام نزيل ما و قدم إلى نزيل آخر صحناً من الطعام تكون الكمية المقدمة أكثر بكثير من حاجة اكتفاء ذلك المعتقل، مما يؤدي أحياناً إلى ترك نصف الكمية و بالتالي رميها في برميل النفايات. كان هذا النهج كأنه تقليد يتعين الالتزام به لبيان كرم المضيف و سخائه حتى إن كان بمفرده. و هناك دائماً احتمال مرور صديق أثناء تناول هذا وجبة طعامه، فيعرض عليه مشاركته، بلا موعد سابق أو تهيئة سابقة لكمية الطعام، و لذا، يتعين أن تكون كمية الطعام كافية لتؤمن مفاجئات محتملة لمثل هذه الضيافات. يؤلف تحضير الطعام، إضافة إلى هذا، في كثير من الحالات، فرصة لتجمع الأصدقاء، و الاشتراك في العمل و التحضير، و تكون النتيجة وليمة تحضرها مجموعة تتألف من ثلاثة أشخاص أو أكثر، و قد يزيد عدد العاملين و الزوار إلى ستة أو سبعة. فتجلس المجموعة في حلقة دائرية، تتوسطها الصحون المتنوعة، و هذه

Twitter: @ketab_n

ليست مناسبة طارئة و إنما هي ممارسة يومية. و غالباً ما تؤلف هذه المجموعة من أفراد مؤاكلين، أي رفقاء اتفقوا على الأكل بالاشتراك، بما اصطُلح عليه في السجن بـ«سفرداش». لا يعترض أحد على سلوكية التبذير، في حين أن غالبية عائلات الأكراد «النزلاء» ينتمون إلى أسر غير ميسورة، فتتحمل هذه الأسر الكثير من التكاليف لتتمكن من تزويد أفرادها في السجن بالمؤونة المطلوبة. ليست المسألة فقط في تكاليف تأمين هذه المؤونة، بل كذلك الجهد الهائل في الحصول على المواد بسبب شحة المواد المتوفرة في الأسواق، من الخضراوات و اللحوم و الفواكه، مما يجعل جمعها و تزويدها لـ«النزيل» عملية شاقة و مرهقة و مهدرة لأوقات و طاقات العائلة و الأصدقاء. لم تكن هذه السلوكية مألوفة فقط، و لا اعتراض عليها، و إنما مقبولة بحيث تغييرها أو تعديلها أو تنويعها غير مقبول.

عندما لاحظوا أن وجبات الطعام التي كانت تهيًأ لي في البيت تتألف من طبق واحد لكل وجبة، موضوعة في صحن من مادة الألمنيوم، و فيها كمية كافية لفرد واحد لا أكثر، أصبح ذلك موضع تعجب و تساؤل. مع ذلك، لم يكن التعبير عنها باستياء واضح، و إنما بنظرات ضمنية حينما كنت أفتح الصحن المعين و المتضمن الكمية المناسبة لتلك الوجبة المعينة.

إن الأكراد بطبيعتهم، أناس مؤدبون و مجاملون، و قد جعلوا إقامتنا معهم مريحة جداً و ممتعة، لما أظهروه لنا من عطف و تعاطف لجماعتنا، سواءً كانت سلوكياتنا غريبة عنهم أو مشابهة لهم.

زيارة الوالدة و بلقيس

بينما كنا في طور التكيّف مع متطلبات المعيش الجديد، تمّت

Twitter: @ketab_n

مناداتي إلى الإدارة، و عند وصولي هناك شاهدت في غرفة المدير والدتي و بلقيس في انتظاري. كان هذا بعد أن حصلتا على موافقة خاصة لزيارة سجين خارج مواعيد المواجهات الرسمية.

فرحتُ كثيراً بهما، و لكني تمنيت ألاّ ترياني في تلك الحالة من الضعف الجسدي، فقد أصبح جلدي أصفر اللون أملس، من قلة تعرّضه لأشعة الشمس و الجوع و التجويع. كان السروال الذي ارتديه يمكن أن يضم اثنين في حجمي، و قد لففته حول بطني بطيتين، و شددته بقطعة قماش، فلم يكن لديّ حزام، كما فقدت الحذاء. و لكني في هذه الحالة كنت ألبس نعلين بحجم متساوٍ و فردتين متساويتين في القياس و الشكل، كنت اشتريتهما من حمدان في اليوم الأول، و هذا ما يمكن أن يقلل الصدمة بالنسبة إلى الوالدة و بلقيس. سالت دموع الوالدة. كان معنا في الغرفة موظف رقيب يمثل إدارة السجون. تكلمنا قليلاً. قلت لهم إنني عملت على تخفيف وزني، و كان جوابهما لي نظرة حزينة، بينما استمر سيل دموع الوالدة. في لقاء مثل هذا لم يكن لدينا الكثير لما نقول، أو ما فائدة القول! حتى لو لم يكن معنا من يراقب كل كلمة، و كل حركة على شفاهنا أو عيوننا. هنا لا حقوق للفرد، لا للنزيل و لا للزائر، هنا كلنا مجرمون. لم يمض على المقابلة أكثر من خمس دقائق حتى أعلن الرقيب أن المدة انتهت، فغادرت الغرفة و غادرت والدتي و بلقيس. واضح أنهما كانتا مندهشتين، و لم تصدقا أن الذي تكلموا معه، و خاطبوه، و كان جالساً بالقرب منهم، هو رفعة نفسه الذي كان معهم قبل نحو ستة أشهر! مع ذلك طمأنت الوالدة و بلقيس إلى أن صحتي جيدة بالرغم من مظهري الخارجي الذي لا يدل على ذلك، و هذا هو الواقع. نعم لقد تحسنت صحتي كثيراً. فحينما كنا في ردهة «التسفير» كان الطعام

Twitter: @ketab_n

جيداً و مغذياً و كافياً، و عند نزولنا في ردهة الأكراد، دُعينا إلى ولائم متعددة، و استرجعت بهذا الكثير من وزني الذي فقدته في ظلمة المخابرات. و في وقت لاحق، بعد زيارة الوالدة و بلقيس ذهبت إلى المستشفى بناءً على طلبي، و هناك سنحت لي الفرصة لقياس وزني، فوجدته اثنين و أربعين كيلوغراماً، بينما كان وزني الاعتيادي قبل ذلك يتراوح بين الاثنين و ستين إلى أربعة و ستين، أي فقدت أكثر من عشرين كيلوغراماً من وزني بالرغم من أنني تناولت طعاماً جيداً و مغذياً و كافياً، مع راحة بدنية، لمدة تقارب الأسابيع الستة.

المعيش في الردهة الكردية

في موعد الزيارة الرسمية الأولى، زارتني الوالدة و بلقيس و معهم صندوق مليء بمعلبات لحوم متنوعة و بالفواكه و غيرها من المأكولات و الشكولاته، كما كان معها قاموس المورد و بعض الكتب التي طلبتها، و أوراق كتابة و أقلام متعددة، و بعض الملابس بما في ذلك ملابس خاصة بالتمارين الرياضية. كانت هذه تلبية لقائمة كنت أرسلتها لهم بواسطة المهندس محمود حيث حصلت زوجته على زيارة خاصة له قبل أن تحظى عائلتي بمثل هذه الموافقة.

كان أول ما أقدمت عليه حينما توفر لي الورق و القلم هو رسم ذلك المخطط للحركة الانسيابية لنظرية جدلية العمارة التي كنت أمارس بناءها في ذهني، و قمت بتعديلها و الإضافة عليها حينما كنت في زنزانة رقم «٢٦» في المخابرات. و لا أزال أحفظ تفاصيله في ذهني.

زارني الكثير من النزلاء الأكراد و زرت بعضهم بالمقابل. كان بيننا منذ البدء تعاطف صميمي، لا لأننا نزلاء في المكان نفسه، و لكن لأن بعضهم مرّ بحالات مشابهة من الظلم التي تعرضنا له. لكل منا

Twitter: @ketab_n

قصة تعيش في ذاكرته و في تقاسيم وجهه، و في كل جملة ينطق بها، سواءً كان الكلام جِدياً أو مزاحاً أو تحدياً للسلطة و مصحوباً بشتمها.

كان عدنان من بين جماعتنا في تجوال مستمر يستقصي الأخبار و يؤسس علاقات و صداقات جديدة. يقوم عدنان بهذه العلاقات و الاتصالات لتقصي الأخبار التي تتعلق بالإفراج عنا خاصة! هذا مع أننا كنا في الأسبوع الأول في السجن! هذا بالإضافة إلى أن طبيعته و مزاجه يميلان نحو التعرف إلى الناس و الحديث معهم و تأسيس علاقات ودية. تعرّف عدنان إلى شخصية عبد الرزاق. و عبد الرزاق، نزيل مثلنا، رجل مخابرات، و من القوات الخاصة، المغاوير، و كان مكلفاً بأعمال تخريبية في بلدان أجنبية، و بعدها تم إلقاء القبض عليه و اعتقاله من قبل السلطات العراقية ربما لقيامه بعمل مخالف للتعليمات، فوجد نفسه في سجن «أبو غريب» للأحكام الخاصة، أي الأحكام السياسية و الخونة و مخربي الوطن بعُرف السلطة في حكم العراق.

عُين عبد الرزاق من قبل الإدارة مسؤولاً عن إدارة شؤون الردهة، و متطلبات نزلائها. و له صفة أخرى، فهو ماهر في الأعمال الكهربائية و الميكانيكية، لذا خصصت له غرفة هي ورشة عمل، مما أهّله لأن يتنقل بين مختلف الردهات، و يكون على اتصال دائم مع إدارة السجن، و قد أصبح «واحداً منهم» كما كان يقال عنه. لقد أصبح عبد الرزاق، مع هذه المعلومات، بالنسبة إلى عدنان، واسطة اتصال جيدة مع الإدارة، و لذا يمكن استقصاء المعلومات منه، أي حركة الملفات، باعتبار أن حاكم التحقيق قال لي «الذي أدخلك، سيطلعك» أي أن القضية أصبحت بالنسبة إلى عدنان قد لا تتجاوز أسابيع و إن طالت فهي لا يتجاوز أكثر من شهر. بينما كان عدنان يستقصي هذه

Twitter: @ketab_n

المعلومات و ينظمها و يحللها، إذا بخبر من المهندس محمود يقول: إن هنالك إشاعة خارج السجن تقول بأن قضيته و قضيتنا ستُحسم عن قريب، و من هنا أصبح الاتصال بعبد الرزاق مسألة في غاية الأهمية بالنسبة إلى عدنان و لجماعتنا الآخرين. أخذ عدنان، في هذا الجو المشحون بإشاعات الإفراج عنا، و أحيانا المتضاربة و المتناقضة، يستقصي أخبار سبارك الذي كان مسجوناً في ردهة مقابل ردهتنا، فيرصد حركاته، و موقف الإدارة منه، و غير ذلك من الأخبار التي يقدم عدنان على تركيبها و استنباط استنتاجات منها مع التنبؤ بموعد صدور المرسوم الجمهوري. و من بين هذه المعلومات التي كان يتابعها يومياً، وجود أو عدم وجود سبارك. فإن كان موجوداً في مسطر الصباح، فهذا يعني أن القضية لم تُحسَم بعد. و لذا كان عدنان يقوم بجولة صباحية و يعلمنا بأن هناك من شاهد سبارك ذلك الصباح، أو أن أخبار وجوده أو عدم وجوده لم تزل غير واضحة، و في انتظار أخبار جديدة من المتوقع الحصول عليها عما قريب. كان جزء كبير من جهد عدنان اليومي ينصبّ على متابعة أخبار سبارك عن طريق عبد الرزاق، و المنظفين و العاملين في تكسير الثلج و توزيعه، و غيرهم من النزلاء العاملين في الردهات. كنت أعلم بقدرة عدنان على المتابعة، و لكن ليس بهذه الشدة و النشاط من المثابرة. و في الزيارة الرسمية الأولى مع نصير، أو ربما الثانية، أعلمته بالإشاعات التي وردت عن طريق المهندس محمود، فبين لي أن بقاءنا سيكون سنتين أو أكثر، فعلينا أن نهيّئ أنفسنا لهذا الانتظار.

الرياضة

بعد أن تسلمت الملابس النظيفة، ارتديت في مساء اليوم نفسه، ملابس الرياضة و باشرت أهرول في الساحة المجاورة للزنزانة،

Twitter: @ketab_n

و أقدمت بعدها على بعض التمارين. كان الأكراد مندهشين من هذا التصرف، فكيف لشخص معروف عنه أنه معماري جيد، و نجل شخصية مرموقة ككامل الجادرجي، أن يُقْدم على تمارين رياضية، لا بل على الهرولة أمام حشد من النزلاء! أصبحت هذه مسألة محيِّرة.

هكذا، كانت النظرة في اليوم الأول، و ربما كانت هذه هي النظرة العامة لي من مختلف نزلاء الردهة. ارتديت حينما قمت بالركض و التمارين الرياضية الأخرى سروالاً قصيراً أبيض اللون، في حين كان غالبية الأكراد يرتدون سراويل داخلية طويلة تغطي سيقانهم و تصل أحياناً إلى القدم بالرغم من شدة الحر. إن ظهور جزء من البدن، أمر غير مستحب إن لم يكن مكروهاً. و لذا، فان تعرية جزء من البدن لا يجوز إلا عند الوضوء قبل الصلاة. فالرياضة، بهذا المفهوم، بنظر الكبار الوقورين، سلوك غير مقبول و غير مناسب، و بلغتهم المعتادة «عيب». فاللعب و الرياضة، بل المشي السريع لا يليق بشخصيات مرموقة، فكيف إذا أقدم أحدنا على ارتداء سروال قصير يعري به ساقه، و يقدم على الركض أمام الجمهور!

في مساء اليوم اللاحق رافقني لرياضة الركض المهندس محمود فتحول المشهد من حالة غريبة لفرد معين، و نزوة خاصة، إلى فردين، أي أصبحت الرياضة ظاهرة غريبة يتعين الاستفسار عنها. جاءني في ذلك المساء اثنان من الأكراد يستفسران، و بكل لياقة و أدب و احترام، لماذا نقدم على الركض و على هذه الألعاب الرياضية. فبينتُ لهما فوائدها لعضلات البدن بما في ذلك عضلة القلب، و أن هناك علاقة مباشرة بين الرياضة و التخلص من بعض الشحوم المضرة في البدن و تصريفها، إضافة إلى تحريك الدورة الدموية و التي تحصل بتحريكها مختلف عضلات البدن على المزيد من الأوكسجين، و هذا مفيد

Twitter: @ketab_n

للعضلات، كما هو مفيد لحركة الدم في الدماغ. و حينما كنت أبين لهم هذه المعلومات كنت مدركاً أن على الشخص الوقور، في عرفهم، آلا يتحرك إلا قليلاً، و يقوم الآخرون بخدمته. و الأمر كذلك بالنسبة إلى رب العائلة المحترم، فعليه ألا يقوم بأعمال منزلية، حتى تلك التي تشمل احتياجاته لذاته كعمل الشاي و تهيئة شرب الماء و ترتيب فراشه التي تقوم بها النساء و القاصرون ضمن العائلة أو الخدم. فالإنسان المرموق في هذه العقلية الثقافية للمجتمع المتصفة بالسلطوية الأبوية، لا يتحرك، و يتمثل هذا خاصة في رجال الدين و السياسة و رؤساء العشائر، فتكون حركاتهم كما لو كان يحمل كل منهم أثقالاً مما تجعل حركته معوّقة بسبب وزنها و أهميتها. إن قيام الأكراد بتحضير الشاي و طهو الطعام اليومي في السجن، هو حالة طارئة، ولذا يمكن تبريرها، و لكن كيف يمكن تبرير الركض في سروال قصير؟

و هكذا، بعد حديث طويل عن فوائد الهرولة و التمارين الرياضية، نظر أحدهما نحو الآخر، و بعد برهة قال لي: «هل عندك مانع من أن نرافقك غداً؟» فأجبتهم بالموافقة و الترحاب. في اليوم اللاحق أصبحنا في الساحة المكشوفة أربعة أشخاص مهرولين. و في الأيام التي تلتها زاد العدد، و أخذت مجموعات أخرى تقوم بأنواع أخرى من الرياضة التي تناسبها، كل على حدة و في المواعيد التي أخذوا يخصصونها لهذه الظاهرة الجديدة!

المفاجآت في الردهة

تتعرض الردهة لمفاجآت كثيرة، أكثرها إزعاجاً هو التفتيش المفاجئ، الذي قد يحدث في أي وقت من النهار أو الليل. و الهدف منه هو التفتيش عن الممنوعات: كالسكاكين، أو أي نوع من الأدوات

Twitter: @ketab_n

الجارحة، أو صمغ الـ«سيكوتين»، الذي يُستعمل أحيانا كمادة مخدرة. إن مادة الـ«سيكوتين» مهمة بالنسبة إلى النزلاء لأنها المادة الصمغية التي تُستعمل لصناعة علب و رفوف تُلصَق على جدران الزنزانات كحاويات لبعض حوائجهم. يبدأ التفتيش بصرخة من قِبَل أحد الحرس في باب الردهة، و يدخل في الحال مفتش مع مجموعة من الحرس التي تقوم في الحال بتفتيش زنزانة بعد أخرى. يتم هذا بنبش الموجودات وقلبها رأساً على عقب، بينما يتجمع النزلاء في زاوية من الردهة، أو خارج زنزانتهم، مقهورين و مسلوبي الإرادة أمام هذا التدخل المفاجئ في روتينيات حياتهم اليومية، كما يشكل حضور السلطة في لباسها العسكري إرهاباً دورياً إضافياً، يمثل سلطوية إدارة السجن أو السلطة العامة.

كنت في أشد الحاجة إلى آلتين جارحتين: أُولاهما كسّارة الثلج. لاحظت عند وصولنا الردهة و استيطاننا فيها، منذ اليوم الأول وجود مشكلة تقطيع قالب الثلج و توزيعه.

يؤلف الثلج حاجة رئيسية لأنه الواسطة الوحيدة التي تؤمن الحفاظ على المأكولات و الفواكه التي ترد من الأهل و الأصدقاء أثناء الزيارات الرسمية. و لذا، يتطلب حفظها في صناديق عازلة توضع فيها قطع من الثلج، يتم تنظيفها من بقايا الثلج الذائب يومياً. فيضيف النزيل قطعاً جديدة من الثلج، و تتكرر هذه العملية يومياً في وقت مبكر من الصباح. و لذا، لا بد لكل نزيل من أن يشتري يومياً ربع قالب أو أكثر من الثلج. و يقوم الموزعون، و هم نزلاء، برمي قالب الثلج على الأرض و تكسيره، مما يؤدي في كثير من الحالات إلى تكسيره إلى قطع صغيرة غير منتظمة الشكل، و يبعثر البعض منها، و تصبح أقل فائدة للسجين الذي يكون بانتظار استلام حصته و شرائها. لذلك،

Twitter: @ketab_n

ترافق عملية توزيع الثلج الشتائم للسجين الذي يقوم بعملية تكسير قوالب الثلج و توزيعه و بيعه. و قد يتطور أحياناً إلى معركة و سباب ينتهيان بالضرب. و الشخص الموزع عادة متبرع بهذا العمل الشاق الذي يتعرض فيه للإهانة و اللوم. و نادراً ما يكون السجين الآخر، المستلم، راضياً بالحصة التي يستلمها، حتى و إن كانت كميتها صحيحة، أي ربع قالب، إذ يكون شكلها مشوهاً، و أحيانا قطعها متناثرة، و لذا لا يعتبر النزلاء التقسيم عادلاً بسبب طريقة تكسير قالب الثلج. لا شك في أن هناك لدى بعض الموزعين مهارة جيدة في طريقة كسر القالب إلى أربعة أقسام متساوية عند رميها على الأرض. و لكن غالبا ما يحصل تكسيرها إلى قطع صغيرة غير منتظمة الشكل، فيغضب النزلاء عند انتظار حصتهم، و تنهال الشتائم على المتبرعين بهذا العمل.

طلبت من بلقيس أن تجلب لي معها كسارة ثلج حلاً لهذه المشكلة، لا بالنسبة إلي فحسب، لأن تسلم قطعة الربع قالب هي نفسها تتطلب تكسيراً منتظماً لوضعها بصيغ منتظمة في الصندوق، و إنما بالنسبة إلى عملية تكسير قالب الثلج عموماً حينما يصل من الموزع، و تكسيره إلى أربعة أقسام متساوية. و كسارة الثلج عبارة عن منخاز مثبت بمسكة خشبية، يمكن بواسطتها تكسير الثلج بخطوط مستقيمة. فيؤمن توزيع حصص متساوية بين النزلاء. تطلّب جلب الكسّارة عناءً من بلقيس إذ إنها تعتبر آلة جارحة في السجن. و أصبح في حوزتي كسّارة للثلج، و في متناول نزلاء الردهة. و إن تم مصادرتها، بين حين و آخر، خلال تلك المفاجآت التفتيشية، كان يتم تزويدنا بأخرى. و قد أمّنت بهذه الطريقة الردهة توزيع حصص الثلج بلا معارك و شتائم.

كانت الأداة الأخرى التي أحتاج إليها هي سكينة مسننة، أقص

Twitter: @ketab_n

بواسطتها البرتقال بطريقة أزيل بها القشر و من ثم أقطعها قطعاً متوازية، لا يمكن تحقيقها من دون سكينة حادة و مسننة. و عند التفتيش الأول وُجدت هذه السكينة من قبل المفتشين و تمت مصادرتها. فطلبت من عدنان التفاوض مع عبد الرزاق لحل المشكلة: الكسّارة و السكينة.

كان عبد الرزاق نزيلاً مثلنا، و له غرفة خاصة في الردهة نفسها، و هو رجل طيب، لا يميل إلى إيذاء الآخرين، بل يحاول مساعدتهم بقدر الإمكان، و هو مهذب غير طماع، و له خبرة بأعمال الميكانيك و الكهرباء، و إداري جيد. و لذا كُلف من قبل إدارة السجن بأن يكون مراقِباً على النزلاء، و خاصة في الردهة التي نسكنها، وهي ردهة الأكراد. توصل عدنان مع عبد الرزاق إلى حل معقول و سهل بكيفية تخليص كسّارة الثلج و السكينة من التفتيش المفاجئ، و هي أن أقوم أنا أو عدنان، أو أي منا أقرب إليهما، في أثناء التفتيش، برميها في غرفة عبد الرزاق غير المعرضة للتفتيش و ذلك من خلال القضبان الحديدية لباب غرفته. و هكذا، تمتعت الردهة بكسّارة ثلج دائمة، حتى و إن صودرت بين حين و آخر، و تمتعت أنا بسكينة مسننة لقطع البرتقال بالطريقة التي أتلذذ بقصها و بتقطيعها و بأكلها.

الكُتُب

كانت الزيارات الرسمية للسجناء أربع مرات في الشهر. و تجري في اليوم الخامس من الشهر و يوم العشرين منه كزيارات ثابتة، و تليها زيارات يوم الجمعة بعد كل يوم خامس و يوم عشرين. لذا فإن نظام الزيارات غير منتظم ضمن أيام الشهر، و يتم حسب الصدف، فإذا كان الخامس من الشهر يوم خميس، فتكون الزيارة الثانية في اليوم التالي، و هي الجمعة. عندئذٍ يمر أكثر من اثني عشر يوماً على الزيارة

Twitter: @ketab_n

الرسمية. أدى ذلك التعاقب غير المنتظم للزيارات إلى تراكم الكتب التي تجلبها لي بلقيس على أرضية الزنزانة. كان لا بدّ من حل لهذا الوضع. فنصحني أحد الذين أصبحوا من المعارف من الأكراد بأن أستخدم صناديق «الستايرابور» التي تُستعمل للثلج، و ذلك بقلبها لتصبح رفوفاً تحمل الكتب فوقها و يوضع الباقي منها في داخلها. و قد طلبت المزيد من هذه الصناديق، و رتبت بذلك مكتبة منتظمة.

مفاجأة الماء

كان عبد الرزاق يعلم بالأخبار قبل غيره دائماً. و ذات يوم، عندما كان مسرعاً يسير بخطوات منفرجة جانبياً إلى الخارج، و ذلك بسبب ضخامة جسمه، و بروز كرشه و قصر ساقيه، جاء ليبلّغ نزلاء الردهة بأن الماء سينقطع لمدة ثلاثة أيام، أو ربما أربعة، أو لمدة غير محدَّدة. لا أحد يدري! و لذا علينا أن نقوم بخزن كمية من الماء لمواجهة مدة انقطاعه. و قد أقدم على تنظيم حملة عسكرية فجنّد النزلاء و وزع عليهم الأدوار للقيام بواجبات تهيئة الصحون العميقة و الطسوت و جميع الأوعية المختلفة الأشكال التي يمكن أن يحفظ الماء فيها. ثم ذهبنا إلى مواقع حنفيات الماء و بدأنا بنقلها إلى طسوت وُضعت في جانب الردهة، فكنا أشبه بجيش في حالة حرب. كانت حركاتنا منظمة يشرف على تنظيمها عبد الرزاق، و هو ينتقل من مجموعة إلى أخرى، ينظم و يعطي التعليمات، من غير أن يفقد مزاجه، بالرغم من محاولة البعض عدم المساهمة في نقل الماء في عملية الطوارئ هذه. و كلما أسرع عبد الرزاق في خطواته، انفرجت ساقاه أكثر إلى الخارج، مما جعل منظرهما تأكيداً على استفحال الأزمة و أهميتها، و على قدرته التنظيمية خلال هذه المعمعة من التنظيم العسكري. كان عدنان خلال هذه

Twitter: @ketab_n

الإجراءات، يتجول و يستقصي الأخبار، عن سبب انقطاع الماء و مدّته، و هل هناك مشكلة في الدولة أو مؤامرة ضدها. أما زهير فكان عبوساً لا يتكلم، بعيداً عنا في مخيلته المغلقة، متحفظاً، و إن نطق بكلمة فهي عادة: «أكو شيء» (أي هناك شيء خطر أم مهم)، ثم يقول «معروفة» (أي كان يعلم مسبقاً بهذا الحديث) مع هزة خفيفة في الرأس تشير إلى معرفة يتفرد بها، و نحن نجهلها. أما محمد فكان ضجراً بسبب الضجيج و الفوضى و اصطفافنا مع الحشر، و انشغالنا في عمل لا يفيد قضيتنا، أو أساساً انشغالنا في أعمال نحن في غنى عنها. كما كان مستاءً من الفوضى التي كنا فيها، و المتمثلة في مختلف الموجودات القائمة في الردهة، من صناديق الثلج و طريقة تراكمها، و من مواقع مواقد غاز الطبخ و سلال الفواكه، و حاويات القاذورات. بالطبع، أكثر ما كان يزعجه و يهمه، و غالباً ما يشير إليه، هو وجودنا في السجن. فإن قلت له إن العراق يمرّ في فترة إرهاب، و إن وجودنا في السجن يخضع لمتطلبات سياسة الإرهاب، يزداد ضجراً مردداً: لماذا نكون نحن بالذات ضحايا هذا الإرهاب، و ليس غيرنا، «كلهم كلاب،» و ما علاقتنا بالأمر، و كم ستطول هذه المهزلة، و هل يعني هذا أننا سنقضي هنا في السجن خمس عشرة سنة أخرى! فيصرخ متضجراً «هاي شنــو» (ما هذه الحالة) مع مَدّة طويلة في نبرته. مكرراً «هاي شنـو، ضجت، ضجت» بوجه عبوس و هزة يده المتكررة.

يخضع النزلاء لتعداد «المسطر» في الصباح، قبل توزيع الشاي و الصمون و وجبة الحساء. و كلمة «المسطر» من أصل إنكليزي muster، و كان يستعملها جند الاحتلال الإنكليز، و تعني التجمع العسكري لغرض التعداد الرسمي. كانوا يصفّوننا خمسة خمسة، فيتقدم أحد الحرس للقيام بالعدّ و يتم بهذا تعداد النزلاء. ذات صباح، كان

Twitter: @ketab_n

محمد واقفاً بجانبي في «المسطر»، و ذلك بعد حوالى أسبوع أو أسبوعين من انتقالنا إلى ردهة الأكراد، و قال بغضب: هل سنصطف في «المسطر» يومياً لمدة خمس عشرة سنة؟ لا أعتقد أني سأتمكن من البقاء أكثر من أسبوع آخر. لماذا حدث هذا لنا، «هاي شنـو، رح أموت، ما أكدر أبقى هالمدة.» إلا أن «المسطر» بالنسبة إلى عدنان كان مناسبة مهمة، و فرصة للتحري عن آخر أخبار سبارك الإنكليزي: هل هو موجود في السجن أم أُطلق سراحه، لان إطلاق سراحه سيعني إطلاق سراحنا، فـ«المسطر» مناسبة أكيدة لمشاهدة وجوده أو عدم وجوده.

يعتقد الكثير من النزلاء، كما تعتقد إدارة السجن، أن اعتقال سبارك و سَجنه كانا بمثابة وضعه كرهينة من قبل الحكومة العراقية إلى حين قيام الحكومة البريطانية بالإفراج عن الشابين اللذين قاما باغتيال عبد الرزاق النايف في لندن. و عبد الرزاق النايف رجل عسكري و رئيس وزراء سابق في العراق، و هو الذي قام بالانقلاب العسكري مع الحزب القائم في الحكم، فانقلبوا عليه، و أُبعد من العراق ثم استقر في إنكلترا. ألقي القبض في لندن على هذين الشابين بعد الحادث، و حكم عليهما بالسجن. و انتشرت الشائعات عن أن هذا الاغتيال مدبَّر من قبل الحكومة العراقية، التي أخذت تطالب بالإفراج عنهما. و كان جواب مسز مارغريت ثاتشر، رئيسة الوزراء، بأن القضاء مستقل في إنكلترا. و أخذت الحكومة البريطانية تطالب بشدة بالإفراج عن سبارك، باعتباره رهينة سياسية و ليس مجرماً. و هنا تكمن أهمية إطلاق سراح سبارك بالنسبة إلينا.

لا يمضي يوم من غير أن يحصل عدنان على خبر بأن ملف سبارك قد تحرك. إن تحرك الملفات يعني أن الوقت حان للنظر فيها،

Twitter: @ketab_n

بأمر «فوقي»، كما لو كانت معاملة بيع عقار في إحدى الدوائر العقارية أو مراجعة دوائر الضريبة، أو كأنها بالنسبة إلى عدنان قضية تنتهي حسب تعاقب روتيني. كانت فكرة تحريك الملفات و النظر فيها مسيطرة ليس على تفكير عدنان وحده، بل على معظم نزلاء سجن الأحكام الخاصة، و نحن منهم. فالكل في دوامة: متى سيتحقق خروجهم، و المصطلح عليه بـ«الطلوع أو راح يطلع، أو سيطلع، أو ميطلع،» و غيرها من مرادفات الإفراج عن السجين. كنت أكرر في حديثي مع عدنان أن قضيتنا هي ليست معاملة روتينية تتطلب التعقيب، و إنما هي أساساً قرار من فرد واحد معين، وسيكون قراراً مفاجئاً.

* * *

قبل عودتي إلى العراق، وجدت في لندن جدارية من قماش رُسمت عليها صورة فوتوغرافية لغابة من الأشجار، جلبتها معي إلى بغداد. طلبت من بلقيس أن تجلبها لي، و تمكّنا بمساعدة بعض الأكراد الماهرين في الأعمال اليدوية المختلفة من لصقها على جدار الزنزانة التي كنت فيها. أخذت الجدارية كامل مساحة الجدار الخلفي، و أصبح مظهر الزنزانة كما لو كانت تطل على غابة جميلة. تغيرت حالتنا النفسية في الزنزانة، و تحول المعيش من ذلك مع جدار وسخ باهت رصاصي اللون، إلى نافذة تطل على أشجار حية، بألوان خضراء متنوعة، و نمط موحد و متسق، فأصبحت الزنزانة جميلة في تكوين مركباتها البصرية و تعبر عن تناغم متنوع، و في حالة متباينة تماماً عما هو موجود في الزنزانة و خارجها، و خاصة في الممر الرئيسي حيث يصعب التنقل فيه لكثرة الموجودات المتراكمة في كل مكان، و الفوضى اللامتناهية التي يتسم بها.

Twitter: @ketab_n

لا تُزوَّد الزنزانة بأي مشاجب لتعليق ملابسنا، أو لوضع بعض الحاجيات، فهذا ممنوع منعاً باتاً. و لذلك يقوم النزلاء، بتلبية هذه الحاجة الضرورية، بصنع مشاجب و رفوف من كارتون علب السجائر و الصابون و البيض و غيرها، و بابتكار أشكال متنوعة لها، و بلصقها بمادة «السيكوتين»، فيجعلون منها أداة خزن أو تعليق على الجدران، لتلبية هذه الحاجة بكفاءة عالية و عملية. و تكتسب جدران الزنزانة بهذه العملية صفة مؤهلة، أي أن هناك من يسكنها و له حاجات، و تؤمن له هذه الرفوف بعض الراحة و إن كانت مختصرة و مقتصرة على أدوات الحلاقة و غيرها من الأشياء الخفيفة الوزن. و مع ذلك، تكتسب الجدران بمجرد وجودها سمة إنسانية، فبدونها يصبح نزلاؤها كما لو كانوا نوعاً من البشر لا علاقة لهم بالمُصنَّعات، و قد تجاوز البشر هذه الحالة منذ أن أخذ يظهر جنسه للوجود، و تميّز بها عن باقي الحيوانات و أصبحت المُصنَّعات التي يبتكرها و يعيش معها، امتداداً متأصلاً في وجوده.

إن من أكثر الأحياز بساطة في محتوياته هو البيت التقليدي الياباني، و مع ذلك، نجده يعبر عن إنسانية مفعمة بعواطف و ذوق مُرهَف و ذلك لأن فراغاته تحتوي على مُصنَّعات، و إن كان عددها قليلاً، فلأن اختيارها يضفي عليه سمة التعاطف بين الذات و المادة المُصنَّعة، الذات التي ورثت خزيناً هائلاً من القدرة على استحداث الجميل في المُصنَّعات.

أما نحن النزلاء فنعيش مع جدران خالية من أية مسحة جمالية، وفق شروط قسرية في التعامل مع مسطحاتها الخالية، و ما إن تتمكن مجموعة منا من ابتكار بعض الشكليات لمشاجب مصنوعة من علب السجائر مثلاً حتى يحضر طابور من الحرس، و لا يغادر إلا بعد أن

Twitter: @ketab_n

يمزق تلك المشاجب و يرجعها مرة أخرى إلى مسطحات جدارية مجردة من إنسانية ذلك الفرد الذي فُرض عليه استيطانها قسراً.

الأكراد، أناس لطيفون، مؤدبون، و يراعون راحة الغير. مع ذلك هناك سلوكيات يظنونها لا تؤثر في الآخرين و تؤذيهم. فبعضهم يمتلك راديو، و هم يختلفون في انتقاء المحطات الإذاعية، من حيث سماع الأخبار و الغناء. كنت أسمع أصوات الأخبار و الغناء من كل الجوانب المحيطة بي، من الزنزانة المقابلة للممر الرئيس، و من الزنزانة التي على اليسار و التي على اليمين، و من الزنزانات التي هي فوقي في ممرات الطابق العلوي. بعضها بأعلى أصواتها و أخرى تتدرج بأصوات مخففة إلى حد ما. حاولت بكل ما عندي من قدرة التركيز على القراءة، بالرغم من هذه الأصوات العالية الممتزجة بالأخبار و الغناء، و لكن لم أنجح، و إن تمكنت لبضع دقائق أشعر بعدها بإعياء و أحياناً بصداع. و ضع أحد النزلاء في الطابق الأعلى الراديو خارج زنزانته و فتح المجهار (مكبر الصوت) بأعلى صوته. ذهبت إليه فاستقبلني بكل حرارة، و إن لم نلتق من قبل. و لأنه كان في الطابق الأعلى، فقد كان باستطاعته أن ينظر إلى الطابق الأسفل، لذا كان يعلم بوجودي من بين النزلاء، و يعرفني من دون أن أعرفه. و بعد الترحاب و السلام اللطيف، شرحت له أن عملي هو القراءة المستمرة و التي تحتاج إلى تركيز، و لا تنحصر بأوقات معينة، و أنا أقرأ معظم الوقت. تكلمنا عن الرياضة و فوائدها، و عن بعض المواضيع العامة، و سألني عما أقرأ؟ كان مجاملاً و متفهماً جداً لوضعي، فوافق على تخفيض صوت المجهار بحيث أتمكن من متابعة قراءتي. و هكذا تجاوزت عقبة مهمة لأن الأصوات التي كانت تصدر من الراديو في حوزته كانت أعلى الأصوات. تشجعت و انتقلت إلى جهة أخرى من الممر الأعلى نفسه،

Twitter: @ketab_n

و إلى نزيل آخر. فحييته و بينت له تأثير الصوت السيّئ في القراءة، فوافق بكل ترحاب و أقدم على تخفيف الصوت.

إلا أن هذه الموافقة في مظهرها بسيطة و هي مجاملة لطيفة، و لكنها في واقعها تضحية كبيرة. فالكردي، أو هذا الكردي بالذات ليس مجرماً و لم يُحكَم عليه بالحبس من محكمة قضائية معتادة، أو في بيئة يسود فيها القانون، و للفرد الحق في الدفاع عن نفسه، و إنما هو و غيره من الذين في هذه الردهة جاء الحكم عليهم حكماً جماعياً، لا لسبب إلا لأنهم ينتمون إلى تنظيمات تسعى إلى تحرير المجتمع الكردي من السلطة المركزية في بغداد. كان أحد النزلاء، مثلاً، قد حُكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات بتهمة سرقة دبابة، فكان بين حين و آخر يقف في وسط الردهة و يصرخ بأعلى صوته و يقول: «أنا لا اعرف أسوق سيارة، فكيف أسرق دبابة، يا ناس هذا ظلم.» و كان يكرر هذه الجملة من دون تحريف، كما لو طُبعت في دماغه، و لا يضيف عليها شيئاً.

* * *

إن الكردي المسجون هنا هو فرد لم يقم بعمل يبرر سجنه، و إنما حُجز عليه فأُدخل السجن مع المجموعة عقاباً لكونه كردياً و كجزء من المجموعة، و عقاباً للمجموعة ككل. و هو على الأكثر لا يحمل في مخيلته تصوراً واضحاً عن استراتيجيات تحرير كردستان و لا يعدو أكثر من كونه متعاطفاً و مع مجموعة ما في تلك المنطقة. و من هذا الموقف، أو من مخيلة بهذا التصور، و في سجن بعيد عن البيئة التي اعتاد عليها، و بعيداً عن عائلته و عمله، يصبح الراديو بالنسبة إليه صلة مهمة و حيوية و مباشرة تمكّنه من أن يسخرها ليسترجع بواسطتها شيئاً

Twitter: @ketab_n

من الحنين القومي و العاطفة المعذبة. إن ذلك يدل على علاقة نفسية أخرى. يمثل وجوده في السجن السلطة التي تتحكم به و على رأسها محكمة الثورة التي وقف أمامها، و القوات المسلحة في كردستان التي كان يواجهها، و هو لا يعرف عن تلك السلطة الكثير سوى تماسه المباشر مع الحرس الذين يأتون بين حين و آخر يفتشون العفش، بلا مجاملة و بأوامر عسكرية، و يمزقون تلك المُصنَّعات من جدران زنزانته فيجعلون منها حواجز لا ترتبط بإنسانيته و عاطفته و مهاراته. إنه يعيش حياة تتحكم بها قوى خارجة عن إرادته، فهي النقيض الصارم لمعيشه و حريته في جبال كردستان، بأنهارها و أشجارها و مقاهيها. فيصبح الراديو، في هذه البيئة المغلقة، من أهم الأدوات التي يتحكم بها. و بتحكمه بأحد أزرارها ينتقل الصوت من العربية إلى الكردية، و من الغناء إلى الأخبار، فيصبح سيد حركة الراديو، و يتفرد في جو يخصصه لذاته، و إن كان في ممر ضيق في الطابق العلوي للردهة و مقيد بدرابزينها. مع هذا، فهو موقع اختاره بنفسه، و الحرية التي يتمتع بها علنية، و هو يجاهر بها و بصوت مرتفع للراديو، مسخراً أداة تخضع لإرادته كما يشاء.

يأتي له شخص غريب، من نوع آخر، لا يتكلم الكردية، و يطلب منه أن يخفض صوت المجهار، لا لأنه مريض، أو لأن الصوت العالي قد يؤدي إلى غضب السلطة و بالتالي يؤذي المجموعة، بل بسبب أن هذا «الغريب» يريد أن يقرأ. و ما يقرأه ليس القرآن، و إنما كتب أجنبية بلغة أجنبية عنه! و لا أعلم إن كنت سأنجح في المهمة نفسها و يُلبِّي طلبي، لو كان هؤلاء النزلاء في الردهة عرباً و ليسوا أكراداً!

لم تمض مدة طويلة حتى جاء موعد زيارة عائلات السجناء، فدخلت حشود تتدفق من أبواب الردهات، حاملة العلاليق (الزنابيل)

Twitter: @ketab_n

و القدور و السلال، منها من مادة الخوص و أخرى من مادة البلاستك، بألوان حمراء أو بيضاء أو زرقاء، و معها صناديق بألوان و أحجام مختلفة من مادة الـ«ستايربور». كان بعضهم يحملونها بأيديهم، أو محملة فوق رؤوسهم، و منهم من يحمل حقائب، و أحيانا أطفالاً على أكتافهم. كان بعض الأطفال في حركة و ركض متواصلين، و بعضهم يبكون لا لسبب ظاهر. ولا تمضي إلا بضع دقائق على تدفقهم من أبواب الردهة حتى تمتلئ أرضية الردهة، و لا يبقى حيز، و لو صغير، لحركة القادمين الآخرين، و لا محل لجلوسهم. فيجلس الزوار على الأرض و يكوّنون بذلك حلقات من أفراد العائلة و الأصدقاء، و أحيانا نشاهد رجلاً و امرأة منزويين بعيداً عن الآخرين، في حوار هامس، يدل على ألفة حميمة بينهما.

ينقلب المشهد للردهة من مجرد كونها سراويل بيضاء و بنية و سوداء إلى ألوان زاهية، من جميع الألوان، أحمر، أخضر، أصفر، أزرق، معظمها مبقع بخيوط ذهبية و فضية، و غالباً ما تلتف حول السراويل عباءات سوداء منقطة ببقع لماعة. تتكون ملابس نساء الأكراد من عدة طبقات من الأقمشة المختلفة، يغطيها قماش شفاف ملون بألوان زاهية عادة. كان لبعض العائلات خبرة في حضور الزيارات الرسمية، فيصلون في وقت مبكر لكي يحصلوا على محل للجلوس على الأرض. كانت تلك العائلات تجلس على أرضية الردهة بين الصناديق و الزنابيل و حركة الأطفال و بكائهم أحياناً، أما الذين يصلون متأخرين فلا يجدون محلاً لهم للجلوس، و إن وجدوا محلاً يجلسوا أينما كان لأنهم معتادون على ذلك.

أما الصنف الآخر، و هم جماعتنا من الأقارب و الأصدقاء الذين لم تكن لهم خبرة في الإسراع و احتلال مواقع للجلوس، فإن وجدوا

Twitter: @ketab_n

مكاناً فإنهم لا يجلسون على الأرض لأنهم لا يمتلكون الخبرة أو القدرة على الجلوس على الأرض أو القرفصة، و حتى إن سعوا إلى ذلك، فإن ملابسهم تعيقهم، إما لقصرها أو لضيقها. و لذا يكون نصيبهم الوقوف طيلة مدة الزيارة بين الحشود الجالسة و المقرفصة خلفهم و أمامهم، يحيطون بهم من كل جانب.

عندما وصلت الوالدة و بلقيس ترك الزنزانة النزلاء الذين كانوا يشاركونني فيها مع زوارهم فاستطاعت الوالدة و بلقيس الجلوس على الفراش. و بقي زوارنا، من أقاربنا و أصدقائنا، حائرين بأنفسهم، و هم واقفون بين جمهور جالس و مقرفص، و بين أطفال يركضون و يلعبون و يبكون و يرضعون، فخرج معظمهم إلى الساحة المجاورة للردهة بعد أن اطلعوا على الزنزانة التي كنت مسجوناً فيها.

هكذا، بقي معظم أفراد الجماعة التي زارتني في الساحة الجانبية خلال المدة المخصصة للزيارة، واقفين لا يتحركون إلا قليلاً، و إن تحركوا فبأرجل ثقيلة، فقد تساقطت الأمطار قبل زيارتهم و تبللت الأرض و أصبحت رقعة طينية تلتصق بأحذيتهم التي يزداد ثقلها في كل حركة يقدمون عليها. عندما دخلوا و شاهدوا الزنزانة التي كنت فيها، لم تكن ردود فعلهم بالكلام، بل عبروا عنها بمشاعرهم، بوجوم صامت يعبر عما كانوا يودون قوله أو عن طريق نظرات عيونهم. يختلف الحوار عن طريق العيون عن حوار الشفاه و اللغات المنطوقة، لان اللغة الصوتية تتحدد بمرجعيات لمرادفاتها و تقاليدها للتعابير المعتمدة للمناسبات التقليدية و الطقوسية المتكررة. أمّا لغة العيون و إيحاءاتها، فلا تتحدد بمرجعية كهذه، بل تتمتع بحرية الابتكار التلقائي، لأنها لا تخضع لرقابة السلطة المباشرة. نظرت إلى عيونهم و لسان حالهم يقول: «أهكذا يكون مصير هذا الرجل!» أكّدت لهم،

Twitter: @ketab_n

بنظرة مقابلة، و لكل من سألني، أو من حاول أن يسألني، بأنني مرتاح.

كان معي في الزنزانة نزيلان، كلاهما منظم في معيشه لذا كان مظهر الزنزانة و محتوياتها منظماً و مريحاً. كانت أبعاد الزنزانة لا تزيد على ثلاثة أمتار طولا، و أقل من مترين عرضاً، و لذا بعد وضع الأفرشة وقت الليل، لا يبقى فيها مجال للحركة من دون أن نطأ أطراف الفراش.

* * *

كانت الزيارتان الأولى و الثانية من الأقرباء و الأصدقاء متعبتين جداً، و مثبطتين، و مزريتين بكل معايير العلاقات الإنسانية. و قبل موعد الزيارة الرسمية الثالثة، دخلنا في مفاوضات مع عبد الرزاق استمرت بضع ساعات. كان عدنان في حركة نشطة متنقلاً بالتناوب بين جماعتنا و عبد الرزاق، و يعبر عن لسان حال جماعتنا و يؤلف وحده كيان الوفد المفاوض. و قد تم التفاوض بهذه الصيغة السرية، لأن عبد الرزاق لم يكن يرغب بأن يظهر أمام سلطة الإدارة، و النزلاء الآخرين، بأن له علاقة خاصة مع جماعتنا، أو يسعى إلى حل مشاكلها، و هي مشاكل لم تكن قائمة من قبل، و لم تظهر كأزمة، كما ظهرت مع مجيء جماعتنا.

بعد بحث الموضوع، و طرح حلول متعددة، توصل المتفاوضان: عبد الرزاق و عدنان، إلى أن يسعى عبد الرزاق إلى إيجاد حل مناسب، يليق بجماعتنا. و بيّن عبد الرزاق أن هناك قاعة جانبية، غير مستعملة، و سيسعى إلى إقناع الإدارة بتخصيصها للزوار. و نتيجة اتصاله بالإدارة، وافقت على الاقتراح، نظراً إلى أهمية بعض النزلاء،

Twitter: @ketab_n

و يقصد مجموعتنا، و ذلك بتخصيص هذه القاعة لغرض الزيارات الرسمية. كان هذا ترتيباً مريحاً جداً استمر عدة أسابيع، أي إلى حين صدور العفو العام عن الأكراد و نقلونا إلى ردهة أخرى. كانت القاعة كبيرة، و مجهزة بمصطبات أشبه بما هو موجود في المدارس. جاء الزوار في موعد الزيارة، و جلست جماعتنا مع جماعة الأكراد الذين فضلوا الالتقاء بعائلاتهم و أقربائهم بعيداً عن زنزاناتهم. كان اللقاء مع الزوار مريحاً من الناحية البدنية، و لكنه كان مؤثراً جداً من الناحية النفسية، فقد استطعنا أن نجلس بحرية و نتحدث إلى بعضنا، بعد أن تجاوز الجميع فترة الصدمة في مراحلها الأولية.

لم يمض أكثر من أربعة أو خمسة أسابيع على وجودنا في ردهة الأكراد، حتى دارت الشائعات التي كانت مكبوتة و خافتة، فأصبحت فجأة علنية و ملأت معظم الأحاديث و الاجتماعات، و أصبح كل شيء آخر، الطعام و الطهو و الزيارات، أحداثاً ثانوية. فقد ظهر أن هناك احتمالاً أن يتحقق اتفاق بين الحكومة العراقية و القيادة الكردية. و إن حصل هذا الاتفاق فهناك احتمال مرتبط به، حيث سيتم إصدار العفو العام عن الأكراد، و هذا ما كان متوقعاً، في أن تكون إحدى فقرات هذا الاتفاق الإعفاء عن المسجونين الأكراد الذين هم من جماعة الجهة الكردية التي في دور الاتفاق مع الحكومة المركزية في بغداد. ظهرت مع الإشاعات موجة من اجتماعات حميمة تكاد تكون مستمرة في الردهة و في الساحة المجاورة، صباحاً و مساءً، فهي تبتدئ بشروق الشمس و تستمر حتى ظلام الليل، و أحياناً تخترق الليل بكامل امتداده. كان النقاش يدور حول الفقرة التي سيتم الاتفاق عليها، و هل سيكونون مشمولين في قوائم هذا الاتفاق أم لا؟

كان قليل من بين الأكراد متشائماً، إلا أن الأكثرية اعتبرت كأن

Twitter: @ketab_n

الاتفاق قد تم و صدر العفو العام وهو في طريقه إلى إدارة السجن. أخذ البعض يتهيأ نفسياً و عملياً للخروج من السجن، و التحضير لما سيفعلونه بعد مغادرته؟ و شملت الفرحة و البهجة جميع الأكراد في الردهة بمن في ذلك المتشائمون الذين كان عندهم بعض الشك، أو لم يكونوا متأكدين من القيادة الكردية، و هل ستعتبرهم من جماعتها أم لا. دامت هذه الاجتماعات و دام معها تقصي الأخبار عن حركة المفاوضات، و كنا نحن نترقب تلك الحركة و الأحداث متمنين أن تسري هذه «الهبة» من «رحمة» الحكومة على جماعتنا. كان عدنان يتنقل من جماعة إلى أخرى ليستقصي الأخبار و يحللها و يبني عليها قصوراً من آمال، كنا نصدقها أحياناً، و نعرف أن حركة الملفات لن تشملنا بالعفو، و ليست واقعية، بل كنا نتمنى أن تكون واقعية. و أثناء هذه المعمعة من الإشاعات، أو قبلها، زار الردهة أحد المسؤولين الكبار لغرض التفتيش. كانت له علاقة بزهير فهو صديق له أو قريب. بين لنا زهير أن السجادة التي كان يجلس عليها حينما مرّ هذا المسؤول كانت هي التي قدمها هذا المسؤول هدية له أو لعائلته. إذاً، قال زهير: «ألا يتذكر السجادة التي كنت جالساً عليها حينما مرّ من هنا!» فنطّ عدنان و قال: «إذاً سنطلع، خلص، بما أنه شاهد السجادة، إذاً القضية منتهية بالتأكيد.» و هكذا كانت جماعتنا تتشبث بالقشة، و تبني آمالاً عريضة على أحداث بعيدة عن الواقع، بل هي أوهام. و لم تمض ساعات و إذا بعدنان يأتينا مسرعاً، مقطوع النفس، مع خبر جديد من مصادر موثوقة عن مواقع الملفات، من أناس في مركز دائرة مديرية السجن، كنائب عريف في الأمن، أو منظف أو كناس من النزلاء، و غيرهم من المصادر «المهمة»!

دامت هذه المخاضة من حركة الملفات و تقصي الأخبار و بناء

Twitter: @ketab_n

أكوام الخيالات و التأملات و التمنيات، فإذا بأحد الحرس، و هو كردي كان في السجن المركزي في بغداد قبل أكثر من عشرين عاماً، يعرفني جيداً لأنه كان أحد الحرس حينما كان والدي كامل الجادرجي في ذلك السجن المركزي. كان هذا الحارس يتصل بي بين حين و آخر ليوصل إليّ أخباراً و سلاماً من «حمى» الشاعر، و هو الذي قضى معنا مدة من الزمن في زنزانة «٢٦» في المخابرات، حيث قضينا أياماً نبحث النظرية الجدلية الماركسية. كان «حمى» في مبنى بعيد عنا سجيناً في السجن المركزي. و بدلاً من أن يخبرني هذا الحارس بخبر عن «حمى»، أخبرني بإعدام جماعة سيروان الستة أو التسعة. كان من الصعب عليّ أن أصدق هذا الخبر، و أقبل بواقعيته، و أدركت المدى الذي تصل إليه قسوة سلطوية هذه الحكومة و وحشيتها. ألم يكن يجدر بها أن تؤجل تنفيذ حكم الإعدام بضعة أيام حتى التوقيع على الاتفاق مع الطرف الكردي؟ انتشر الخبر بين الأكراد، و عمّ الوجوم على بعضهم، مع أن معظمهم ليست لديه معرفة بسيروان و جماعته. فأصابني حزن عميق لأنني كنت معجباً بهذا الشخص، لكبريائه و إنسانيته و مساعدته المعتقلين في ردهة «التسفير»، و هي مساعدات بلا شك كانت تعرضه للخطر آنذاك. شعرت بالكآبة ذلك المساء لفقدان ذلك الشخص، و لو أن معرفتي به كانت طارئة، و لكني أحسست بتعاطف العلاقة الإنسانية التي يمكن أن تتحقق حينما يعبَّر عنها بسلوكيات بسيطة.

سمعت في صباح اليوم التالي، أصواتاً عالية كالصراخ و لكنها صرخات فرح شديد، و معها ركض و مصافحة و تقبيل و قفز. لقد حصل الاتفاق و صدر المرسوم. فأخذت الإدارة تهيئ الأسماء و الملفات. كانت هذه المرة حركة حقيقية للملفات و ليست نسيجاً من

Twitter: @ketab_n

خيال النزلاء، حسبما كانت الأخبار ترد بواسطة عبد الرزاق و غيره من الذين لهم علاقة بالإدارة. بدأ نزلاء الردهة من الأكراد في اجتماعات متواصلة يناقشون التنبؤات و الاحتمالات، من الذي سيفرج عنه و من الذي سيبقى في السجن. و هنا نشطت حركة عدنان فأخذ ينتقل من اجتماع إلى آخر، يستفسر، و يتمنى، و يلخص و يقدم إلى كل منا، آخر ما توصل إليه من أخبار و استنتاجات، تارة همساً لأحدنا، و تارة لنا كمجموعة.

و أخيراً، جاءت مجموعة من الإدارة و معهم القوائم، ففصلوا نزلاء الردهة إلى صنفين: «الطالع» الذي يشمله العفو، و «الباقين» غير المشمولين، أو الذين لم ترد أسماؤهم في تلك القوائم. كانت جماعتنا من بين الباقين.

* * *

ركض الأكراد، تارة في مهمة جمع أغراضهم و حاجياتهم و شدها ببقج أو وضعها بصناديق حاويات الثلج الـ«ستاريبورية». الجميع مغتبطون، يقبّل بعضهم بعضاً. و لم تمض إلا ساعة أو ساعتان على القوائم حتى بدأت الإدارة بتنظيم الأكراد على شكل أفواج حسب ترتيب علاقتهم بالقيادة الكردية المتفقة مع الحكومة، و حسب ترتيب الإفراج عنهم، و لم تدم هذه الترتيبات كثيراً، فأخذت هذه الأفواج الواحد بعد الآخر تترك الردهة في طريقها إلى خارج جدار سجن الأحكام الخاصة.

و في الوقت الذي صدر فيه العفو العام عن الأكراد، صدر كذلك العفو العام عن جميع السجناء الماسونيين و البهائيين. فأفرغت ردهتان في الحال: الردهة التي كان يشغلها الماسونيون و الردهة التي كان يشغلها الأكراد.

Twitter: @ketab_n

جاءنا عبد الرزاق، و هو يلهث في خطواته السريعة المنفرجة، و أبلغنا بقرار نقلنا إلى ردهة أخرى، و بين لنا أنه يتعين أن يتم نقلنا في الحال، فنظم نقل عوائدنا مع أحد النزلاء المنظفين و ذهبنا إلى الردهة الجديدة عندما كان الأكراد في طريقهم إلى الخروج من أبواب السجن.

تقبلنا أنا و المهندس محمود هذا الواقع، بينما طغت موجة من الكآبة الجديدة على عدنان فاحتقن وجهه، و التزم زهير الصمت و عبس أكثر من المعتاد، ثم نطق و قال: «معروفة، معروفة،» و أخذ عدنان يتمتم تارة مع نفسه، و تارة يوجه تمتمته نحونا: «الله كريم، نطلع،» و يكرر «الله كريم، نطلع،» و لم أستطع أن أتمالك نفسي، فقد نفد صبري و قلت له: «يا عدنان، دعنا من هذه الغيبيات، فإذا كان الله كريماً، فلِمَ عمل بنا ما عمل! ليكون بعد هذا كريماً.» نظر إليّ نظرة المعاتب، و تركني.

كانت هذه الردهة في الجهة المقابلة من الممر الرئيسي لردهة الأكراد، و شغلتها مجموعة الماسونيين و البهائيين. و خصصت لنا غرف كبيرة، غرفة لكل أثنين أو ثلاثة منا، مع أسرّة، فكان الاتفاق مع الجماعة أن أشغل أنا و عدنان الغرفة نفسها، و هذا ما أراحني.

كان هدوء الردهة التي انتقلنا إليها من نوع جديد، لا لأن الذين فيها لا يُحدثون الأصوات و الضجيج، فصوت المهندس محمود عالٍ و مرتفع دائماً، و إنما بسبب قلة الموجودين الذين نُقلوا إليها، و كذلك بسبب الوجوم و الكآبة و خيبة الآمال لأننا لم يشملنا العفو العام.

بعد الانتهاء من عملية النقل و استقرارنا، و إكمال نقل أغراضنا من ملابس و كتب و أدوات الطهو، كنت واقفاً قرب أحد الأسرّة التي اخترتها من بين الأسرة الكثيرة في الردهة، و أنا أتأمل في الأحداث، و أحس بكآبة دفينة. جاءني أحد الأكراد ممن لم ألاحظه من قبل

Twitter: @ketab_n

و قال: «أنت لا تعرفني، أنا أعرفك، لا يمكن أن أترك السجن قبل أن أسلم عليك، و أودعك.» فشكرته بصوت خافت، لأنني لم أتمكن أكثر من هذا، فقد بدأت تخنقني العَبَرات. و بينما كنت في هذه المخاضة المفعمة بالعاطفة الإنسانية، آتاني كردي آخر، لم أكن قد لاحظته من قبل، و قال: «كنت سمعت عنك الكثير حينما كنت في السليمانية، و كنت أرغب في أن أتعرف إليك، و قررت ألا أترك السجن قبل أن أسلم عليك.» لم أتمكن من إجابته، هززت رأسي كنوع من الامتنان و الشكر. و قبل أن يتركني متجهاً في طريقه اختنقت العبرة و اغرورقت عيناي بالدموع، من غير أن تسيل، و هي المرة الأولى، منذ اليوم الذي عبرت فيه حديقة دارنا في طريقي لمقابلة الشابين اللذين ادّعيا أن لي موعداً معهما، في صباح يوم ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٨.

الردهة الثانية: مع سبارك

تختلف هذه الردهة عن الردهات التي كنا فيها سابقاً. فالردهات السابقة تتكون من ممر وسطي تقع على جانبيه الزنزانات و ذلك في طابقين، و هي ممرات مسقوفة. أما هنا فالممر وسطي و مفتوح، مع جدار مرتفع من الجانبين.

بدأت بترتيب الكتب، و تنظيم هذه الزنزانة، أو الغرفة الكبيرة و المضيئة، و التي أشترك بها مع عدنان، و إذا به يدخل الغرفة مسرعاً، و مستبشراً، و قد انبسطت كل أساريره قائلاً: «سبارك، هنا في الغرفة المجاورة، في الممر نفسه معنا.»

كنت نادراً ما أمرّ من ذلك الممر في الطابق العلوي، و ذلك تجنباً لملاقاة سبارك، و شعرت بأنني لا أريد أن أرى وجه هذا الشخص، فكنت أذهب في الجهة الثانية نحو السلم الآخر عندما كنت أريد أن

Twitter: @ketab_n

أذهب إلى الطابق الأرضي أو إلى خارج الردهة. مع أنني لم أكلم سبارك سابقاً، فقد التقينا في الممر أكثر من مرة، حيث كان يقف أحياناً في مدخل غرفته، و يلتقي بالمهندس محمود و يتحدث معه. كانت تتكرر تلك اللقاءات ربما يومياً بينهما. جاء ذات يوم المهندس محمود و ملامح وجهه تنبئ بخبر مهم، مع ابتسامة تتسم بالجدية، فقد أخبره سبارك بكامل قصته، و رواها لي كما يلي: « عندما كنت في إحدى جولاتي الروتينية في بغداد، بصفتي مدير الشرق الأوسط لشركة «ويمپي»، و كنت في أوتيل بغداد، أُلقي القبض عليّ بحجة أن هناك خطأً في جوازي. بقيت محجوزاً في إحدى الدوائر الأمنية لمدة أسبوعين تقريباً، و قد أودعت في غرفة مريحة. اعترضت خلال هذه المدة السفارة البريطانية على احتجازي لأن الجواز سليم و لذا لا مبرر لاحتجازي. بعد هذه المدة تغير الاتجاه، فنقلت إلى موقع آخر، و أخذ المحققون يشددون عليّ بضرورة بيان من هم الذين أتصل بهم أثناء زياراتي إلى بغداد. امتنعت عن أن أبوح لهم بهذه المعلومات لأنها معلومات تخص العمل، و هي معلومات تجارية لا علاقة لها مطلقاً مع أي اتجاه أو منفعة سوى عمل التعهد، أو استقصاء المعلومات لهذا الغرض. أخذت السلطة تشدد عليّ أكثر فأكثر، بل تعرضت للإهانات و التعذيب و الشتائم و الضرب، طالبين مني بيان من هم الذين اتصلت بهم عند زياراتي بغداد. ففكرت كثيراً، و تذكرت أنني راجعت رفعة الجادرجي قبل سنتين أو أكثر حول مشروع «عكاشات»، و هو مشروع لم تقدم الشركة عرضاً إليه. و قد ذكرت اسمه لأنني اعتقدت أن هذا الشخص معروف، و ذو سمعة طيبة، و اعتقدت أن ذكر اسمه سيخفف ذلك الضغط الذي كنت أعاني منه. و قد بينت أنني اجتمعت به اجتماعين في مكتبه، و اجتماعاً واحداً في مكتب أحد زملائه، و بعد

Twitter: @ketab_n

هذا انقطعت العلاقة معه و مع زملائه بسبب قرار شركتنا الانسحاب من المشروع و عدم تقديم عرض للحكومة العراقية. و بعد هذا بمدة، ربما شهر، علمت من مركز الشركة أن رفعة زار مركزنا في لندن، و تناول الغداء مع اثنين من المعماريين في الشركة، و انقطعت العلاقة بيننا بعد تلك الزيارة طوال هذه المدة.» كما بيَّن سبارك للمهندس محمود أن الحكومة البريطانية مهتمة كثيراً بقضيته، و هناك اتصالات بين الحكومتين حولها.

بعد أسبوع، أو أكثر من هذا الحادث، زارتني بلقيس وحيدة، و ذلك بمناسبة العيد. لم تعلن الإدارة إذا كان مسموحاً فيه للزيارات الرسمية، فأقدمت بلقيس مع السائق حسين و جاءت إلى «أبو غريب» عسى أن يُسمح لها بزيارتي، و هذا ما حصل. كان عدد الزوار ذلك اليوم قليلاً جداً. كانت الردهة واسعة فتمكنا أنا و بلقيس من أن نجلس على أحد الأسرّة، و أبلغتني بما يلي: في دعوة عائلية خاصة، و في سهرة ليلية، كان من بين المدعوين أستاذ جامعي معروف لدى أختها حياة. و أثناء الحديث جاء ذكر اسمي، فقال سعدون شاكر متبجحاً، بأنه «قرر في وقت ما في الماضي أن «يخلّي» رفعة الجادرجي في ملابسه لمدة ستة أشهر،» و قد حقق هذه الأمنية الآن. و هنا اعترض عليه الأستاذ الجامعي بقوله إن هذا رجل عالِم في اختصاصه، فلماذا تعاملونه بهذه الطريقة، فكان جواب سعدون شاكر، «سمحنا له ببيجامة بعد ثلاثة أشهر،» مع قهقهة.

صحيح، بعد حوالى بضعة أشهر من وجودي في زنزانة المخابرات تسلمت بيجامة و سروالاً داخلياً أُرسلا إلي من قبل العائلة، و لكن لم أفهم سبب قهقهة سعدون شاكر و فرحه بوضعي لأن أبقى بملابسي ستة أشهر.

Twitter: @ketab_n

كنت أسأل نفسي: لِمَ هذا الموقف العدائي نحوي من قبل سعدون شاكر، و ما الذي فعلته ليؤدي به إلى أن يأخذ مثل هذا الموقف الانتقامي مني. و هل هناك ترابط لموقفه مع ما حدث، قبل بضع سنوات، مع أحمد حسن البكر، رئيس الجمهورية! كيف يمكن أن أربط هذه الأحداث. ولكن هذه أحداث يتعين ألا نستغرب حصولها، فالسلطة القائمة، كأي سلطة تقليدية سلطوية، لا تتحدد بنظام دولة أو بقانون، فيكون لمزاجيات رجال السلطة دور فعال في ممارساتها و أحداثها.

كان معنا في الطابق الأسفل محام شاب متحدث، كثير الكلام، و له معلومات كثيرة عن قرارات السلطة و أحكامها الجائرة على الناس، و أساليب إرهابهم، و له معلومات عن كبار قادة السلطة، بمختلف مراتبهم و أعمارهم و أدوارهم، و كان يعلن جهاراً هذه المعلومات، بمناسبة أو بلا مناسبة، متحدياً بذلك الخوف و الصمت اللذين كانا يلازماننا. لا أدري، أو لا أتذكر إن كان محتجزاً معنا أو محكوماً عليه. لم يمض أكثر من أسبوع و هو في حماسته لإذاعة الأخبار عن فضائح السلطة حتى اختفى ذات يوم من بيننا. فاستقصى عدنان بطريقة غير مباشرة عنه و تبين أنه قد تم إرساله مرة أخرى إلى المخابرات. و لم يمض أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام حتى رجع إلى الردهة، و لم تمض إلا ساعات قليلة حتى توفي و نقل منها جثة. عمّ الصمت جميع من في الردهة فلا صدىً سوى تمتمات: «هذا ظلم، هذا ظلم،» تمتمات لا نكاد نسمعها أو لا نسمح لأنفسنا بسماعها جهاراً، كلنا خائف و مرتهب، أفراداً ومجموعة، و لا فرق لدى هذه السلطة، سواء أكان الفرد وحيداً أو أعزلَ، أو منتمياً إلى مجموعة.

تجددت الإشاعات بأن الملفات تحركت، أو هكذا بدا من

Twitter: @ketab_n

استقصاءات عدنان التي كان مصدرها بعض المنظفين من النزلاء. و الحقيقة ليست مهمة، و إنما المهم أن تتحرك الملفات و لو في المخيلة. نحن لا نرفض سماع مثل هذه الأخبار و الإشاعات، فسماع حركة الملفات لا ضرر منها، بل هي سلوى للمخيلة.

في اليوم التالي بعد زيارة بلقيس، طُلب حضوري حالاً إلى الإدارة بصحبة محمد، لم نكن نعرف ما كان ينتظرنا، و هل قال أحدنا شيئاً بحيث سيكون مصيرنا مثل ذلك الشاب المحامي، يا ترى! شعرت بالارتباك، و لكني تماسكت، إذ كنا نتكلم كثيراً عن السلوكيات الوحشية و الإرهابية للسلطة، و بخاصة مع شابين كنا التقينا معهما في ردهة الأكراد، كان كلاهما متهَماً بمحاولة قتل صدام حسين، كما أخبرانا بذلك، و كلاهما يعمل في سلك الشرطة و من مدينة سامراء أو من منطقتها. لم أشك بأنهما وشيا بنا أبداً، و إنما دار شك في ذهني فربما سمعنا أحد من النزلاء الذين كانوا مسخرين من قبل الإدارة. فخفنا أنا و محمد عندما كنا في طريقنا إلى الإدارة في ذلك الممر العريض و الطويل الذي يؤدي إليها، فأنا مرتعب و لكني لم أُظهر شعوري، و محمد مرتعب مثلي لكنه لم يستطع إخفاء مشاعره، فظهر على قسمات وجهه العبوس و الاحتقان و الغضب.

بعد أن وصلنا الإدارة، رافقنا الحارس إلى غرفة المدير و إذا بانتظارنا صديقنا الدكتور علي كمال. رحب بنا الدكتور علي كمال و بيّن لنا المدير أن الدكتور يرغب بمقابلتنا. بعد برهة لم يتمالك الدكتور نفسه فبكى. و المعروف عن الدكتور علي كمال أنه شخصية قوية الإرادة و العزيمة، و مع ذلك بكى. قال إنه في دورة تفتيش للسجون، و وجد من المناسب اطلاعه على حالتنا، و الآن فهو مطمئن، بل كان متأكداً قبل أن يحضر من أن معاملتنا جيدة. كان هذا القول أمام موظف

Twitter: @ketab_n

الأمن فلح، الذي لم يكن أكثر من نائب عريف. فكيف لشخص مثل الدكتور علي كمال بدرجته العلمية و الأكاديمية و المعرفية و علاقاته الكثيرة مع رجال الحكومة، أن يصدر عنه كلام يتسم بالنفاق، أو بالتبرير لزيارته إيانا، أمام نائب عريف أمني. فهل حجة التفتيش هي شجاعة أم أنها خضوع لإرهابية أجهزة الحكومة! و بالرغم من صداقتي العريقة مع علي كمال و احترامي الكبير لشخصه، و علاقاتنا الفكرية في كثير من الأشياء، لم أرتح إلى هذه الزيارة، لأنني وجدتها متسمة بالتبرير. و أقول هذا، وأنا أعلم أن زيارة الدكتور علي لنا قد تكون بالنسبة إليه تضحية كبيرة، لأن هذه الزيارة ستبلغ بها السلطات العليا، و للدكتور علي دور مهني و وظيفي في أجهزتها الحساسة، و لذا تمنيت لو لم يزرنا لكي لا يسمح لنفسه بأن يُقْدم على تبرير لها. عدنا إلى الردهة، و كان انطباع محمد مشابهاً لانطباعي في تلك الزيارة.

ذات يوم، انتشر خبر مهم بين النزلاء. كان صدام، رئيس الجمهورية، يتجول في دُور الناس و في المدارس و يعفو عن هذا و ذاك، و قيل إنه طار بهليكوبتر إلى كركوك، و ربما سينزل في طريقه في ساحة السجن و يقدم على انتقاء بعض المساجين و يعفو عنهم. في اليوم التالي كنا في الساحة العامة للسجن، و إذا بطائرة هليكوبتر تمر من فوق السجن، و لسبب من الأسباب أخذت تحوم حوله، فركض جمهور السجناء يستقبلون الهليكوبتر، و بدأت الهتافات بحياة الرئيس، و كلما انتقلت الهليكوبتر إلى جهة من الساحة ركضوا باتجاهها، و كلما تأخر هبوطها، علت أصوات الهتافات صخباً و أصبحت نصوصها أطول، و أكثر توسلاً، و صرخ احدهم «انزل، مو هلكنا.» و لكن الهليكوبتر و من فيها عرجت إلى هدفها و اختفت في الأفق. لم يدم بقاؤنا في هذه الردهة إلا حوالى أسبوعين أو أكثر. و ذات صباح جاء

Twitter: @ketab_n

عبد الرزاق و نظم نقل أغراضنا و الأشياء الأخرى من كتب و غيرها إلى ردهة أخرى، تشبه كثيراً تلك التي كنا فيها مع الأكراد، و لكن ممرها الوسطي أوسع مساحة و زنزاناتها أكبر حجماً، حيث تسع الواحدة منها ستة أشخاص.

الردهة الثالثة

و ما إن تم نقلنا إلى هذه الردهة حتى تغير وضعي تماماً، فقد التقيت فيها بعطا عبد الوهاب. لم تكن لي علاقة أو صداقة قريبة معه في الماضي، و إنما معرفة سطحية متبادلة، و كنا التقينا بمناسبة واحدة أو أكثر قبل اختطافه من خارج العراق و إصدار حكم الإعدام بحقه. كان جبرا إبراهيم جبرا و زوجته لميعة برقي العسكري، يزوران عطا في السجن بين حين و آخر، و كانا يرويان لنا أخباره بعد كل زيارة، و تتعلق بصحته و معنوياته و وضعه العام، و ما يقرأ و يعمل في المجال الأدبي، و ذلك بعد أن تم نقله من ردهة الإعدام إلى سجن الأحكام الخاصة، و كان قد أمضى في زنزانة الإعدام الانفرادية أكثر من خمس سنوات.

تم جمع جماعتنا في زنزانة واحدة عدا محمد. كانت زنزانة عطا عبد الوهاب مقابل زنزانتنا تماماً. كنت أنا منهمكاً في القراءة، كما كان هو أيضاً منهمكاً في القراءة و الترجمة، و كان قد أكمل ترجمة كتب عديدة قبل وصولنا إلى تلك الردهة. كنت أزوره فيقرأ لي و لمحمد مقتطفات من ترجمته لمسرحية **الملك لير** لشكسبير، و يبين لنا نقاط الضعف في الترجمات السابقة. كانت ترجمته شعراً موزوناً متعدد القوافي. قررت أن أقوم بتنظيم وقتي، فحددت لنفسي وقتاً من الساعة الحادية عشرة حتى الحادية عشرة و النصف، و هي الفترة التي قررت

Twitter: @ketab_n

أن أتناول فيها القهوة، و زيارة عطا عبد الوهاب، و التحدث مع الآخرين. و هي الفترة نفسها التي كنا نتوقف فيها عن العمل في المكتب الاستشاري العراقي و نأخذ فرصة لشرب القهوة.

كنا، أنا و عطا، إضافة إلى هذه اللقاءات المنظمة الصباحية، نلتقي بعد العشاء و نتمشى لمدة نصف ساعة أو أكثر ونبحث في مواضيع عديدة، سياسية و اجتماعية و أدبية. اكتشفت خلال هذه الأحاديث أن عطا أصبح مؤمناً، و دخلنا معه أنا و محمد في مناقشات طويلة و متعددة حول موضوع الإيمان. طرحت خلال تلك الفترات من الحوار الفكري مواضيع متعددة. ذات أمسية بينما كنا نتمشى دار الحديث عن كامل الجادرجي، فبيّنت له بعض التفاصيل عن شخصية هذا الرجل، كأب في البيت و ليس كرجل بصفته السياسية، و عن سلوكياته مع أفراد العائلة، و حول هواياته المتعددة. فقال: لماذا لا تكتب هذه الملاحظات و تهيئ منها كتاباً، سيكون ذا نفع عام. فقلت له إن لا خبرة لديّ في الكتابة باللغة العربية، و سيكون عبثاً لو كتبتها باللغة الإنكليزية، فبيّن أنه مستعد لمساعدتي و سيساهم في تدوينها و في تدريبي على كتابتها، و هذا ما حدث فعلاً. قبل أن ينتهي هذا الكتاب، **صورة أب**، و عندما كنا نتمشى كالعادة بعد العشاء، كنا نبحث تطور العمارة من طراز لآخر، فطلب مني أن أبين له نموذجاً واقعياً لإحداثيات هذا التطور. تكلمت معه عن مراحل تطور الشباك في العمارة الغوطية في إنكلترا من القرن الحادي عشر لغاية القرن السادس عشر، فتحمس عطا كعادته، و قال: لا بدّ من الكتابة عن هذا الموضوع، فأقدمت على كتابة تطور العمارة و ربطها مع الأطروحة التي قدمتها عندما كنت طالباً في مدرسة هامرسمث، و هكذا، تمت كتابة **شارع طه و هامرسمث**. و من هنا انتقلت إلى كتابة **الأخيضر و القصر**

Twitter: @ketab_n

البلوري و هو كتاب لم أتمكن من إكماله أثناء وجودي في السجن، حيث أكملت سبعة و عشرين فصلاً من أصل ثلاثين، و ظلت الفصول الثلاثة الباقية ناقصة.

الحلاق

حان الوقت لحلاقة شعر الرأس، فسألت عدنان كم يتعين أن أدفع للحلاق عن حلاقة الرأس، قال: بين عشرين إلى خمسين فلساً كحد أعلى. علماً بأني كنت أدفع مئتين و خمسين فلساً خارج الجدار، فذهبت إلى الحلاق و طلبت منه موعداً للحلاقة. استغرب هذا الطلب، و نظر إليّ الجالسون نظرات تعجب، لمثل هذا الطلب الغريب. فالحلاق حاضر معظم وقت الدوام، و جميع النزلاء، عندما يحتاجون إلى حلاقة شعر الرأس يأتون و يجلسون على الكراسي المخصصة لذلك، و ينتظرون حتى يأتي دورهم. و محل الحلاق هو لتناقل الأخبار و الإشاعات و الحديث في مختلف المواضيع الخاصة بالسجن و خارجه، بما في ذلك النكات و غيرها من أساليب الحوار بين النزلاء. فلماذا هذا الطلب غير المعتاد؟ قال، ربما من باب التجربة، «تعال بعد نصف ساعة.» فنظرت إلى ساعتي لتحديد وقت الموعد بدقة، و قلت له سأكون في الموعد الذي اتفقنا عليه. تركت المحل و عدت في تمام وقت الموعد، كان كرسي الحلاقة فارغاً في انتظاري. جلست على الكرسي، و طلبت منه قص قصة واحدة لجزء صغير من شعر الجهة اليمنى لرقبتي، ثم طلبت تكرار العملية في الجهة اليسرى. و شكرته و قلت له: هذا كل ما كنت أريده الآن، و تركت الكرسي و سلمته خمسين فلساً. استغرب الجالسون و شكرني الحلاق كثيراً على المبلغ، و هو شكر ممتزج بالتعجب لهذا التصرف الغريب.

Twitter: @ketab_n

بعد مدة، ذهبت إلى الحلاق مرة أخرى و طلبت منه موعداً و كان استقباله لي هذه المرة حاراً و ودّياً. عدت إليه حسب الموعد، و باشرت أعطيه التعليمات خطوة بعد خطوة عن كيفية قص شعري، متبعاً تماماً خطوات الحلاقين الذين كنت معتاداً أن أحلق عندهم في بغداد و بيروت و لندن. و بعد أن تم العمل، كان فرحاً لتلقيه تعليماتي و الخطوات المتعاقبة لقص شعري. و ما إن انتهى من قص شعري حتى نظف منديل الحلاقة فأعطيته مئتين و خمسين فلساً. بعد أربعة أو خمسة أيام حل موعد الزيارات الرسمية لعائلات السجناء، فكان تعليق بلقيس عندما شاهدت شعري: كيف استطعت أن تحصل على قصّة لشعرك بهذه الصورة التي تشبه تماماً حلاقتك في لندن؟ قلت لها إن الحلاق اتبع الخطوات نفسها التي يتّبعها حلاّقو لندن، و رويت لها تفاصيل ما حدث.

فلح

لا أدري ما هي الوظيفة الحقيقية التي كان يشغلها ذلك الموظف الأمني فلح، و لكنه كان يتصرف، و يعامل النزلاء و السجانين كما لو كان المسؤول الأمني الأول. فلح شاب ربما لا يتجاوز عمره الخامسة و العشرين عاماً، و لا شك في أنه ترعرع في جو عائلي مرتبك، أو فقير جداً، أو تعرضت طفولته لظروف قاسية و مشوشة، فأفسدت نموها. لذا كان قاسياً مع الضعيف، و يستمتع بإهانة النزلاء، و يسعى دائماً إلى خلق الظروف ليتمكن من إظهار موقعه الأمني المتميز، و قدرته على إهانة السجناء متى شاءت نزواته. تدور عنه شائعات كثيرة بأنه يقوم بتعذيب النزلاء. يعلم فلح أن النزلاء لا يمتلكون مرجعاً رسمياً يتمكنون من تقديم شكوى ضده، و لم تخصص إدارة السجن

Twitter: @ketab_n

دائرة للباحث الاجتماعي للقيام بأي دور، و لم تمنحه أية صلاحية للنظر في شؤون النزلاء، لا لأن الإدارة تهاب المرض النفسي لموظف أمني، بل لأنها هي نفسها تمثل أيضاً سلطة مريضة نفسياً. لذا، كان هذا الموظف يشعر بحرية تامة يتمتع بها في إيذاء النزلاء و زوارهم و أقربائهم متى شاء، و متى وجد المناسبة لذلك، كمتعة يسخّرها لإشباع ذاته المرتبكة، و هوسه المريض، و خاصة حينما يجد فرصة مناسبة ضد الطبقة المرفّهة.

لم أُعره أي اهتمام، و قد تجاهلته كلياً كما تجاهلت باقي موظفي الإدارة، و لذا كان إهمالي له واضحاً. و قد انحصر سلامي لبعض النزلاء، و منهم الذين يعملون كمنظفين في الردهات. كان يتربص الفرصة للمجابهة معي. و ذات يوم أثناء الزيارة الرسمية عندما كنت واقفاً في مدخل الزنزانة، التي تقع في أقصى نهاية الردهة، و كنت في حديث مع بعض الزوار، كان فلح في أقصى بداية الردهة قرب المدخل مع مجموعة من رجال الأمن و بعض أصدقائه أو التابعين له من النزلاء. صرخ بأعلى صوته: «رفعة»، و كان بهذا يطلب حضوري أمامه و إظهار سلطته المطلقة أمام جمهور النزلاء و الزوار و الشلّة المحيطة به من رجال الأمن الآخرين. كانت هذه فرصة ذهبية بالنسبة إليه، للبرهان على سلطويته و سلطوية السلطة التي يمثلها والتي لا منازع فيها. كان عليّ أن ألبي دعوته في الحال، و هذا ما يتعين أن يقوم به النزيل، إطاعة لأمر أمني صادر من جهة أمنية. نظرت خلسة في اتجاه مصدر الصرخة، و لاحظت جمعاً من العيون المتعددة، تنظر بلهفة نحوي، و كيف سأنصاع إلى صرخته الآمرة. شاهدت الكثير من النزلاء واقفين في الردهة، ينظرون ماذا سيحدث، و كيف سأخضع لهذا النداء. تجاهلت الأمر، و همس في أذني أحد الأصدقاء قائلاً:

Twitter: @ketab_n

لقد طلبك ذلك الرجل من الأمن. قلت له بئس المصير، هذا شخص حقير. و واصلت حديثي مع أصدقائي حتى انتهى موعد الزيارة. و لا أعلم ما دار من حديث بين مجموعة فلح، ولم يكن يهمني أمرها، سوى أنها أساليب كان يستعملها فلح و جماعته لإهانة المثقفين و أصحاب المهن المتميزة كالمهندسين و المحامين و غيرهم من نزلاء السجن.

كنت في مناسبة أخرى خارجاً من باب الردهة متجهاً نحو ساحة الملعب. كان بين باب الردهة و باب الساحة التي تقع في النهاية القصوى من الممر الرئيس لمبنى السجن، مسافة لا تقل عن خمسين متراً. كان لعب كرة القدم محدداً، بألاّ يتم إلا في الساحة العامة. إلا أن فلح يقدم على هذه اللعبة مع جماعته في ممر الردهة، و بصيغ عنيفة، و ذلك لضرب المارة بالممر في طريقهم إلى الساحة، بهدف أذيتهم و إرهابهم، و بيان سلطويته على النزلاء و تحكمه بشعورهم بلا اعتراض من النزلاء أنفسهم أو الإدارة و دائرة الباحث الاجتماعي. كان يستمتع بهذه اللعبة اللاأخلاقية. و عندما خرجت من باب الردهة، شاهدت في الحال الوضع المتوتر بسبب ضرب المارين بكرة القدم، و إهانتهم، كما شاهدني في تلك اللحظة فلح، فكانت بالنسبة إليه مناسبة ذهبية أخرى ليجرب حظه معي. فإن عدت إلى الردهة فسيكون قد حقق انتصاراً و يصبح ذلك موضوع حديث و إشاعات، و إن مضيت في طريقي و مررت من بينهم فهي مناسبة لأن تأتيني ضربة من الكرة و إن لم تكن «مقصودة» أو يدّعي أنها غير مقصودة. فقررت في الحال أن أستمر في طريقي نحو الساحة و تماماً في وسط الممر، لأن الممر قانوناً هو لي و ليس لهم، فهو للمرور و ليس للعب الكرة، و كانت الكرة تتطاير من أمامي وخلفي، و كنت أمشي حسب خطواتي

Twitter: @ketab_n

المعتادة من دون إسراع أو تباطؤ، و من غير أن أنظر إلى اللاعبين، متجاهلاً وجودهم تماماً، و كأنما لا وجود لهم في الممر و لا وجود للعب بالكرة، حتى وصلت نهاية الممر. لا أدري ما كان حديثهم، أو خيبة أملهم، أو توقعاتهم، و لا يهمني أمرها. المهم بالنسبة إلي أني ذهبت إلى الساحة و شاركت مع فرقة بلعبة الكرة الطائرة.

جاءني ذات يوم أحد الحرس و قال لي: مطلوب في الإدارة. كانت هذه المرة الثانية التي أذهب فيها إلى الإدارة، و لا أعرف ماذا ستكون نتيجة الاستدعاء. إن المسافة التي أقطع بها الممر للوصول إلى الإدارة طويلة. و السجين لا يعلم ما ستكون نتيجته، هل هي «مكرمة عفو»، أو إحالة إلى محكمة صورية أخرى، أو تعذيب، أو إعدام. جميع هذه الاحتمالات يتعين على النزيل أن يفكر بها و يتوقعها. إنها رحلة طويلة من الشك و القلق، فهي حالة مرعبة. و هي الحالة المثالية للقلق. فالقلق يحصل حينما لا يعرف الفكر مصدر الخطر، بل يعلم أن هنالك خطراً على وجوده الجسدي أو المعنوي، أو كليهما، و لكن لا يعلم مصدره و حدته ومواعيده و أسبابه، و هذا ما كانت تثيره «سفرة» الممر القلقة نحو الإدارة.

دخلت الغرفة. كان يجلس فيها ما لا يقل عن أربعة أو خمسة أفراد من الإدارة و الأمن، و من بينهم فلح. فوجه إلي الكلام مدير الإدارة و قال: «بنطالك مخالف للتعليمات، لأنه يحتوي على جيب جانبي، فعليك أن تزيل هذا الجيب.» قلت إنني أحتاج إلى هذا الجيب لوضع أقلام الكتابة، و لذا سأبقيه، و لا علم لي بأن هنالك تعليمات تنص على أن وجود مثل هذا الجيب يؤلف مخالفة لنظام إدارة السجون، و لا أدري كيف يمكن أن يكون جيب ظاهري في سروال مصدر إزعاج للإدارة. قال أحدهم: المهم ألا يكون مثل هذا الجيب

Twitter: @ketab_n

في السراويل الأخرى. فأشرت برأسي، مشيراً إلى أنني أفهم ما يقولون. و قلت: «هل هناك شيء آخر؟» و عندما تركت الغرفة، كان جسمي يرتعش، لا أدري خوفاً أم انزعاجاً، و ربما كان مزيجاً من كليهما.

لم يمض على هذا الحادث أكثر من أسبوع، و إذا بحارس آخر يناديني و يقول لي: يطلبونك في الإدارة. اتجهت مرة أخرى نحو الإدارة في تلك الرحلة المخيفة! و صلت الإدارة و دخلت غرفة المدير، و كانت تجلس مجموعة مشابهة للتي شاهدتها في المقابلة السابقة. فعرض عليّ المدير «بوست كارت»، و قال بصوت هادئ، و هو يكبت الفرح الذي شعر به هذه المرة من إدانتي، لأن الجريمة في هذا «الكارت» خطيرة و لا يمكن تجاهلها مهما كانت الظروف. ارتبكت في البداية، ارتباكاً شديداً، لأنني لاحظت فوراً أن «الكارت» مرسل من لندن، و يتضمن صورة النجمة السداسية لدولة إسرائيل. كانت النجمة كبيرة تغطي أكثر من نصف «الكارت»، فهي إذاً جريمة واضحة، و لا بد من وجود اتصال مشبوه لرفعة. أعاد كلامه: ما هذا! قلبت «الكارت»، وقلت لنفسي من هذا الغبي الذي أرسل إلي مثل هذا الشيء، و ما معنى هذا «الكارت»، و لماذا يُرسَل إليَّ في السجن؟

تفحصت «الكارت» و يدي ترتعش من القلق و الخوف، ثم تأملته بهدوء لأتمكن من معرفة حقيقته، أهو مزور؟ أهو خدعة من الأمن لتخويفي و إرهابي؟ و لماذا كل هذا؟ و بعد فحصه بدقة اطلعت على حقيقة «الكارت» و على المرسل، و لماذا أُرسل، و التفت إلى المدير و قلت له بصوت لا زال القلق يشوبه: هذا «الكارت» أُرسل إلي من قبل الرسام ضياء العزاوي، و هو الخبير الفني في الملحقية الثقافية في السفارة العراقية في لندن، و الكارت عبارة عن صورة للتصميم الرابح

Twitter: @ketab_n

لمسابقة إعلامية قامت بها الملحقية لبيان الغدر الإسرائيلي ضد حقوق الفلسطينيين. و أضفت أني أعتقد أن سبب إرسال هذا «الكارت» من قبل الملحقية لي، لأنها هي الملحقية نفسها التي أقامت معرضاً لأعمالي المعمارية في لندن، و لي علاقة صداقة مع المدير، و قد أرسل هذا «الكارت» لإطلاعي على التصميم الجيد الذي ربح الجائزة الأولى، و لا شك في أن الملحقية فخورة لتمكنها من الحصول على نتيجة مسابقة التصميم بهذه الكفاءة، و المسابقة كانت عالمية و الرابح فنان من بولندا. فهل هناك سؤال آخر. فقال المدير: لا. تركت الغرفة، و عدت خلال الممر الطويل ثانية، و لكنني كنت أمشي هذه المرة ببطء متأملاً بعبث المعيش بين جمهور جاهل و سلطوي، و أخذت أردد: ما هذا المعيش، و ما قيمة الوجود لمعيش مرتبك و خائف بين جهلة و وحوش، و إلى متى سيستمر؟ و أخذت أسائل نفسي: لماذا قَبِل الشعب العراقي، في مختلف عصور تاريخه، أن يعيش مرتهباً من السلطة و خاضعاً لها؟

نزل معنا في الردهة نزيل جديد، له معرفة مع غالب أفراد جماعتنا، و هو طارق. رحبنا به. كان طارق رجلاً مثقفاً، و لطيفاً، و متحدثاً، انسجم بأحاديثنا المتنوعة، و أضاف إليها من عندياته.

بعد الزيارة الرسمية الأولى أسرّ طارق إلى محمد بأن إحدى الأقارب أرسلت إليه خبراً بأن العمل جِدي لإخراجه من السجن خلال بضعة أسابيع. لم يكن بإمكان محمد كتمان أي سرّ، و بخاصة كتمان خبر مثير مثل هذا. كيف تتمكن إحدى قريباته من إخراج طارق بهذه السرعة من السجن و لا يزال الأمل في إخراج محمد ضعيفاً و ليس موضوع بحث جدي. أفشى الخبر بين جماعتنا، و بدأ عدنان يطوف الردهات و يفتش عن المعجزات، و كان في انتظار أخيه الطبيب ليخبره

Twitter: @ketab_n

بتلك المعجزة. كان أخوه يُعلمه في كل زيارة بتفاصيل الوساطة التي كان يقوم بها، و عن كل مرحلة يخطوها، حسب الخطة الموضوعة. و تكون متابعة القضية و تعاقب إجراءاتها، و بالتالي حصول «الفرج»، أشبه بشراء عقار. هكذا كانت تصور مخيلة عدنان الإفراج عنه كما لو أنها معاملة يتعين متابعتها. و لا أدري إن كان أخوه مقتنعاً بهذه الصورة، و إن كانت هي الصورة التي ينبني عليها الحديث و المشاورات بينهما في كل زيارة، و يستبشر عدنان أكثر بعد كل زيارة بسبب خبر تقدم المعاملة!

أحذت صحة رواية طارق عن الإفراج عنه قريباً مصداقية أكثر بعد الزيارة الرسمية الثانية، حيث استطاع أهله إدخال بعض المشروبات الكحولية. طارق رجل منفتح فوزع البعض منها على جماعتنا، و كانت مناسبة أضفت تنويعاً لطيفاً على رتابة وجودنا. و مع المشروبات الكحولية، جاء تأكيد عن خبر الإفراج عن طارق. بل كان الخبر الذي ورد عن لسان «فلانة» قائلة: «لن أخليهم يبقون طارق أكثر من شهر.» كانت هذه المرأة رئيسة إتحاد النساء. غضب محمد و احتقن وجهه من الغضب، مندفعاً بالشتائم: هل يستطيع أهل طارق الإفراج عنه و لم تتمكن من ذلك زوجته، مع أنها ذكية و لها معارف كثيرة و مهمة في مختلف الأوساط.

لم يمض على وجود طارق أكثر من شهر و إذا بمرسوم جمهوري يصدر بالإفراج عنه.

أخذ طارق يجمع أغراضه بكل هدوء و اتزان محاولاً ألا يثير الإفراج عنه و خروجه من السجن ضغينة الآخرين عليه. فأخبر محمد، و انتشر الخبر أولاً بين جماعتنا، و من ثم انتقل من ردهة إلى أخرى.

Twitter: @ketab_n

لقد تحقق لطارق ما كان يتمناه محمد لنفسه، فمرّ محمد بحالة نفسية لا يدعمها المنطق، و لا يقبلها العقل، فكيف مرّ ما يقارب من عام و لم يسمع محمد خبراً مفرحاً، و لم تعرض له حتى صورة تعبّر عن كيفية إنهاء تلك الحالة التي وجد نفسه فيها.

محمد رجل ذكي و يتمتع بالقدرة على التحليل المنطقي و العقلاني، إلا أن الوضع الذي يمرّ فيه كان بعيداً عن المنطق، فليس هنالك إنصاف و لا وجدان و لا سبب في أن يجد نفسه في مثل هذه الحالة. فأخذ يردد: «حتى الكلاب المتوحشة لها وجدان أكثر من الذي وضعنا في هذه الحالة.»

في صباح الزيارة اللاحقة، كان محمد مرتبكاً لا يتمكن من إخفاء غضبه و غيظه، و أصبحت سماته محتقنة، و وجهه أحمر، لا يفكر إلا بمتى و كيف سيُفرَج عنه، فلم تتحرك قضيته بعد، و قد قيل له إن لإتحاد النساء دوراً حاسماً في الإفراج عن طارق. قال لزوجته: انتمي إلى الحزب، و راجعي بشأن قضيتي. أجابته بأنها تعمل بكل جِد، فقال لها: «اعملي أكثر، لا بل أكثر وأكثر، ضجتُ، ضجتُ، ليس باستطاعتي تحمل أكثر من ذلك، ضجت، ضجت، هاي شنو، هاي ليش هيجي صار بيّ.» قال لها: راجعي المسؤولين، اذهبي إلى كل مكان، أعملي كل شيء، لن أتمكن من الاستمرار على الحياة في السجن، «ما أقدر، ما أقدر التحمل.» و أكد عليها أن تنتمي إلى المنظمة، قائلاً لها لينتمِ ابني إلى الحزب، قالت له ابنك خارج العراق، قال: إذاً عليه أن يَنتمي هناك و من هناك سيكتبون إلى بغداد، لا يمكن أن أستمر. كانت هذه مبالغات تتسم بها أقوال محمد. و كانت لمعان زوجته واقعية في تصرفها، و لكنها وجدت زوجها في حالة من اللاعقلانية، فأجابته بأنها تحاول ما في وسعها لتحقيق ذلك.

Twitter: @ketab_n

فقد محمد بسبب حالته النفسية المنطق العقلاني و القدرة على المواقف العملية التي يتميز بها. فقال له بعض النزلاء بأن عليه أن ينتمي إلى الحزب، قال: كيف، فأخذ يطوف بين النزلاء المقربين له، و يسألهم. و قد جاءني ذات مساء و قال لي: أريد أن أكلمك، سأطلب من ابني أن ينتمي إلى الحزب، و الحزب سيكتب إلى بغداد، و من ثم يكتب إلى القصر، فماذا تقول؟ قلت له: اطلب من ابنك هذا الطلب إن كنت تعتقد أن هنالك فائدة من ذلك. كان جوابي له بارداً و متردداً، لأن الذي كنت أكلمه ليس محمد بل إنسان آخر، و لا يمكن أن يكون محمد الذي كنت أعرفه. أين ذلك العقل الذي كنت أستشيره كلما كنت أجد نفسي في حيرة و تردد! تمام، مزاج محمد يميل إلى المبالغة، و أحياناً إلى مبالغات سوريالية، و لكن هذه ليست مبالغة و لا سوريالية، بل انهيار أمام ظلم و ظلمة لا مبرر لهما. لقد تغير محمد بعد أن انتقل إلى هذا الجانب من جدار الظلمة، و أحسست لأول مرة بذلك أثناء المرافعة في المحكمة. أنا عادة لا أسهر و لا يصيبني الأرق، و لكن شعرت في تلك الليلة بحالات إثباط و حزن و أرق رافقتني طوال الليل.

مضى أكثر من زيارتين أو ثلاث و لم يطرأ أي شيء جديد، من حيث الأخبار أو الأحداث. كنت خلالها منهمكاً في الكتابة، و أكملت كتاب **صورة أب**، و باشرت في كتابة **شارع طه و هامرسمث**. و قد خصصت وقتاً للكتابة بعد الفطور حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً، و بعد ذلك أعود إلى القراءة في ما يتعلق بالبحث في موضوع تاريخ العمارة و التنظير فيها. كنت أتبع منهجاً صارماً في تنظيم حياتي. فأستيقظ عند السابعة صباحاً. و بعد الحلاقة و تناول الفطور، أباشر في الكتابة حتى الحادية عشرة، فأتوقف عندها تماماً لمدة نصف ساعة

Twitter: @ketab_n

لتناول القهوة و تبادل الزيارات و الحوار مع الأصدقاء، و تداول الأخبار و سماع الإشاعات، و كنت أمتنع عن الكلام إلا في هذه الفترة المخصصة للراحة.

جاءني في أحد الأيام موظف في الأمن قبل فترة الراحة و بدأ يكلمني بموضوع ما، فقاطعته و قلت له: ليس في وسعي أن أجيبك الآن عن هذا، و بينت له أن هذا هو وقت قراءتي و عملي، و إن أراد الكلام معي فأفضِّل أن يكون في وقت الراحة، و ليس في الوقت المخصص للعمل، أي القراءة و الكتابة.

بعد فترة الاستراحة كنت أعود إلى متابعة القراءة حتى يحين موعد الغداء، ثم القيلولة فالرياضة و الحمام، و بعدها أعود ثانية إلى القراءة و التتبع حتى فترة العشاء. كنت أتمشى، خاصة مع عطا عبد الوهاب و أحيانا مع محمد و عدنان لمدة نصف ساعة أو أكثر حسب أهمية الحديث، و أعود بعدها إلى القراءة حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، فأستمع إلى أخبار «صوت أميركا» حتى الحادية عشرة و النصف، حين يحين موعد نومي. فأضع صماماً بلاستيكياً خاصاً في أذنيّ، يُستعمل في المعامل الصناعية الكثيرة الضجيج، و كنت بهذا أمنع الأصوات و أستطيع أن أنام نوماً عميقاً حتى الصباح.

لاحظت عدّة مرات أن عيني عزيز محمرَّتان في الصباح، فسألته عن سبب ذلك، إذ هي دلالة على البكاء، و لم أجد سبباً يبرر ذلك البكاء في تلك الفترة. فأخبرني أنه يسمع بعد منتصف الليل من الردهة المقابلة لردهتنا أصوات تعذيب يقوم بها «السفلة من جلادي السلطة،» و هي أصوات الوزراء و الموظفين الكبار و أعضاء القيادة الحزبية الذين غضبت عليهم السلطة، و حكمت عليهم بأحكام قاسية بعد أن تخلصت من آخرين منهم بإعدامهم غداة تولي صدام حسين رئاسة الجمهورية،

Twitter: @ketab_n

فجيء بهم إلى سجن الأحكام الخاصة و في الردهة الواقعة في الجهة الأخرى من الممر، حيث يقوم جهاز السلطة بتعذيبهم بعد منتصف الليل. كان عزيز يسمع أصواتهم و لا يتمكن من تحمل العذاب الجسدي و النفسي الذي تعبر عنه تلك الأصوات، خاصة عندما كان يُطلب منهم إصدار أصوات شبيهة بأصوات الحيوانات: كالبقر و الحمير و البط و الديكة و غيرها من الحيوانات، فقال: «يا أخي، لا أستطيع أن أتحمل هذه الأصوات، فأبكي مع سماعي لأصواتهم، و أستمر في البكاء حتى تنتهي موجة التعذيب، سفلة، هؤلاء سَفَلة.»

عزيز رجل صغير الهيئة و القامة، و نحيف الجسد، سريع الحركة، ينفعل بسرعة. و هو محام ذكي و نشط، يرجع إلى بيئة مثقفة و متعلمة، يقرأ الأدب العربي الكلاسيكي، و معجب كثيراً بأبي حيان التوحيدي. في حين كانت الجمل التي يتحدث بها بعض النزلاء تبدأ أو تتخللها أو تنتهي بكلمة «الله»، فإن عزيز كان يبدأ حديثه أو يُنهيه بكلمة «سَفَلة»، عند وصفه السلطة أو الكلام عنها. هكذا كان وصفه للسلطة بـ«السفلة» بالكلمة الأولى التي نطقها في لقائنا الأول في الزنزانة المرقمة «٢٦».

* * *

كانت بلقيس، لغرض التنويع و إضفاء بعض المفاجآت على عالمنا المتكرر، تملأ أحياناً الترمس بالبوظة (الدوندرمة)، و هو ترمس كنا نستخدمه في سفراتنا داخل العراق، صُمم خصيصاً لوجبات الطعام، و لذا فإن قطره لا يقل عن عشرة سنتمترات. البوظة بحد ذاتها مناسبة سارة، فهمست بلقيس في أذني عندما سلمتني الطعام يوم الزيارة بأن تحت البوظة، كمية من «كريم دي مون»، و هو كحول نعناعي مرّ الطعم. دعوت جماعتي إلى مشاركتي بهذه المفاجأة السارة بعد وجبة

Twitter: @ketab_n

الطعام. كان عزيز حاضراً بالصدفة، فلم نخبره بحقيقة البوظة و ما يكمن تحتها، لأن عزيز مؤمن و لا يشرب الكحول و هو سريع الانفعال. و لا ندري ماذا سيكون انطباعه أو انفعاله بعد تذوقها و اكتشاف سرنا، فكنا خائفين و مرتقبين. و بعد أن ذاقها قال: «ما هذه الدوندرمة، إنها مرة الطعم بالمرة،» فأجابه محمد في الحال بأنها دوندرمة ممزوجة بـ«روح اللوز». لم تظهر أي ابتسامة على وجوهنا خوفاً من افتضاح الحيلة، و لكن شعرنا بارتياح في أعماقنا. تكرر تزويدنا بهذه البوظة أيام الصيف، و لم يشاركنا عزيز بأكلها بسبب طعمها المرّ.

حينما انتقلنا إلى هذه الردهة كنت في دور كتابة **الأخيضر و القصر البلوري**، و أفتش عن بعض المصطلحات العربية و أبحثها مع عطا عبد الوهاب و عبد العزيز العقيلي الذي لا يخرج من غرفته إلا عندما يذهب إلى الحمام، و أكثر ما يقوم به هو الوقوف في مدخل الغرفة متكئاً على بابها. كان نادراً ما يكلم أحداً إلا الذين يثق بهم. تعرفت إليه بعد مدة، و أخذنا نبحث معاني بعض المصطلحات المتعلقة بالمواضيع التي كنت أبحث فيها، و تطورت لقاءاتنا إلى نوع من الانسجام.

علمت ذات يوم أن جهة رسمية استدعته و أخذته إلى خارج السجن، و مع خروجه انتشرت الإشاعات، منها بأنه سيكلف بمنصب وزاري و منها بمركز قيادي في الجيش. و لكن بعد أكثر من شهر عاد العقيلي إلى زنزانته. فكانت الرواية الأولى بأنه تم استدعاؤه من قبل رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر، و قابل البعض من قادة الجيش، و عُرض عليه أن في نية الحكومة إجراء عمل عسكري ضد إيران، و لذا طلب منه التعاون بتقديم خبرته العسكرية، فاعتذر عن التعاون. أما الرواية الثانية بأنه أودع في زنزانةٍ ما، فأضرب عن الطعام حذراً من

Twitter: @ketab_n

تسميمه. و بعد أيام من إضرابه جاءه طبيب المخابرات و قال له: لا داعي للحذر، و إذا أردت فأنا آكل معك، ففك إضرابه. بعدئذٍ سيق إلى ما يشبه المحكمة برئاسة برزان التكريتي فأحس كأنهم يريدون إعادة محاكمته، فأخذ يدلي بحجج قانونية تقضي بعدم جواز المحاكمة مرتين. ثم أعيد إلى زنزانته في المخابرات و منها أعيد إلى السجن. و لكن النتيجة لكلتا الروايتين أنه بعد أيام من عودته ظهرت عليه أعراض التسمم، وقضى نحبه بعد فترة من الهزال الجسدي. ففقدنا زميلاً وقوراً يتمتع بخبرات متعددة واسعة، و فرغت الغرفة الصغيرة القريبة من مدخل الردهة التي كانت مخصصة له بعد أن نقل جثمانه.

الزيارة الرسمية

يتنوع موقف النزلاء من موعد صباح الزيارة، فيستحم و يحلق أغلبهم في اليوم السابق للزيارة، و منهم من لا يغير روتينه المعتاد، و لكن منهم من ينشط في الليلة السابقة. و يتجمع هؤلاء النزلاء و يطبخون الطعام، و يسهرون حتى وقت متأخر، ربما إلى ما بعد منتصف الليل أو أبعد من ذلك. و تنشط المخيلة في هذه الاجتماعات، المرافقة لنشاطهم في الطهو و الحركة، و تتنوع الرغبات و الآمال و الأحلام السارة.

في ظلمة هذا العالم، خلف هذا الجدار، يتوقف الزمن تماماً قبل بزوغ الفجر، و قبل أن تنتشر أشعة الشمس، فلا يتغير الوقت الذي تدل عليه عقارب الساعة، بل يمتد الزمن، و يتخلله سكون حائر، لأنه سكون مفعم بقلق ممتزج بالتوق و الرغبة في بزوغ الشمس و مجيء أول «وجبة» من الزوار، و ماذا ستكون الأخبار: من تزوج، و من توفي، و من وُلد، و ما خبر الإفراج.

Twitter: @ketab_n

لا يتغير في هذه الظلمة التي نعيشها أي شيء، و كأن الزمن قد توقف فجأة، فلا منطق له، و أصبح مسيرة لا امتداد لها، غير محددة بمدة. لا ندري متى سينتهي جمودها، و يستعيد الزمن حيويته و حركته اليومية، و يتكون من أحداث نعيشها، و ندرك أننا في زمن نتذكر البعض منها، و لذا نعيش في تاريخ ذاكرتنا التي هي من صياغتنا. فقد أبعدنا هذا الجمود و نقلنا بعيداً عن مسيرة الأحداث كما كنا نعرفها و نمارسها، و أصبحنا في فراغ سرمدي، لا قدرة لنا على التكيف مع هذه المسيرة أو تنظيمها، أو ندرك أهدافها و نواياها. لقد أمسى الوجود بلا حس و لا تعاطف و لا ملذة، زال منها اخضرار الأشجار و ألوان الأزهار و حتى تقلبات الغيوم و تنوع ألوانها.

هناك فارق جوهري في الموقف من الوجود و الوعي به لدى أغلب الناس الذين يتمتعون بوجود خارج جدران الظلمة، و بين موقف النزلاء من الوجود و هم خلف أسلاك الجدران. فالأول، مهما كانت ظروف معيشه، يكون مدعماً بمخيلته لصورة معيش في عالم فوقي بعد الوفاة، عالم سرمدي لا يتحدد بزمن: آمن و مريح و خال من هموم الدنيا، و مفعم بالملذات. إنها صور منظمة بموجب طقوم معيشية لاهوتية حسبما تشتهي المخيلة، فهي صور لمعيش غني بفانتازيا فياضة. هكذا هي صورة المستقبل البعيد لتلك المخيلة. أما صورة المستقبل في مخيلة أغلب النزلاء، فهي مقتضبة في البعد، مكبلة، هدفها الأول أبواب السجن، و لا يفكر بما هو أعلى منها. فيصلي، و كل ما يتمنى أن يصل إليه، هو عالم واقعي كان قائماً في الماضي خارج جدران الظلمة، عالم الدار التي كان يعيش بها العائلة نفسها و الأقارب أنفسهم و المدينة نفسها و شوارعها و نواديها و دُور السينما و أسواقها و حدائقها، و الحياة العملية التي كان يمارسها، في ماض

Twitter: @ketab_n

أصبح حلماً بعيداً. هكذا نشتهي الماضي و نتوق إليه، بينما الآخر مرتعب من فقدان الحاضر، يؤسس صورة مستقبلية يتهيأ لها في حاضره فيشيد لها مزارات طقوسية و معابد و عبادات متنوعة. فتنبني الأحلام خارج ظلمة السجن من صور لمستقبل بعيد في عالم آخر، بينما هنا في عالمنا داخل ظلمة السجن تنحصر صور الأحلام في التوق إلى واقعيات الماضي. فمخيلة الأول تتوق إلى عالم الخلود بعد زوال الوجود، بينما ينحصر التوق عندنا في معجزة القفزة إلى عالم الدنيا.

لست وحدي في هذا المزدحم، هذا الحشر، الفارغ من حرية الوجود، و إنما الجماعة بأجمعها هي في دوامة دائمة لا هم لها سوى مسألة واحدة، و هي: «متى»؟ و هي مسألة تدور في ذهن كل فرد منا، و هو الهم المعلن و الهم الخفي، لا في وقت محدد، و إنما في جميع أوقاتنا.

تهتاج عواطف الجماعة، خاصة قبل يوم الزيارة. بعضهم من يقوم بتهيئة وجبة طعام بعد منتصف الليل، لا لأنه حان وقت الإفطار، بل لأن الإفطار فعالية، فهو حدث، و حركة، و أي حدث أروع من اللاحدث. فيسكن الزمن و يتوقف في تلك الساعة الساكنة، و تمتد الساعة أبعد من عقاربها، و تصبح بذلك كل ساعة بعدها هي أطول، لأن موعد الزيارة محدد من قبل جهة لا علاقة له بها سوى أنها وضعته في هذه الظلمة. فالصمت مرعب، و مخيف، لأنه دلالة على توقف الأخبار، فالإفطار المبكر، في ظلمة الليل و ظلمة الردهة، أو تهيئة الطعام المتأخر، حجة إضافية للاجتماع و للتداول المتأخر قبل الزيارة، و حجة اجترار أخبار الزيارات السابقة و تكرارها. و الزيارة هي موعد سماع الخبر، و هي لحظات خاطفة من الزمن، يتمنى النزيل أن يقتصر على كلمة واحدة لا غير، «لقد جاء المرسوم،» أو أن المرسوم في

Twitter: @ketab_n

طور الإعداد. هكذا، يتمنى كل منهم أن تكون أخبار العائلة و الأصدقاء الذين سيزورونه في صباح اليوم التالي.

و لكنَّ الواقع يختلف تماماً، فهو ليس أكثر من قصص أغلبها من المخيِّلة، يتمناها الراوي و المستمع معاً: «لقد بدأت معاملة الإفراج» أو «حان الوقت» أو «طالت، لا بد أن تفرج.» هكذا تكون فحوى الأخبار، فهي أخبار و أقاويل من الأصدقاء و الأقارب و الوسطاء و الذين يعملون كما لو كانوا منظمة منتظمة متحدة تعمل في تنظيم محكم هدفها و شغلها الوحيدان تهيئة المرسوم، أو وساطة إصدار المرسوم. و ربما يكون بينهم مسؤول أو اثنان، و ليس لهم علاقة بالموضوع بالضرورة، و ليس المهم موقعهم في الدولة و السلطة و أهميتهم، و لكن المهم أنهم قالوا أو بينوا أو نوهوا بأن الأمل قريب و لا بد من أنه سيتم تهيئة المرسوم، أو ربما قالوا بأن الوقت قد حان لتقوم السلطة بتهيئة المرسوم، و سيكون الخبر في المقابلة الثانية أكثر تأكيداً، كالقول بأنه تم تحريك الملف من الرف إلى طاولة المدير أو إلى طاولة مهمة. إن تحرك الملف من طاولة إلى أخرى، و كل خبر يخص تحريكه، واقعياً أو في المخيلة، هو خبر جديد و جيد، حتى في تكراره. و هكذا تتراكم الأماني في مخيلة السجين أو أصدقائه أو أقاربه أو الوسطاء.

كنت أسمع كل هذا و أقول للأصدقاء، و أؤكد خاصة لعدنان أن المسألة لا تسير من مرحلة إلى أخرى، في تعاقب كمعاملة شراء عقار. فالمسألة لا أصول لها و لا نظام، و لا ترجع إلى قوانين و حق و حقوق، فهي إذا حصلت تكون عطاء و مكرمة. و لكن البعض يعتقد أن لها أصولاً، و البعض الآخر كزهير مثلاً، يقول إن المسألة كُتبت له كـ«مصير» و هي «مكتوبة»، و الله هو الذي كتبها، و هو وحده الذي

Twitter: @ketab_n

سيقرر الموعد، والآخر مثل توفيق تراه ينزوي و يسترحم خشوعاً لله، فيقف أمام جدار، الجدار نفسه الذي خصصه لنفسه عادة، و يتوجه إلى الله بيدين مرفوعتين متوسلتين، يدعوه و يبتهل إليه، ساعة بعد ساعة، و ربما يستمر هذا الدعاء إلى أكثر من خمس أو ست ساعات في اليوم. و بينما كان عدنان مشغولاً في استقصاء الأخبار، و الإشاعات، في تجوال مستمر من ردهة إلى أخرى، كان زهير يستلقي على ظهره و يقضي ساعات بعينين مغرورقتين بالدموع، تنساب أحياناً على قسمات وجهه ببطء، بلا صوت و لا حركة.

في صباح الزيارة يتجمع البعض في باب الردهة أو قريباً منها في انتظار مجيء الزوار، و يصطف البعض الآخر ملاصقين للجدران الموازية للممر الرئيسي قرب باب الردهة، في صف منتظم، حليقين في انتظار صامت. هكذا كان يبدأ يوم الزيارة، البعض فرح لأنه يتوقع خبراً مفرحاً، و البعض الآخر فرح و إن كان لا يتوقع أي خبر. فجأة يدخل الزوار بأمواج متلاطمة، من الأطفال و الأهل و الأقارب و الأصدقاء و أصدقاء الأصدقاء، محمَّلين بالصناديق و البقج و الزنابيل و السلال و الجنط، يرافقهم رجال الأمن. يتصف جميع الزوار بسرعة خطواتهم نحو مدخل الردهة. إنها خطوات سريعة متعثرة أحياناً، يزدحم بها ممر السجن، فهي خطوات نسوة بدينات بسيقان لم تعتد على السير السريع، فتنفرج خطواتهن، و تتلاطم ملابسهن الفضفاضة بالأطفال أحياناً، و بالزنابيل التي يحملنها أحياناً أخرى. و ما إن تنتهي مدة المقابلة حتى يغادر الزوار و يكتمل توزيع المؤونة، و تنظيمها و تفريغها في البرادات التي توضع عادة تحت الأسرّة، أو في الممرات الفاصلة بين الأسرّة. و بعد الانتهاء من دعوات الولائم بين النزلاء لكثرة الطعام الذي جُلب لهم من قبل عائلاتهم و تجاذب ما تناهى إلى

Twitter: @ketab_n

سمعهم من أخبار جديدة، و قبولها على مضض، حتى يكونوا بذلك قد استنفدوا طاقات هائلة، فتطفو كآبة على غالب نزلاء الردهة، و يعم فجأة في الردهة هدوء و سكون كما لو كان منظماً حسب موعد متفق عليه، فهو صمت ممزوج بوهن و كآبة، فيعرج كل منا إلى سريره للقيلولة و ينسى بذلك واقع السجن المرّ. تكون بلقيس غالباً أول من يدخل الردهة، فنجلس على السرير بعد إتمام الواجبات الروتينية: تسليم قوائم الكتب و المؤونة، و وضع البعض منها في البراد. عندئذ تروي لي بلقيس ما يدور من إشاعات في البلد، و الجهد الذي يقومون به في موضوع سَجني.

أما في موضوع سعدون شاكر، فقد ظهرت الرواية عنه أعقد بكثير مما كنت سمعته لحد ذلك اليوم. لقد بين سعدون شاكر، حسب رواية إحدى صديقات بلقيس، بتول، أنه كان يراقبني في مطار المثنى في بغداد، حينما كان يعمل هناك، وقد قرر آنذاك، و هذا في أوائل الستينيات، و نحن في أوائل الثمانينيات الآن، أي قبل عشرين سنة، أنه حينما سيأتي إلى الحكم، هو و جماعته، سيضع رفعة في ملابسه لمدة ستة اشهر.

لقد كلفت بعد ثورة ١٩٥٨ بوظائف متعددة، و من بين ما كلفت به آنذاك هو تحسين مطار المثنى، و بخاصة تنظيم حركة المسافرين و حقائب السفر و العدة. كنت أزور المبنى مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. و كان مدير المطار، و هو رجل عسكري، يصاحبني أحياناً عندما أقوم بتفتيش تقدم سير العمل. كان مهتماً بإكمال التعمير و تحسين الحركة، كما كان على ما يظهر، يهمه أن نلتقي و نتحدث لأنه حسب ما لمسته من أحاديثه، كان معجباً بقادة الحزب الوطني الديموقراطي، و بخاصة كامل الجادرجي. كنا نتجول في القاعات التي كانت في طور

Twitter: @ketab_n

التعمير، مستمرين في الحديث، و في أثنائها كنا نلاقي بعض الجنود من حرس المطار. كان يصرخ أحياناً على الجندي الذي يكون معوقاً لطريقنا، أو الذي لم يُخلِ لنا الطريق بسرعة، أو لم تكن حركاته عسكرية متأدبة. فيصرخ به بغضب و يوبخ ذلك الجندي، مما كان يسبب لي إحراجاً كبيراً، و لذا كنت أسعى إلى أن أُنهي زيارتي، أو أُكمل تفتيشي بسرعة لتجنب تكرار تلك الحوادث. و كنت بعد أن أنهي عملي، أذهب لزيارة محمد سبع، الذي كان يشغل وظيفة مدير مراقب حركة المطار. أصبحنا أصدقاء، و كنت أزوره لسببين: كان حديثه ممتعاً، و كان في معظم الوقت محاطاً بزوار مثلي، فكانت الأحاديث تدور عن الطيران و خبرات الطيارين. و كان الكثير من تلك الأحاديث ضد السلطة آنذاك، و معظمها نكات ضد الوضع القائم، أي ضد عبد الكريم قاسم. كنا أحياناً، أنا و محمد سبع، نذهب إلى المدرج و نتمشى هناك، و ذلك لكي لا يسمع أحد حديثنا. كان الحديث دقيقاً في اختيار و استعمال الكلمات، و كان التحفظ من كلا الجانبين لخطورته. و كان يرغب في الاتصال بالجادرجي لأن جماعته كانوا يهيئون انقلاباً عسكرياً ضد عبد الكريم قاسم، فهيأت له موعداً، و زار محمد سبع الجادرجي و بصحبته شخص آخر، حسبما أتذكر كان رجب عبد المجيد. و ما يهمنا هنا، أننا كنا نتجول على المدرج، و لذا كان الكثير من موظفي المطار يشاهدون حركتنا هذه. و حسب رواية بتول، كان سعدون شاكر في المطار يراقبني، فربما قرر آنذاك أن يبقيني في ملابسي لمدة ستة أشهر.

كنت لا أزال أجهل السبب الحقيقي لقراره هذا إن صح، و لم هذا العداء. و حسب الرواية، فإن عداءه كان بسبب حقد طبقي من جهة، و لأنني من جهة أخرى كنت في مقام متميز لدى الموظفين

Twitter: @ketab_n

و العاملين هناك، و خاصة المدير و محمد سبع و موظفي وزارة الأشغال. ربما كانت هناك أسباب أخرى لم يذكرها. لا أعلم هل كان سعدون شاكر من بين الحرس الذين كان يصرخ بهم مدير المطار حينما كنا نتجول معاً. كان مدير المطار رجلاً مهذباً جداً، و لذا لم أتمكن من تفسير تصرفه مع بعض العاملين هناك. و لا أدري إن كان موقف سعدون شاكر مني هو عداء متأصل في تحامل طبقي، أم أنه حسد مهني، أم يخص هيئة الفرد، أم كان يتكون من مركبات سياسية و غيرها. و لا أدري إن كانت رواية وجوده في المطار صحيحة أم لا، و لكن الرواية تقول إنه كان هناك في المطار بصفته من جنود الحرس. فلا بد من أنْ حدث هناك ما دفعه إلى أن يروي قصة رغبته في إبقائي بملابسي لمدة ستة أشهر في أكثر من مناسبة، حيث وصلتني منها روايتان، من مصدرين مختلفين.

و لا شك في أن ثمة مسألة يتعين الانتباه إليها، و هي تأكيده على «أخليه بملابسه لمدة ستة اشهر، و على جلده،» وهو قول يتضمن رغبة دفينة في إيذاء شخص معين، كما هي دلالة على تجربة، أو معرفة لحالة فرد في ملابس منقوعة بالعرق.

كنت حراً في أن أدخل المطار ساعة أشاء، و أعمل ما يتوافق مع رغبتي في العمل، فلا إنذار أمنياً أو عسكرياً يحدد بقائي أو تجوالي فيه، و كنت أجد من قبل مختلف العاملين معي هناك كل التعاون و المجاملة المهنية. إنها حرية اختيار العمل و التمتع فيه، مقابل حالة مغايرة تماماً يتعرض لها الحرس. فهل كان سعدون شاكر من بين الحرس. هذا ما لا يعرف حقيقته إلا هو ذاته. و إذا كانت الأحداث ليست كما رُويت لنا، فتكرازه لروايته «لأخليه في ملابسه على جلده لمدة ستة أشهر» لا بد من أن لها أسباباً دفينة في سيكولوجيته.

Twitter: @ketab_n

أخبرتني بلقيس أيضاً بأخبار جديدة عن موضوع اعتقال سبارك. لقد نظمت السلطة العراقية إرسال اثنين، عراقي و فلسطيني، إلى لندن. في تلك الأثناء تم إغراء عبد الرزاق النايف، رئيس الوزراء السابق، للحضور إلى أوتيل معين في لندن. و حينما كان في باب الأوتيل في طريقه إلى الخروج، تقدم الرجلان و أطلقا النار عليه و قتلاه في الحال. طاردهما حارس المدخل و ألقى القبض عليهما، و أُحيلا إلى المحكمة، و حُكم عليهما بالسجن لمدة طويلة. طالبت السلطات العراقية بالإفراج عنهما، و كان جواب الحكومة البريطانية، على لسان رئيسة الوزراء ثاتشر، بأن هؤلاء مجرمون، و ليس في وسعها التدخل في قرارات القضاء. و قد فشلت السلطات العراقية في الإفراج عن هذين الشخصين بالرغم من المساعي الكثيرة التي قامت بها. و لذا طلبت القيادة في بغداد أن يتم إلقاء القبض على أي بريطاني يكون موجوداً حينذاك في فندق مرموق، لتوقيفه. و كانت الصدفة أن يكون سبارك في الفندق ذلك اليوم حينما جاء رجال الأمن و سألوا عن أي بريطاني موجود في الفندق، و هكذا تم إلقاء القبض عليه. إنها محض الصدفة. و الهدف هو جعل سبارك رهينة لدى السلطات العراقية في تشبثها في الإفراج عن عملائها في السجون البريطانية.

بعد أن انتهت مدة تلك المقابلة جاءني عدنان و ألح على أن أتناول معه الطعام. طلب مني ذلك عدة مرات، و لكنه أصر هذه المرة و قال: «لا يمكن أن ترفض هذه المرة، لأن الطعام مبارَك و مزور.» مع ذلك اعتذرت، لا لسبب إلا لأنني كنت أفضل ترتيب وجبات الطعام التي تهيئها لي بلقيس، و هي وجبات منظمة في علب من الألمنيوم. و بسبب تنظيمها المرتب، تناقل الناس في أواسط بغداد أن طعام رفعة يُهيَّأ في فرنسا و يُنقَل إليه أسبوعياً بواسطة الخطوط الجوية

Twitter: @ketab_n

العراقية. كان أحد أصدقاء زوج بتول يمتلك معمل إنتاج سلع الألمنيوم، و منها صحون صغيرة مع أغلفتها الشفافة البلاستيكية، فتبرع هذا الصديق بكمية من هذه الصحون. كانت بلقيس تهيئ الوجبة الواحدة ضمن صحن واحد، و لذا كان يروق لي هذا التنظيم و الاختصار و سهولة تناول الوجبة. فقلت لعدنان مازحاً «و لأن الطعام مزور، لا أشاركك هذه المرة،» و قال: «لماذا»؟ و هو لا يصدق أنني أمتنع عن تذوق طعام مزور، فقلت: «الطعام مزور، و لأنه مزور، فيكون قد تعرض لميكروبات أثناء طقوس دورانه في المرقد» (كأخذ الطعام إلى مرقد الإمام الكاظم مثلاً)، امتعض عدنان مني، لكني أعلم أن امتعاضه لن يتجاوز بضع دقائق، فكلانا يود الآخر كثيراً، و قد تعود على أسلوبي في المزاح معه.

من بين الفعاليات القليلة التي كان النزلاء يتمتعون بها، و هي مصدر مهم للأخبار، الاستماع إلى محطات عالمية مختلفة. فوجئنا ذات يوم بأمر صدر بمنع الاستماع إلى محطات غير عراقية، و سحبت السماعات من النزلاء للتأكد من عدم سماع تلك المحطات بالخفية. صدر ذلك الأمر في فصل الصيف عندما كنا ننام على الأرض بعد أن ينقل كل منا الفراش إلى الساحة المجاورة للردهة. كنت مستلقياً على الفراش كعادتي أستمع إلى إذاعة «صوت أميركا،» من غير استعمال السماعة. كان هذا جزءاً من النهج اليومي الذي أمارسه، و لا بد من أن الإدارة الأمنية في السجن قد علمت بمخالفتي التعليمات التي كانت مشددة ضد سماع المحطات الأجنبية. بينما كنت مستلقياً و أستمع إلى الإذاعة، و إذا بموظفين من الأمن يقدمان إلى القرب من موقع فراشي على الأرض، ويقفان بالقرب من الفراش، و ينظران نحوي. لاحظت أن بعض النزلاء القريبين مني قد هيمن عليهم خوف مرتقب، لأنهم

Twitter: @ketab_n

كانوا يتوقعون، و هو المعتاد، في حالة اكتشاف أي مخالفة أمنية، يتعرض النزيل للإهانة و الضرب الفوري، إن لم يكن التعذيب. لا أدري ماذا كان يتوقع هذان الموظفان أن أقدم عليه. فأهملتهما كليا و واصلت سماعي للإذاعة، و لم أنظر في اتجاههما بل لم أغير موقع استلقائي، فتجاهلتهما كلياً. ظلا واقفين بلا كلام، جامدين، حائرين، لمدة خمس دقائق أو أكثر. و عندما لم يحدث تغير في سلوكي تركا الساحة. في تلك اللحظات، كان كلانا يواجه المشكلة نفسها، و هي عدم معرفة ما سيقدم عليه الآخر. لم أقدم على النوم مباشرة بعد الاستماع إلى الأخبار تلك الليلة، لأنه بعد الأخبار مباشرة بدأت المحطة تذيع تمثيلية «يوليوس قيصر» لشكسبير، و هي رواية تدور حول ظهور استبداد السلطة و من ثم القضاء عليها. استمتعت بها كثيراً، لا لمضمون محتواها فحسب، بل كذلك لتركيبها اللغوي المحكم. لم أقرأها في الماضي و إن شاهدتها في المسرح أكثر من مرة. انتهت الرواية و وضعت السدادات البلاستيكية في أذنيّ كالعادة، و استغرقت في نوم عميق حتى صباح اليوم التالي.

الردهة الرابعة

كنا في فصل الشتاء حينما تم نقلنا إلى ردهة جديدة، تختلف عما تعودنا عليه. كانت الردهات السابقة تتضمن زنزانات متعددة متصلة بممر يصلها مع الممر الرئيسي إلى مبنى سجن الأحكام الخاصة. تتألف هذه الردهة من طابقين أيضاً، و كلاهما قاعة كبيرة مفتوحة، بلا تقطيع. كان موقعنا فيها في الطابق العلوي، أنا و كامل نصاب جماعتي، زهير و محمد و عدنان، و من حسن حظنا أن عطا عبد الوهاب نُقل معنا و خُصص له موقع قريب منا.

Twitter: @ketab_n

جلستُ ذات صباح بين سريرين و هو موقعي المعتاد. كانت المسافة بين السريرين تكفي للجلوس بينهما بحيث يمكن اتكاء الذراعين، و هذا ما جعل الجلوس مريحاً للقراءة والكتابة بالرغم من ضيق المكان. كنت أكتب صباحاً قبل موعد فترة القهوة عندما جاء حمدان و جلس بقربي على السرير المخصص لي، قبل أن أعترض، و هو يعلم بتنظيم أوقاتي و روتين معيشتي. كان حمدان يودني كثيراً، و كنت أوده كذلك، فهو رجل مستقيم و يتمتع باحترام النزلاء، و له منزلة خاصة في دوائر السجن، فيكون أحياناً متعهداً لتوزيع الثلج، كما له الصلاحية في تزويد النزلاء بمختلف الحاجات، من صابون و فراشِ للأسنان و السجائر و النعال البلاستيكية و الحاجيات الأخرى التي اعتاد النزلاء على شرائها منه. و يمكن القول إن كل ما يطلبه النزيل تقريباً، يقوم حمدان بتجهيزه به. يكون معظم بيع حمدان بالدين إلى حين مجيء الأهل، فيتم تسديد الحسابات آنذاك، فهو الذي يقدّر الحساب معتمداً على الذاكرة، و لا يخطىء و يثق به الجميع. كما أن لحمدان علاقة ودية مع عطا عبد الوهاب، فهو الذي يهيئ له الماء الحار للاستحمام و غيره من متطلباته و تنظيف الموقع المخصص له. و لذا كان حمدان بالنسبة إلي أيضاً رجلاً لا أرد له طلباً. كما أن حمدان هو الرجل الذي يعالج مختلف متطلبات النزلاء و يجد لها الحلول المناسبة.

قال لي حمدان و هو جالس على سريري و أنا بين السريرين: «أنت ما تصلي، و لا تصوم، و لا تقرأ القرآن، ألا تريد أن تطلع من السجن!» فقلت له: «مشكلتي ليست مع الله، و إنما مع صدام، هو الذي يطلعني،» فهزّ رأسه و تركني، وكلانا يبتسم للآخر.

أتاني في مناسبة أخرى حمدان، و جلس كذلك بقربي و أنا

Twitter: @ketab_n

منهمك بالقراءة، و قال: «أستاذ، أنت ليش اتّـعِبْ نفسك في القراءة! ترى ماكو أحد يقره و يكتب بره، ليش اتّعِبْ نفسك؟» ضحكنا و تركني و سبيلي.

كنت ذات مساء مع عطا و هو يقرأ لي من ترجمته لمسرحية **الملك لير**، حينما جاء اثنان من السجّانين و طلبا مني مرافقتهما.

لم يذكرا لي سبب هذا الاستدعاء في المساء، و الطريق بين الإدارة و الردهة طويل، و لكنه تراءى لي قصيراً لأنني كنت أفكر، و أنا بينهما، ما عسى أن يكون سبب هذا الاستدعاء في الليل. كنت أتمنى أن يطول الطريق. أخذت ضربات قلبي تتسارع: هل أنا مدعو إلى محكمة أخرى! و عن ماذا! و لما كنت في هذه الدوامة؟ قبض أحدهما على ذراعي، و لم أدر هل كانت هذه مجاملة أم إشارة إلى قيادتي إلى محل خطير؟ قال: «الجماعة أصدقاؤك في انتظارك، يودون رؤيتك.» لم أتمكن من تفسير لهذه الجملة، من هم أصدقائي، و لماذا في انتظاري! وصلنا إلى نهاية الممر فوجدت حمدان في انتظاري. قال: «الجماعة يريدون أدوات حلاقة و ليفة للحمام، و غيرها من الحاجات، و قالوا إنك كفيلهم، و يعرفونك.» نظرت إلى الحيز المجاور، و هو الحيز نفسه الذي نزلنا فيه الليلة الأولى حينما تم نقلنا من ردهة أحكام الإعدام إلى سجن الأحكام الخاصة. فإذا بي أجد خلف القضبان الحديدية غازي و طاهر (أبا شونم) و هما صديقان عزيزان عليّ، فقلت لحمدان أرجو تجهيزهما بما يحتاجان إليه. فرح حمدان، لا لأنها مناسبة بيع بضاعة، بل لأنه سيتمكن من مساعدة نزلاء جدد.

كنت أسمع أحياناً بسبب عدم تقطيع الردهة بعض الأحاديث و هموم الآخرين، عندما لا أضع السدادات البلاستيكية في أذنيّ. كان

Twitter: @ketab_n

من بين هؤلاء شخص مقيم بالقرب من سريري حُكم عليه بالسجن لمدة سنتين لأنه روى لزملائه في الدائرة التي كان يعمل فيها مضمون حلم في ليلة سابقة. كان مضمون الحلم عن انقلاب عسكري ضد السلطة القائمة، فنُقل الخبر إلى السلطات و أحيل بسبب ذلك الحلم إلى المحكمة.

الفصول الأربعة

نحن في عالم تختلف فيه الفصول الطبيعة عن تلك التي في الجهة الأخرى من الجدار، أو هكذا كنا نعيش الفصول السنوية و نمارسها. ففي الجهة الأخرى من الجدار، هنالك أربعة فصول في السنة، أما عندنا فقد اختُزلت إلى اثنين، أو تم إلغاء اثنين منها، الربيع و الخريف. أصبحنا نعيش الشتاء و الصيف فقط. فقد جُردت الفصول الأخرى من صفاتها كظهور الزهور في الربيع و تساقط أوراق الأشجار في الخريف، لأننا لا نرى أشجاراً و لا تدخل الطيور في عالمنا. أصبحت الأيام إما باردة أو حارة. يصبح عند البرد همّ فصل الشتاء بالنسبة إلينا هو كيفية الحصول على موافقة لاستعمال المدفئة («علاء الدين»)، و إن أُلغيت الموافقة فجأة، بلا أي سبب ظاهر. كنا نحاول ثانية كيفية الحصول عليها. أما الموقف من الحر، فيختزل بمراجعة الإدارة لتهيئة المبرد، و إذا تم ذلك أين سيكون موقع الفرد من هوائه البارد، و من يكلف بإملائه بالماء في الليل و في النهار. و من هو المحظوظ الذي سيستفيد من هوائه، و من هو غير المحظوظ الذي لا يستفيد منه، لأن الهواء قرب المبرد يكون رطباً و سريعاً و مزعجاً و له دوي قوي مستمر، و بعيداً عنه يكون هواؤه ضعيفاً من دون فائدة فعالة من تبريده.

كما أن واقعية الفصول الطبيعية تغيرت إلى مناسبات رسمية، أو

Twitter: @ketab_n

هكذا أصبحت بالنسبة إلينا، فاستُبدل بها نوع آخر من موقفنا من الزمن، و هو الأعياد الدينية و الرسمية و المناسبات الحزبية: «يوم الجيش»، و «يوم تأسيس الحزب»، و «يوم ١٧ تموز» المرتبط بـ«يوم ٣٠ تموز». كانت تلك المناسبات تحدد و تكيّف موقفنا من الزمن. فقبل المناسبة، الدينية أو الرسمية، خاصة، تبدأ حركة محمومة، تتجاوز الروتين و الملل اليومي، فيتم تداول الإشاعات مرة أخرى، تنتظم و تعم في مختلف الردهات و تحوم بين الأسرّة و فوق رؤوسنا، و تتكلم عنها حتى الجدران، عن أهمية تلك المناسبة، ماذا ستكون هذه المرة. الجميع يتكلمون عنها، السجناء و الحرس و رجال الأمن، و حتى الزوار الأصدقاء و الأقارب، فتتغير حركة كل شيء: الطهو و الاجتماعات بين النزلاء، و تصبح الاجتماعات مستمرة، خاصة بعد منتصف الليل، فيحصل الطهو الجماعي، و تنظم الاجتماعات قرب مواقد غاز الطهو، قبل و بعد منتصف الليل، لا فرق في الوقت بالنسبة إليهم، و لا يعيرون اهتماماً لعقارب الساعة. الكل يتشاورن، و منهم من يجهر بتوقعاته علناً، و تنبؤاته التي يؤكدها بسبب المناسبة، من حيث أهميتها بالنسبة إلى السلطة، و أهميتها بالنسبة إلى قادة الحزب، و ربط هذه المسألة بموضوع السجناء. و تظهر أحياناً إشاعة تعم على جميع الإشاعات و تخمدها: لقد بدأت الإدارة في تنظيم الملفات و تصنيفها. فتصبح أخبار الملفات و حركاتها، أو الإشاعات عن الملفات، و انتقالها من طاولة موظف معين إلى موظف آخر، ترد بالساعات، و حتى الأخبار عن أرقام الملفات و عددها و تسلسل ترتيبها و تصنيفها على تلك الطاولات، هذا إضافة إلى تشكيل لجان للنظر في الملفات، و مواعيد اجتماع اللجان، و عدد أعضائها و هوية كل منهم و اسمه، و تحليل لشخصياتهم و هل هم من النوع الذي يهتم

Twitter: @ketab_n

و يتعاطف مع النزلاء، أم لا. و هكذا ترد الأخبار من موظفي الأمن و خاصة من قبل النزلاء الذين يعملون في الإدارة كالمنظفين و الطباخين، فهم أدرى من غيرهم بمواقع الملفات، و هم من جماعتنا و لذا أخبارهم لا بد من أن تكون صحيحة.

و مع كل خبر يرد عن الملفات أو حركتها، يحصل السؤال عنه في الجهة المقابلة: لماذا هذه الملفات، و ليست غيرها، و ما هو قصد الإدارة، و هل هذه الحركة بعلم القصر و المخابرات؟ أو ما هو دور المخابرات في كل هذا، و من هو عضو اللجنة الذي يمثل المخابرات أو يمثل القصر، و هل للأمن ممثل فيها؟

أما إذا زار السجن شخص مهم في الواقع، أو مهم في نظر رجال الأمن، و هؤلاء أفراد معظمهم دون رتبة العريف، و جاء هذا الشخص لغرض التفتيش أو لأي سبب آخر، فتتفشى الإشاعات بأن الزائر جاء خصيصاً بتعليمات ليؤلف لجنة للنظر في الملفات أو أنه سينظر بها بنفسه، أو أنه جاء و بلّغ الإدارة أن تتهيأ لأنه سيتم إخراج عدد كبير من النزلاء بسبب هذه المناسبة. فكل حركة للملفات يدب صداها في جميع أرجاء السجن، لماذا هذا الملف؟ لماذا ملف فلان و ليس فلاناً؟ و منهم من يتساءل و يجد الجواب فيقول: لأن فلاناً له قريب في المستشفى و هناك طبيب يزور القصر، و يجيب آخر بأنه يعلم أن له قريباً له علاقة مع المخابرات، و قال آخر: لا جدوى من ذلك كله، فأجابه آخر: أنت حقود و متشائم لأن عندي معلومات أكيدة، لا يمكن طعنها، و هي أن أربعة و أربعين ملفاً تم نقلها يوم أمس و كان الملاحِظ مسروراً يوم أمس. أخبرني فلان أن الملاحِظ عندما مرّ بهم و هم قرب الحانوت، قال لفلان و كان فلان و فلان حاضرين «الله كريم،» و كانت الابتسامة كبيرة على وجهه.

Twitter: @ketab_n

جاء عدنان بخطوات سريعة لا يتلفت كعادته لكي لا يجلب الأنظار لئلا يسأله أحد لماذا هو مسرع في مشيته. قال لي: «عندي أخبار مهمة،» كانت خطواته سريعة خفيفة بسبب أهمية الخبر، و هو مسرور بسبب مضمونها. لم تكن هذه مفاجأة بالنسبة إلي، لأن هذه الحالة كانت تتكرر بين حين و آخر. انفرجت أسارير وجه عدنان بابتسامة مفعمة بالجدية و الفرح، قال لي: أقسم سامي بروح أمه إن الأضابير (الملفات) قد تحركت. و سامي هو أحد المنظفين النزلاء. و في المساء، و بخطوات أكثر تأكيداً و ثقة من خطوات الصباح، قال إن سامي حلف بروح أمه مرة أخرى، بأن الملفات على طاولة الملاحِظ، و قال إن المدير حضر في الليل، و أبا فلان كان يعمل على الملفات طوال المساء.

إن نقل ملف ما من جناح إلى آخر، أو من غرفة إلى أخرى، له أهمية سحرية في عالمنا، و لا تهم محتويات الملف أو موضوعها، المهم حركتها، سواء أكانت من جناح المديرية العامة إلى إدارة الأحكام الخاصة أو العكس. و مع ذلك، فإن حركة أي ملف من الأحكام الخاصة إلى المديرية العامة، تصبح خبراً مهماً، و تنمو معها الإشاعات، و تدور حولها و حول من يحركها و مواعيد تلك الحركة. و لكن إرجاعها في اليوم التالي، لا يذكر و يصبح أمراً غير مهم، و يفقد تلك السحرية لأنه سيعود إلى الرف المعتاد. المهم بالنسبة إلى النزلاء هو حركة الملف من رفٍّ إلى آخر، أو من رف إلى طاولة. لم يحدث شيء يُذكر بعد هذا، قال عدنان: «إلنا الله.»

نعم، المهم بالنسبة إلى النزيل هو حركة الملفات. فحركة الملف لها مفعول سحري، أي كلما يتحرك الملف لا بد من أن تكون خلفه قوى سحرية، فنسمعهم يقولون لبعضهم البعض: «الله ما يقطع،»

Twitter: @ketab_n

و الحائط كذلك ينظر عندما يقفون أمامه و يتوسلون، و لا بد من أن يتحرك الملف يوماً ما، و تنفتح فجوة في الجدار و نطلع. و هكذا، تتردد هذه التوسلات و التمنيات، و تبقى فصول السنة مختصَرة بفصلين، فلا تنمو و لا تزدهر و لا تأخذ مجراها الطبيعي، و يُشار إلى الله، كما لو كان رئيس القبيلة، أو راعي أفرادها.

رفعة الجادرجي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المكرمة و نحو شارع طه

مرّت ستة أسابيع من الانتظار، و بدأ التفاؤل يذوب تدريجياً، عندما زارتني وجدان في الدار مساء ١٩ آب ١٩٨٠. كنت مشغولة في تحضير قائمة كتب طلبها مني رفعة للزيارة القادمة في السجن التي صادف موعدها اليوم التالي.

كانت وجدان تزورني أحياناً بعد أن تنهي عملها مساءً، حتى و إن كانت الساعة العاشرة ليلاً. وجدان مهندسة معمارية، تخرجت في كلية الهندسة، و تدربت في المكتب الاستشاري العراقي عندما كانت طالبة تدرس العمارة، و التحقت بالمكتب بعد تخرجها، و أصبحت من المعماريات المهمات اللواتي يعتمد عليهن المكتب. تركت العمل في المكتب الاستشاري العراقي بعد اعتقال رفعة ببضعة أشهر، و أسست مكتباً مع زميلين من زملائها كانا يعملان سابقاً في المكتب الاستشاري.

ساعدتني وجدان أحياناً في قراءة الخرائط و تنظيمها حسب تاريخ المشاريع، و في تبويب بعض الخرائط المقلوبة بالنسخ و المتداخلة مع مشاريع أخرى لا تمت إليها بصلة، و بُوبت بذلك بصورة صحيحة حسب كل مشروع. فقد طلب مني رفعة عندما كان في السجن، أن

Twitter: @ketab_n

أنظم له الخرائط التي صُغِّرت أحجامها و صُوِّرت في لندن لغرض النشر، فجلبت معي نسخة كاملة من مجلدين عندما كنت في لندن ليتمكن من الكتابة. و عندما بدأ بكتابة كتاب **الأخيضر و القصر البلوري**، كنت أقوم بنسخ تلك الخرائط في محلات النسخ في الصباح، ثم أجلبها معي إلى المكتب الاستشاري العراقي، أقصها و ألصق كل خريطة على صفحة منفصلة حتى تجاوز عددها عشرة مجلدات.

لم تنقطع وجدان عن زيارة رفعة في السجن، بل كانت ترافقنا كلما سنحت لها الفرصة، و كانت تجلب معها أحياناً هدايا عند عودتها من سفرها، و لم تنس حتى عيد ميلاده في السجن، الذي كنا نحتفل به سنوياً. و شاركنا بعض السجناء بالاحتفال، فأكلنا من الكيك الذي جلبته وجدان لهذا الغرض و ضحكنا و لكن كانت الضحكات خافتة و باهتة، فلم يُبعدنا الاحتفال عن جو السجن المهيمن علينا.

سألتني وجدان إن كان هنالك من جديد، أجبتها: شائعات فقط! تعبت من الشائعات و أرهقت أعصابي، و عدت لا أصدقها و لا أعيرها أية أهمية.

قالت : زارني أمس في مكتبي مهندسان، لهما علاقة بالمشاريع التي ستقام في بغداد بمناسبة مؤتمر عدم الانحياز الذي سيُعقد في بغداد عام ١٩٨٢ ، و نقلا إليها حديثاً دار بين أحد المسؤولين المهمين و رئيس الجمهورية صدام حسين، حيث سأل الرئيس عن المعماريين المهمين الذين يمكن إناطة هذه المهمة بهم و إعادة بناء بغداد، فأجاب ذلك المسؤول: سيدي عندنا خيرة المهندسين في الشرق الأوسط، الذين من الممكن إناطة مثل هذه المسؤولية بهم. سأله الرئيس: لماذا لا يمكن إناطة هذه المسؤولية بهم؟

Twitter: @ketab_n

أجابه المسؤول: «سيدي واحد جوه و الآخر برّة،» يقصد بذلك أن رفعة الجادرجي في السجن و المعماري الآخر الدكتور محمد مكية خارج العراق، فقد ترك العراق منذ بداية السبعينيات.

أجاب الرئيس عندئذ: «الجوه نطلّعوا، و البرّة نجيبوا.»

كانت السلطة تستعد لإقامة مؤتمر عدم الانحياز في بغداد، و كانت هنالك دراسة واسعة لإعادة النظر في تخطيط مدينة بغداد و تحسينها، و إظهارها أمام رؤساء دول عدم الانحياز، كعاصمة متطورة، تشبه عواصم المدن المتحضرة. كان الرئيس بالذات يهمه أن يظهر العراق بمظهر البلد المتقدم الذي خلّف وراءه تأخر العالم الثالث.

ثم أردفت وجدان قائلة: ربما يطلبون من رفعة غداً أن يذهب معهم، فأخبريه بألا يقلق، فربما سيُطلَب منه مرافقته لهم للعمل في النهار في الدائرة التي سوف تخصص لهذا الغرض، ثم يعود في المساء لينام في السجن!

ذهبت صباح اليوم التالي المصادف ٢٠ آب ١٩٨٠ إلى السجن. بعدما فتّشت من قبل السجّانين، دخلت القاعة التي يقيم فيها رفعة في الساعة الثامنة صباحاً. كان السجناء بانتظار أهاليهم، و شعروا بالراحة عندما وجدوني بينهم، فلن يطول انتظارهم، فقد اعتادوا عليّ، إذ كنت أول من يدخل قاعة السجن.

كنت أستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً، أضع ملابسه و أغطية السرير المكوية في حقيبة صغيرة مع قائمة الكتب داخلها، و رزمة الكتب التي كنت أحضّرها قبل ليلة من الزيارة الرسمية، أكتب عليها أسماء الكتب، و تاريخ تسليمها، معنونة لمديرية أمن السجن، لتفتيشها من قبلها قبل تسليمها إلى رفعة. و أجلب معي كتباً باللغة العربية تصدر

Twitter: @ketab_n

عادة في العراق، ليقرأها و يعطيها للسجناء الآخرين الذين لا يُسمح لهم بإدخال الكتب. كنت عادة أترك الكتب العربية كهدية لمكتبة السجن.

أما الطعام و الفاكهة فكنت أضعهما في صناديق من الكارتون، و نتجه - أنا و حسين - في الساعة السادسة صباحاً في طريق «أبو غريب». كانت الرحلة تستغرق إلى سجن «أبو غريب» نصف ساعة إن كان الطريق سالكاً و خالياً من زحمة السير، و ربما ثلاثة أرباع الساعة إلى ساعة إن كان الطريق مزدحماً في بعض الأحيان.

كنت أصل في معظم الأحيان قبل السابعة صباحاً و أسير أقل من خمسين متراً عن موقف السيارات الخاصة، لأقف في الصف أمام باب السجن الكبير الذي لا يفتح منه إلا بوابة صغيرة، فأكون أول شخص أمامه، و يمتد خلفي بعد دقائق طابور طويل من أهالي السجناء. أراقب بزوغ الشمس و أشعتها و هي تبسط حرارتها حولنا، و يسري دفؤها في أطرافنا. كنا نقف أمام بوابة السجن، كما يقف المتسول أمام الأبواب بانتظار ما يُمَد له من عون، مسمّرة عيوننا بها، و كنت أشعر بفتحها عندما تدفعني موجة من الناس، أحاول أن أقف بحزم في مكاني، أتجنب الدفعة التي تأتيني من الخلف، و لكن كانت الموجات البشرية في بعض الأحيان أقوى مني، فتقذفني داخل بوابة السجن. كنا لا نشعر ببرودة الجو القارس في الشتاء، و لا بحرارة الشمس في الصيف، فعيوننا شاخصة و حواسنا مسمّرة بتلك البوابة.

كنا تحت رحمة السجّانين. كان بعضهم يتمادى في معاملته السيئة و القاسية في إهانة أهالي السجناء، و كأن الإهانة تُشعرهم بأهميتهم و تؤكد لهم السلطة التي يتمتعون بها في السجن. كانت إدارة السجن تتفنن في إيذاء أهالي السجناء خاصة في سجن «الأحكام الخاصة

Twitter: @ketab_n

للإصلاح الاجتماعي»، إذ كان هذا السجن خاصاً بالسجناء العاديين و يُحشر معهم السجناء السياسيون، و كان فيه الكثير من السجناء الأكراد و الماسونيين و حزب الدعوة الإسلامي، و أعضاء حزب البعث المغضوب عليهم من قبل النظام.

أمعنوا في إيذاء أهالي السجناء عندما منعوا إيقاف السيارات الخاصة و العامة قرب سجن الأحكام الخاصة، و ذلك بعد مرور عام على سجن رفعة. و سُمح لها بأن تقف على بعد أكثر من نصف كيلومتر من السجن، إذ فتحت البوابة القريبة من سجن الأحكام الخفيفة، و أصبحنا نمر بطريقنا على سجن الأحكام الخفيفة ثم سجن الأحكام الشاقة حتى نصل إلى سجن الأحكام الخاصة.

كان أهالي السجناء يتكبّدون جهداً كبيراً في حمل الأغراض و المواد الغذائية و إيصالها إلى سجنائهم، و كان التعب و الإرهاق بادين عليهم عندما ينقلون قناني الغاز التي يحتاج إليها السجناء للطبخ أو لتسخين الماء. كان الدرب شاقاً و طويلاً، فمنهم من يتعاون على حملها مع شخص آخر من أقربائه، و إن لم يجدوا من يساعدهم في حملها، يدحرجون عندئذ قناني الغاز على الأرض لمسافة نصف كيلومتر، فيتوقفون بين الفينة و الفينة للراحة. كان ذلك ممكناً في فصل الصيف بالرغم من درجات الحرارة العالية المحرقة و العرق المتصبب على وجوههم، و لكن يصبح الأمر مستحيلاً في فصل الشتاء عندما تصبح تلك الطرقات غير المعبَّدة سلسلة من حفر ماء الأمطار و الوحل، فينقضي بذلك أكثر من ربع الوقت المخصص للزيارة، قبل أن يصل أهالي السجناء إلى بوابة سجن الأحكام الخاصة، منهَكين و متعَبين ليقفوا بالطابور الطويل للتفتيش قبل دخول السجن.

وجدنا طريقة في نقل الأغراض على العربة trolley التي ينقل

Twitter: @ketab_n

المسافر حقائبه الصغيرة عليها في المطار. حلت تلك العربة لنا مشكلة كبيرة في نقل قنينة الغاز، و أصبحت من الهدايا المهمة التي يجلبها المسافرون معهم من خارج العراق. كنت أجد نفسي في بعض الأحيان أمام مسؤول أمن السجن فَلح بضحكته المقززة للنفس.

كان فَلح حسن العبيدي مفوَّض مسؤول الأمن في السجن، شاباً في منتصف العشرين من عمره، فظاً و سادي السلوك، متعته الوحيدة في الحياة التلذذ في تعذيب السجناء و إهانتهم. فكان يقوم بتعذيب سجناء «حزب الدعوة الإسلامي» و المعارضين للسلطة من أعضاء حزب البعث، و أصبح متمرساً و خبيراً بالتعذيب. كان أحد المشرفين على عمليات الإعدام في القاطع الخاص بالإعدام في السجن. و لذا، فإن محور حياته يدور في نطاق السجن الذي ينام و يعيش فيه، و نادراً ما يخرج منه خوفاً من الانتقام.

كنت أشيح بنظري لكي أتجنب وجهه الخبيث و يطفو اللؤم و القسوة عليه، و أشعر بأمواج الغضب السوداء في أعماقي و الكره ينبجس من جسدي كحبات عرق في قيظ بغداد المحرق. كان يتعمد شخصياً في بداية الأمر، تفتيش الأغراض التي أجلبها، و يلتذ في إهانة أهالي سجناء العائلات المعروفة في بغداد و إذلالهم. فكان يزعق بصوته و يكشّر فمه عن ضحكة يشوبها الزهو و الانتصار، عندما يصادر بعض الأغراض الممنوعة، و بصورة خاصة الكتب. وجدت من خلال تجربتي طريقة أتجنب بها تدخله بتفتيش الأغراض التي أجلبها معي، فأضع الكتب، كرزمة في مدخل باب السجن.

و لكن كان بين حراس السجن من يتعاطف مع أهالي السجناء، و يحسنون معاملتهم. كنت أتباطأ في السير أحياناً، لكي أكون حيث يتم تفتيش الحقيبة من قبل أحد السجّانين الأكراد الذين كانوا يكنون

Twitter: @ketab_n

الاحترام لرفعة و عائلته. إذ كان أحدهم من السجّانين في سجن بغداد عندما حكم على أبي رفعة بالسجن لمدة ثلاثة أعوام في العهد الملكي. و استطعت بتلك الطريقة، تهريب بعض الأغراض الممنوعة في السجن، كأدوية ضد الحشرات، و الصمغ، و كسّارة الثلج و سكينة لتقشير الفاكهة، لأنها تُعتبر أدوات حادة و خطرة.

بعد أن ينتهي التفتيش الدقيق في مدخل بوابة السجن، كان في انتظارنا تفتيش آخر في غرفة صغيرة من قبل عدد من السجّانات النساء اللواتي يقمن بفتح حقائب اليد، و تفتيش أجساد النسوة. كانت أولئك السجّانات يتجنبن القسوة في معاملتنا، و في بعض الأحيان كانت الابتسامة غالبة على قسمات وجوههن.

كما كان يختم رسغ الرجال بختم بالإضافة إلى تفتيشهم من قبل السجانين، و تتغير أشكال حبر الأختام و ألوانه بين فترة و أخرى. و لم يكن من السهل غسلها و إزالة آثارها من الرسغ. أشاهد أحياناً شقيقيّ رفعة - نصير و يقظان - في محاولاتهما الفاشلة في إزالة الختم البغيض عند عودتهما من السجن و يبقى أثره نقطاً سوداء كالنمش فوق الرسغ.

بعد الانتهاء من مرحلة التفتيش، أسير بخطى سريعة في رواق طويل نحو الدرج القذر الرطب، فأتأنّى في صعوده في فصل الشتاء عندما يغطيه الوحل، و يصبح زلقاً. ليس هنالك غير هذا الدرج الذي يؤدي إلى القاعة الكبيرة. فأجد بعض السجناء واقفين على الدرج، مادّين رؤوسهم، شاخصي النظر بعيونهم، محاولين أن يقع نظرهم على أهاليهم و أحبائهم من خلال الرواق الطويل الذي يؤدي إلى بوابة السجن. كانت على جانبيْ الرواق غرف مُحكمة أبوابها، لا يسمح لهؤلاء السجناء بالزيارات الرسمية، و عرفت من همس بعض السجناء

Twitter: @ketab_n

أن تلك الغرف المقفلة في السجن مخصصة لسجناء «حزب الدعوة الإسلامي»، و قيل إن من بينهم الدكتور حسين الشهرستاني الذي كان رئيساً لقسم الكيمياء النووية للطاقة الذرية. و لكن كان بإمكاننا مشاهدة وجوه هؤلاء السجناء من نوافذ القاعة الكبيرة التي تطل على ساحة السجن الداخلية الواسعة، ممسكين بقضبان نوافذ غرفهم، محاولين استنشاق هواء الساحة التي تطل عليها غرفهم أيضاً، ناشرين أحياناً غسيلهم على تلك النوافذ.

أجد رفعة في انتظاري، إذ يعلم أنني أول من يدخل السجن، فقد أصبحتُ إعلاناً لبداية الزيارة الرسمية. أعانقه بحرارة، و نجلس على سريره. نسرق الوقت قبل مجيء العائلة و الأصدقاء، أسلمه قائمة الكتب التي أتركها له عادة عند بوابة السجن ليطّلع عليها المسؤولون عن أمن السجن.

كنت أقضي وقتاً طويلاً في كيفية تجنب التفتيش عندما يطلب أشياء ممنوعة. فعندما طلب مني سكينة صغيرة لتقشير الفاكهة أو كسّارة الثلج، لبست جزمة تغطي الركبة في كل مرة، و خبأتها بين ساقي الجزمة و جِلدها، بالرغم من أننا كنا في شهر نيسان، و الصيف في بدايته عادة، و ليس من الأشهر التي من الممكن فيها لبس جزمة شتوية، و لكن لم يشعر السجّانون بشيء غير طبيعي، و دخلت بذلك تلك الآلة للسجن، المفيدة جداً للسجناء، إذ كانت تنتقل من سجين إلى آخر لكي يقطعوا الثلج بها في قيظ بغداد الحار.

كما كنت أحضّر له طعامه، و أقسمه على عدد أيام الزيارة الرسمية القادمة، و أضعه في علب من الألمنيوم، و أكتب على كل علبة التاريخ و نوع الأكلة. و لذا، شاع في أنحاء السجن أن طعام رفعة تنقله الخطوط الجوية العراقية من فرنسا و من مطعم مكسيم! فقد كان معظم

Twitter: @ketab_n

أهالي السجناء، يجلبون الطعام بقدور مختلفة الأحجام، بعضها غطتها قشرة من السخام الأسود، فلا عجب من انتشار مثل هذه الشائعة!

سلمته قائمة الكتب و الملابس، و لم يخطر ببالي في بادئ الأمر أن أخبره عن حديث البارحة الذي دار بيني و بين وجدان. و بعد أن تحدثنا حديثاً طويلاً، سألني فجأة ما هي آخر الأخبار، و كان يقصد بذلك دائماً: أين وصلنا بقضيته.

سردت عندئذ ما أخبرتني به وجدان، و أضفت قائلة: إن طلبوا منك أن ترافقهم، فلا تقلق، إذ كان السجناء يرتعبون خوفاً و فزعاً عندما يأتي مسؤول أمن السجن قائلاً لأحدهم: «تعال معي!» فيظل السجين في حالة من القلق و الفزع، لأن المسؤول لا يفصح عادة عن المكان الذي سوف يقتاد إليه السجين، فربما يعاد إلى المخابرات ثانية للإفراج عنه، أو لفتح تحقيق جديد معه، أو للتخلص منه بتصفيته كما حدث لبعضهم. عندئذ يمنع أهله من إقامة حلقات ندب عليه، فالطقوس ممنوعة، و البكاء محرَّم، و قتلوا بذلك حتى الحزن في أعماقهم، فلا حق لهم بإقامة شعائر الجنازة!

لم تمض إلا بضع دقائق حتى وقف عريف السجن أمامنا قائلاً: «أستاذ رفعة، تفضل، يريدونك،» فرحت لأنني أخبرته بذلك قبل قدومه، و شعرت براحة نفسية، فلم أكن مهتمة في بادئ الأمر بما قالته لي وجدان و اعتبرتها شائعة أخرى من الشائعات التي تتلقفها الألسن.

عاد بعد فترة قصيرة و جلس بجانبي على السرير، و لكن لم تمض إلا بضع دقائق، حتى جاء مدير سجن الأحكام الخاصة برفقة عريف يطلب منه مرافقته.

جلستُ وحدي، و شرد ذهني، عندما شاهدت عصفوراً ينقر

Twitter: @ketab_n

النافذة و يرفرف بأجنحته حولها. لم أشاهد طيراً من قبل في السجن! أو ربما لم أنتبه إلى ذلك، إذ إنها المرة الأولى التي أجد نفسي جالسة في السجن وحدي. كيف اختار هذا الطير الصغير السجن؟ حسدته على جناحيه الصغيرين اللذين يمكّنانه من الطيران تاركاً السجن الذي دخله بإرادته. فنحن طيور بلا أجنحة. قُصّت أجنحتنا منذ دهر طويل، و لم نعد نعي متى فقدنا حريتنا! و أصبح الخضوع و الاستسلام للسلطة من الصفات التي نتحلى بها. أعادني وصول أم رفعة و آل الجادرجي في الساعة التاسعة صباحاً إلى واقع حال السجن!

لم تمض إلا بضع دقائق حتى بدأ الهمس بين السجناء في القاعة، «سيطلق سراح رفعة!» و تعالت الهمسات و انقلبت إلى وشوشات، و تضاعفت الوشوشة و انتشرت، يحملها السجناء في ممرات السجن من قاعة إلى قاعة، حتى عمت جميع أنحاء السجن. تهافتت نساء السجناء مهنئات والدته و أخته وإخوته. أجبتهن: «إننا لا نعلم حتى الآن أي شيء، و لا ندري إن كان سيُطلَق سراحه أو يعود إلى السجن.» لم أكن أرغب في أن أستبق الأحداث، و لكن لم ينصت إلى كلامي أحد.

انتظرنا حتى انتهاء الزيارة الرسمية في الساعة الثانية عشرة ظهراً، و عندما خرجت من بوابة السجن كانت رزمة الكتب الملفوفة بالورق الأبيض لا تزال موجودة في المكان نفسه، فنظرت إليها مترددة، و لكني تركتها مكانها.

كان عدد الكتب التي قرأها رفعة خلال الخمسة عشر شهراً التي قضاها في السجن، مائة و ستين كتاباً، و استنسخت له صفحات و فصولاً من مئة و عشرين كتاباً. كتب خلالها كتاب **صورة أب و شارع**

Twitter: @ketab_n

طه و هامرسمث و معظم كتاب **الأخيضر و القصر البلوري**، لم أكن اعلم أن هذه الرزمة من الكتب ستكون الرزمة الأخيرة التي لن يقرأها في السجن. كنت أُقبّله عندما تنتهي الزيارة، بين نظرات السجناء التي تنمّ عن شهوة مكبوتة في أعماق الجسد. أشمّه لعل رائحته تبقى معي على خديّ و شفتيّ، و لكني تركت السجن هذه المرة، و كنت أجهل أنها آخر زيارة لي، أزور فيها السجن كزوجة سجين، أو أقف أمام بوابته المطلة من سوره المقيت، التي ترمز إلى الظلم و القهر و الذل و الحرمان.

بلقيس شرارة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرحمة و المرحمة و المكرمة

اليوم الأخير

مضى أكثر من عشرين شهراً منذ صباح يوم ١٦ كانون الأول ١٩٧٨ حينما زارني الشابان الموظفان في المخابرات العراقية و ألقيا القبض عليّ.

وصلت بلقيس ذات صباح كعادتها أول زائرة إلى الردهة حينما يبتدئ موعد الزيارة الرسمية. بعد السلام و التقبيل، قدمت إليّ قوائم الكتب التي أودعتها لدى أمن السجن، و قوائم بالكتب التي تم استنساخها. و بعد أن انتهت من قوائم الكتب و الصفحات التي يتعين استنساخها، جاء حسين علي السعيد مع المواد الغذائية و الملابس النظيفة، و الأشياء الأخرى التي كنت طلبتها، فأقدما على وضع المواد الغذائية في الصناديق المثلجة. ثم جلسنا كالمعتاد على السرير، فقالت لي: جاءتني ليلة أمس وجدان و أخبرتني بأن هناك إشاعة، و احتمالاً بأن يكلَّف رفعة بعمل في أمانة العاصمة تهيئةً لمؤتمر عدم الانحياز. و أخبرتني بألا أستغرب، أو أنفعل إذا ما جاؤوا و طلبوا مني مرافقتهم. كنت أصغي إلى بلقيس، و قبل أن تسنح لي الفرصة في سؤالها عن

Twitter: @ketab_n

تفاصيل الموضوع، أو أن تبين هي لي التفاصيل، ظهر في باب الردهة عريف حرس الأحكام الخاصة و توجه نحوي و قال «أستاذ، تفضل، يريدونك.»

لحقته و رافقني إلى مديرية السجون، و هو مبنى يبعد عن سجن الأحكام الخاصة بعض الشيء. كانت هناك غرفة المدير مكتظة بالناس و المراجعين، فجلست برهة و قال لي المدير ستكلف بعمل في أمانة العاصمة، و ستذهب هناك صباحاً للعمل، ثم تعود إلى هنا للمبيت مساءً، فسنطلب منك كفيلاً لهذا الغرض. و رافقني بعد هذا العريف نفسه ثانيةً إلى الردهة. عدت و جلست مع بلقيس و قبل أن تسنح لي فرصة في الاستفسار عن بعض التفاصيل، إذا بمدير الأحكام الخاصة يأتي بنفسه إلى الردهة و يطلب مني مرافقته إلى مكتبه. و ما إن وصلنا إلى مكتبه حتى بدأ بتغيير ملابسه من الرسمية إلى المدنية، و طلب مني خلالها توقيع ورقة كانت ملقاة على طاولته. فقلت له: نظاراتي ليست معي، قال: «وقّعها، إنها لصالحك، ثق بي،» فوقعتها. و طلب مني أن أهيّئ كفيلاً، فعدت إلى الردهة و ناديت على حسين السعيد، و طلبت منه أن يوقّع في المحل المؤشر عليه، و هكذا أصبح حسين كفيلي، من غير أن أعرف ما هو نوع الكفالة، و لا يعرف هو ما وقع عليه.

توجهنا أنا و المدير و العريف إلى سيارة نقلتنا إلى خارج أبواب السجن المتعددة، و إلى خارج جدران السجن، و اتجهت بنا إلى بغداد. لم أكن أدري إلى أين نتجه، و لم يكلمني المدير خلال هذه الجولة الغريبة، حتى وصلنا مناطق من بغداد أحسست بأننا نتجه تدريجياً نحو القصر الجمهوري. و حينما تركت الردهة لم أبلغ بلقيس أنني سأكون في جولة خارج السجن، فبقيت في انتظاري.

Twitter: @ketab_n

وصلنا الباب الأول، و لاحت إشارة من الحرس، «قف» لسيارة غير معتادة. كان مفتاح السرّ هو «رفعة الجادرجي» ففتحت البوابة الأولى حالاً، و كذلك تكررت في الباب الثاني، و الثالث بالدرجة نفسها من السرعة في السماح للسيارة بالمرور، حتى وصلنا إلى الاستعلامات في مبنى القصر. كانت كذلك كلمة مفتاح السر «رفعة الجادرجي»، فطُلب من المدير الانتظار، و قادني في الحال أحد الموظفين المدنيين، بلباس أنيق و نظيف، بمسيرة في ممر طويل، و لكنها مسيرة لم تكن مخيفة هذه المرة، بل ممتعة جداً، كل شيء فيها يزدهي بألوان الجدران و رائحة السجاد. كل شيء يوحي بالفخامة. قبل أن ندخل الغرفة قال لي هذا الموظف بأنه سكرتير الأستاذ طارق العبد الله، فدخلت الغرفة و قال لي الموظف الآخر الذي كان جالساً وراء منضدة كبيرة و فخمة، بأنني سأقابل الأستاذ طارق العبد الله و هو أمين السر لمجلس قيادة الثورة.

قادني السكرتير إلى الغرفة المجاورة، فاستقبلني طارق العبد الله و حيّاني و حييته، و جلست جانبه. كنت بالملابس المعتادة للسجين، وهي اللون البني. و في الحال قال و هو يبتسم: «يرغب السيد الرئيس بأن يخلّد اسمك في التاريخ، فأنت مكلف بتصميم مشروع كبير في منطقة باب الشيخ.»

قلت: «أشكر السيد الرئيس.»

و استمر في قوله: «لقد هُيِّئت لك دائرة في أمانة العاصمة، و الأمين في انتظارك. ستكون أنت رئيس هذه الدائرة.»

فقلت: «شكراً كثيراً، و أين سيكون مبيتي في الليل؟»

فقال: «في بيتك طبعاً.»

Twitter: @ketab_n

سألته: «و ما هي كلفة المشروع، و من سيكون مرجعي في هذا المشروع.»

فأجاب: «الكلفة لا حدود لها، أنت حر، و المرجع الحقيقي لك هو السيد الرئيس.»

ثم نادى الشخص الذي في الغرفة المجاورة و قال له: أمين العاصمة في انتظار الأستاذ رفعة، أمّن له وسيلة النقل.

ذهبت إلى أمانة العاصمة مع مدير سجن الأحكام الخاصة و العريف في سيارة السجن، و عند وصولنا أمانة العاصمة تم تبليغ المدير بأن أمين العاصمة كان في انتظارنا، و لكننا تأخرنا، لذا فإن الأستاذ خالد الجنابي، وكيل الأمين، هو في انتظارنا الآن. استقبلني خالد الجنابي بنوع من البرود، لأن الكلام كان بين موظف كبير في الدولة مع «سجين مجرم». بالرغم من ذلك كان استقباله يتضمن المجاملات المألوفة. و قال للمدير بأن مهمته قد انتهت، و بأنه هو سيقوم بتأمين سيارة تقلّني إلى بيتي. بعد دقائق تهيأت السيارة. فخرجنا أنا و المدير من غرفة وكيل الأمين معاً، و كان العريف في انتظارنا خارج الباب، ملاصقاً للباب خوفاً من هربي. اتجهت في طريقي إلى سيارة تعود إلى أمانة العاصمة، و اتجه المدير إلى سيارته. هنا في هذا المفترق، صافحت المدير و شكرته، فكانت مفاجأة للعريف، حينما رآني متجهاً إلى سيارة أخرى غير سيارة السجن، و شعر بأن هناك تجاوزاً على مهمته في حراستي من الهرب، فالتفت إلى المدير، مؤشراً نحوي و قال: «و هذا؟» فأجابه المدير: «هاي مو يَمُـكْ.»

اتجهت إلى سيارة أمانة العاصمة، و كان السائق يعرفني فحيّاني، و اتجهنا نحو شارع طه من دون أن أدلّه على عنوان البيت. كان الحر

Twitter: @ketab_n

شديداً، حر آب في بغداد، في اليوم العشرين منه، و لكني وجدته حرّاً منعشاً. و صلت البيت و دخلته، و كان الوقت حوالى الواحدة بعد الظهر. بيتي الجديد، الذي أكملته و أثثته بلقيس أثناء غيابي. عند دخولي الدار كانت بلقيس هناك، و كانت أول كلمة نطقتُها: «بلقيس، أريد زجاجة بيرة باردة!» كانت بيرة مثلجة. ألذ بيرة ذقتها، و لا أزال أتذكرها إلى يومنا هذا.

بعد الجرعة الأولى أو الثانية من زجاجة البيرة اتصلت بالبحرين، و أعلمت علي يوسف فخرو، الصديق و الزميل لي في العمل، بأنني أكلمه من الدار. كانت هذه المكالمة التلفونية الأولى الحرة بعد أكثر من عشرين شهراً.

رفعة الجادرجي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في شارع طه

وصلنا الدار في الساعة الواحدة إلا ربعاً. جلست أرتشف مشروباً من الكمباري campari و عصير العنب ببطء في قيظ آب اللاهب، و إذا برفعة أمامي. ارتميت عليه، قبلته، و مرّغت وجهي بوجهه أشمّه. كانت عودته المفاجئة كاعتقاله المفاجئ قبل عشرين شهراً. كنت أتوقع أن يعود كل يوم إلى السجن بعد انتهائه من العمل الرسمي الذي سيكلف به.

كانت أول كلمة نطق بها: بلقيس، أريد زجاجة بيرة باردة.

ذهبت إلى البرّاد و جلبت له بيرة مثلجة شربها بلحظات، فقد حُرم من شرب البيرة مدة عشرين شهراً. كنا في أحرّ شهر من أشهر السنة، شهر آب الذي تتجاوز درجات الحرارة فيه الخمسين درجة مئوية.

اختفى حسين من بيننا و عاد بعد قليل بخروف كبير ليُذبح كقربان، فقد تقبل الله صلاة أم رفعة و ابتهالها طوال هذه الفترة، و أفرج الآن عن نجلها و أصبح طليقاً حراً، فعليها أن تضحّي امتناناً لهذه المعجزة الإلهية! خرجت إلى الحديقة، فوجدت عدداً من الأصدقاء و المعارف و قد جلبوا الخراف، و كانت بينهم صديقتي

Twitter: @ketab_n

بتول، و التحق الخروف الذي جلبه حسين لأم رفعة بقطيع الخراف الأخرى التي علت أصواتها شاعرة بالخطر المحدق بها.

سالت دماء الخراف بعد ساعات، في طست كبير في حديقة المطبخ، و علقت جثثها لتنزف آخر قطرات دمها. شعرت بالغثيان، عندما مررت صدفة من قربها، و أشحت بوجهي لأتجنب منظرها، و وضعت يدي على أنفي، لأتجنّب رائحة الدم التي ملأت أجواء حديقة المطبخ في شهر آب المحرق.

ذهبت إلى المطبخ فوجدت أم رفعة جالسة على كرسيها المعتاد، و بيدها السيجارة التي لا تفارقها. علا صوتها بإصدار الأوامر و التعليمات في تنفيذ الطقوس التي تتعلق بتوزيع لحم الخراف، التي ذُبحت قبل فترة قصيرة، لتوزع على الفقراء في الحضرة الكيلانية، فهذه الطقوس خاصة بها و لا يمسها أو يتقرب منها أحد من أعضاء العائلة. كانت أمامها دائماً علبة سجائر غازي المذهبة، ذات السجائر النحيفة الصغيرة الحجم التي صُنعت خصيصاً لتدخينها من قبل النساء في بغداد.

لا يرتفع صوت أم رفعة إلا في مثل هذه المناسبات، فهي امرأة مرهفة الحس، هادئة، قليلة الكلام و الضحك، و إن عبّرت عن فرحها و ابتهاجها، فتفتر عندئذ شفتاها الرقيقتان عن ابتسامة وديعة. تنصت إلى حديث الآخرين و لا تشارك به إلا نادراً، خاصة بعدما تقدمت في السن. و لكن بالرغم من تقدمها في السن، كانت ذات نشاط و حيوية نادرتين، فقلما تتعب أو تمل من زيارات الناس إليها أو زياراتها إليهم. كانت تصدر التعليمات لحارس الدار علوان، فيُفتح باب الحديقة في الصباح الباكر و لا يُغلق إلا بعد منتصف الليل، و إن خالف تعليماتها، علا صوتها غاضبة مؤنِّبة.

Twitter: @ketab_n

كان يوم الجمعة من أحب أيام الأسبوع إليها، عندما يجتمع أعضاء الأسرة و أصدقاؤهم القدامى للغداء في دارها. دقيقة الملاحظة بشأن ما يحبون و يرغبون في أكله من الأطعمة، فتضيف نوعاً آخر، عندما تشعر بأن أحدهم لا يأكل نوعاً معيناً من الطعام. تلبي دائماً ما يشتهيه أعضاء الأسرة من الكبار و الصغار من ألوان الأطعمة حتى و إن استنفدت وقتاً طويلاً في صنعها.

كانت أم رفعة منهمكة في ذلك اليوم، بالإضافة إلى توزيع لحم الخراف، في الإشراف على الوليمة الكبيرة التي ستقام بمناسبة الإفراج عن ابنها، فقد انتظرت هذا اليوم منذ أن اختفى أمام ناظريها في صباح ذلك النهار المشؤوم. و لذا فإن الطباخ جعفر كان منهمكاً بالتحضير لهذه الوليمة أيضاً.

امتلأت دارنا مساء ذلك اليوم بمزيج متنوع من الناس، ضيوف من الأصدقاء و الأقارب و المعارف. أناس طال غيابهم عن دارنا طوال فترة غياب رفعة عنه، و كأن زيارتهم كانت مرتبطة و موقوتة بعودته.

جلس البعض في غرفة الطعام التي كنت أستعملها كغرفة استقبال في الفترة التي كان رفعة في السجن، فلم أكن مستعدة لعودته المفاجئة، لتنظيم غرفة الاستقبال المغلقة لمدة أكثر من عام و نصف، و جلس البعض في مدخل الدار، و الحديقة.

لم تكفِ الخراف المسكينة التي جلبت لتذبح كقربان، و إنما جلب حسين سيارة محمّلة بالمغنين و الموسيقيين الذين يتقدمون عادة سيارة زفاف العروس و العريس في الأعراس الشعبية في بغداد. فقد طفحت السعادة التي شعز بها، و عبّر عن فرحته و ابتهاجه كالطفل عندما جلب فرقة المغنين و الراقصين.

Twitter: @ketab_n

كان الراقصون يرقصون على المزمار و البوق و الدفّ، و كان الابتذال ظاهراً في الحركات البدائية المثيرة للاشمئزاز و في هزّ أجسادهم العنيف المثير للقرف أحياناً.

انحسرت الظلمة التي خيّمت على دارنا منذ عامين تقريباً، و أضاءت المصابيح غرفها التي ازدحمت بالأقارب و الأصدقاء و المعارف من كل حدب و صوب، و تعالت ضحكاتهم الممتزجة بصيحات الفرح التي شاركتهم بها.

فوجئت عندما زارنا مازن، في الأسبوع الثاني من إطلاق سراح رفعة المفاجئ، مرتدياً البزة العسكرية، فقد أعلن العراق الحرب على إيران في تلك الفترة، و وجب على موظفي القصر ارتداء الملابس العسكرية، بالرغم من أنهم مدنيون، و لا رابطة تربطهم بالجيش. لم أستطع كبت ما كنت أشعر نحوه من البرود، و بذلت قصارى جهدي في مجاملته، و لكن نضوب العاطفة الصادقة و انحسارها لازماني و لم أستطع التخلص منهما.

و قبل أن يسلّم على رفعة، قال له: « لقد أتيت لزيارتك بعد موافقة القصر، إذ عندما سألتهم هل هنالك من مانع، أجابوني، بالعكس، هم مسرورون من هذه الزيارة. »

كيف يفقد الإنسان حريته تدريجياً و يصبح دمية و آلة بيد السلطة، تحركه حسب رغباتها و أهوائها، فليس باستطاعة مازن زيارتنا قبل الحصول على موافقة القصر!

و لكن بالرغم من ذلك الحذر، فقد كانت نهاية مازن، نهاية مظلمة و مأساوية في حجمها و بعدها. كان إحدى الضحايا الذين تخلت عنهم السلطة و قذفت بهم في لجة البحر الهائج المدمّر.

Twitter: @ketab_n

غرقت في دوّامة الزيارات من الأصدقاء و المعارف صباحاً و مساءً. و عجبت من بعض الناس، و اندهشت من تحذيرهم لنا من الضيوف الزائرين. همس البعض في مسامعنا: الحذر من فلان فهو مخابرات! و عاد الهمس و التحذير ثانية من مجموعة أخرى من ضيوفنا! عجبت في البداية من وشاية الناس ببعضهم، من المرض الجديد الذي أصيبوا به، و من العدوى التي سرت بينهم. فقد مسخ الرعب مجتمعنا الذي نعيش فيه و سيطر الشك عليه، و لا غرابة في ذلك، عندما يُحاسَب الناس في مجتمع حتى على أحلامهم التي سُجنوا من أجلها!

أصبح يوم ٢٠ آب عيد ميلاد ثانياً نحتفل به، فقد وُلد رفعة ثانية عندما خرج من أحشاء السجن المظلم. و أصبح الاحتفال بعيد ميلاده الثاني عادة مستمرة حتى بعد أن تركنا العراق.

بلقيس شرارة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في شارع طه

انتقلنا إلى الردهة الثانية، بعد أن تركنا ردهة الأكراد، و قررت حينما كانت الإشاعات تتلاطم كالأمواج حول احتمال خروجنا، أن أعود إلى التدخين في اليوم الأول الذي أخرج به من السجن بعد انقطاع طال ستة عشر شهراً. كنت قررت الامتناع عن التدخين، في الأسبوع الأول بعد ٨ شباط ١٩٦٣، عندما خسر عبد الكريم قاسم المعركة، و تم إلقاء القبض عليه، و تغير رجال السلطة في الحكم، و ترك معظم أعضاء عائلتنا الدار. لم نكن نعرف ما سيكون مصير أي واحد منا، بعد أن ألقي القبض على نصير في ذلك الصباح، و أعلن في الراديو حجز أموالي المنقولة و غير المنقولة. قررت آنذاك أنها مناسبة جيدة للتوقف عن التدخين لأجرب بها إرادتي، و هذا ما فعلت.

لم يكن قراري في العودة إلى التدخين، عندما كنت وراء الجهة الأخرى من الظلمة، من أجل تدخين السيجارة، و إنما تدخين «السيجارلو»، واحدة فقط في اليوم و بعد وجبة العشاء. جاء صديقنا رعد في المساء الأول لمبيتي في شارع طه بعلبة من النوع الصغير لـ«السيجارلو» حيث كنت قد أعلمته بقراري قبل عدة أشهر من

Twitter: @ketab_n

خروجي من السجن، فدخنت الـ«سيجارلو» الأولى و لأول مرة ذلك المساء.

في أمانة العاصمة

ذهبتُ صباحَ اليوم التالي إلى أمانة العاصمة، إلى الدائرة التي خُصصت لتكون موقع عملي. بعد برهة جاء أمين العاصمة، سمير الشيخلي، فقال لي، بكل جدية: «هذه فرصة تخدم فيها بلدك.»

أجبته في الحال: «لقد خدمت بلدي في الماضي، و سأخدم بلدي الآن بطريقتي الخاصة.»

انتهى اللقاء الأول، الذي لم يدم أكثر من دقيقتين أو ثلاث. سافر سمير الشيخلي بعد ذلك لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، و بعد عودته، و لم تكن قد مضت إلا بضعة أيام، حتى بدأنا نخطط للمشاريع، و أصبح بيننا نوع من الوئام و الانسجام الفكريين و الإداريين، و أصبحنا صديقين، كما أصبحت علاقتي مع خالد الجنابي علاقة فيها ود و احترام متبادلان.

كانت نقابة المهندسين و وزارة الأشغال و الإسكان تهيّئ ندوة لبحث التراث. فاتصل بي وزير الأشغال الذي كانت لي معرفة سابقة به، و طلب مني زيارته، فزرته و طلب مني أن أقدم كلمة بهذه المناسبة، و قال: «اهتم بالموضوع، لان هذا سيفيدك.» و حينما علم سمير الشيخلي بأنني أهيئ كلمة، قال يتعين أن تصدر هذه باسم أمانة العاصمة، و تقوم أمانة العاصمة بطبعها، و هكذا تم الأمر.

عُقد اجتماع الندوة في قاعة المجلس النيابي في الموعد المحدَّد و حضر الندوة الرئيس صدام حسين، و ألقيت كلمتي، و عندما

Twitter: @ketab_n

اعترض أحد الحاضرين على بعض المفاهيم التي طرحتها، قاطعه الرئيس و أيد ما ذهبت إليه. و في حفلة الغداء، حيث كان حاضراً أكثر من مئة مهندس، طلب مني الرئيس أن أجلس إلى المائدة المخصصة له، كما جلس معنا الدكتور محمد مكية. و في هذه المناسبة طلب حضوري، و أجلسني بالقرب منه على الأريكة نفسها. و عند خروجنا من القاعة في اليوم الأول للندوة، التفت الرئيس صدام حسين إلى طارق العبد الله و قال له: انهِ قضية رفعة. فصدر مرسوم جمهوري بإعفائي من مدة المحكومية.

لم أقدم على تصميم بناية معينة، بل أقدمت على وضع خطة لتصميم مشاريع متعددة و إنشائها لتهيئة مدينة بغداد لاستقبال وفود مؤتمر عدم الانحياز الذي كان مخططاً له أن يعقد في تشرين أول ١٩٨٢ في بغداد. و بيّنت لأمين العاصمة أن مهمتي في أمانة العاصمة ستنتهي قبل يوم من موعد عقد مؤتمر عدم الانحياز، و في ذلك اليوم أترك العراق، و قلت: «سأترك العراق في الطائرة نفسها التي ستجلب الوفد الأول إلى بغداد.» كما بينت لبلقيس أنني قررت أن أترك تدخين «السيجارلو» في ذلك اليوم نفسه.

ذهبت بعد بضعة أيام من خروجي من السجن، في يوم الزيارات الرسمية إلى السجن، لزيارة عطا عبد الوهاب و الأصدقاء الآخرين في الردهة التي كنت فيها، لنقل الكتب التي تركتها في الصناديق في السجن. فطلب مني عدنان الراديو، و أخبرته أنني سآخذ الكتب فقط و أترك كل شيء له لتوزيعه.

تسلمت في وقت لاحق، رسالة من عطا عبد الوهاب مؤرخة في ٢٧ آب ١٩٨٠، تتضمن ما يلي:

Twitter: @ketab_n

رفعة العزيز،

كنت أفكر بعد مغادرتك بأن فترة معايشتنا هنا كادت تحيل عليها السنة. لكنني شعرت بأنها كانت قصيرة و أنها لا تزال مستمرة. قصيرة لأنها انتهت. كل ما ينتهي قصير. أما شعوري بأنها مستمرة فلأنها كان لها عندي أثر. ثم إنها بمعنى آخر لم تكن قصيرة لأنها أثمرت.

...

أنت تعلم أن الحياة هنا مليئة بالإسكجات الحية النابضة بالحركة و الظلال، سواءً كانت ناطقة أو صامتة، جامدة أو عنفوانية. الإسكج الذي حدث بعد خروجك:

نزلت إلى الساحة فرأيت رضوان الفلسطيني يتبختر ببيجامتك الزرقاء، ذلك أن حمدان بدأ يبيع «الأسلاب» و أنت لا تزال على السلم. و لا أدري لماذا لم يرق لي منظر البيجاما على رضوان و كان يروق لي على غيره. فعدت أدراجي. صادفني في الممر سالم، أسوأ من عليها، و هو يرتدي قميصك البنّي المدوّر الرقبة المحلّى عند الكمين القصيرين بشريط أبيض، فذُهلت. كان ذهولي يرجع إلى عجبي كيف لاءمه الحجم. كان القميص يسترخي عليك، و هو على هذا الجسد الغليظ مشدودٌ شد القسر و العنت. دائرة الرقبة مخنوقة، و الكرش متوتر. و غضضتُ عيني و أنا أهمس: كيف لاءمه الحجم؟ تُرى هل نسيج القميص من ماء فيتخذ شكل ما يحل فيه؟ و صعدت إلى «صومعتي» فإذا بحميد نطار، أحد أصحاب الثلاجات الصفراء الجدد، أمامي. فسأله

Twitter: @ketab_n

أحدهم: لا تسألني مَن إلخاطر أَلَّه! هل وجدت في الثلاجة بطل لاستك؟ قال حميد برهاوة المعيدي المستحضر: لا وجدت مطّارة صغيرة، فيها دوندرمة، « شُو طِلْعَتْ مُرّة!»

حملت عندئذٍ نفسي و نزلت إلى الساحة مجدداً فإذا بحمدان يفترش دوشكك الديباج المغلّف بالدِّمَقْس و كأنه سلطان في حكاية خرافية...

راجعني شخص في مكتبي في بداية عام ١٩٥٩، نيابة عن نقابة البنائين، وبين لي أن لدى نقابته مشكلة مع أمانة العاصمة، و طلب مني التوسط للنظر في الأمر. اتصلت بمدير الإدارة و عرّفته إلى ذلك الشخص. اختفى هذا الشخص و لم أره ثانية إلا بعد حوالى عشرين عاماً عندما تم نقلنا إلى الردهة الثالثة. فزارني ثلاث أو أربع مرات. و بعد خروجي من السجن بيومين أو ثلاثة أيام، زارني مع ابنه في داري و جلب معه خروفاً كهدية، بمناسبة الإفراج عني، و لم أره ثانية بعد ذلك و لا أزال لا أعرف اسمه.

* * *

هيأنا خلال هذه الفترة، في أمانة العاصمة معرضاً للمشاريع المخطط لها و المنوي تحقيقها. و في اليوم التالي من تهيئة المعرض، كنت في غرفتي بعد انتهاء مدة الدوام ببضع دقائق، بعد أن غادر جميع موظفي الدائرة. رن جرس الهاتف و كلمني سمير الشيخلي بصوت مرتبك، قائلاً: «ابقَ في مكانك و لا تخرج.» و بعد دقائق جاء سمير، و ثم وصل الرئيس صدام بهدف الاطلاع على معرض المشاريع. كان حارس المبنى الذي يحمل مفاتيح قاعة المعرض قد ذهب خارج البناية، فبقي الرئيس و نحن في انتظار عودة الحارس، و أخذنا نتكلم

Twitter: @ketab_n

بمواضيع تتعلق بالمشاريع. و عند عودة الحارس، أطلعت الرئيس على المشاريع و بيّنت له بعض المبادئ التصميمية التي تضمنتها المشاريع و مزاياها. سجل تلفزيون بغداد هذه الزيارة و أذاعها في مساء ذلك اليوم نفسه.

في صباح اليوم التالي، كنت في صالة المعرض في الطابق الأرضي مع بعض الزوار عندما جاء سعدون شاكر، و كان آنذاك يشغل منصب وزير الداخلية، فلم أعره أي اهتمام. فجاء نحوي و سأل عن سير عمل المشاريع، فأجبته باقتضاب بكلمتين: «هذه مشاريع،» و أشحتُ بوجهي عنه و التفتُّ نحو الزوار الآخرين.

بعد أسبوع أو أكثر خابرني مدير سجن الأحكام الخاصة و قال إن خروجي من السجن كان غير قانوني، فيتعين عليّ أن أرجع إلى السجن و أدخله كسجين مرة ثانية، و من ثم تتم معاملة قانونية لإخراجي. و بيّن لي أن هذه العملية، لا بد منها لتصفية محتويات الملف، و لا تتطلب أكثر من نصف ساعة. اتصلت به بعد أسبوع و أعلمته بموعد قدومي إلى السجن.

وصلت السجن، فاستقبلني مدير سجن الأحكام الخاصة، و بدلاً من أن يجلسني في غرفته، و هذا ما كنت أتوقعه، قادني إلى غرفة أخرى يقع مدخلها في الممّر الرئيس للسجن، الممر الذي كنت معتاداً عليه و الذي كنت أتخوف منه أحياناً. دخلت و إذا بها قاعة مربعة الشكل، كبيرة و في جانبيها مدرج، أو صفان أو ثلاثة من الكراسي يجلس عليها عدد من النزلاء، خمسون منهم أو أكثر. وضع كرسياً في وسط الفراغ الحاصل بين هذين الضلعين الجالسين، و طلب مني أن

Twitter: @ketab_n

أجلس عليه. انقلبت القاعة إلى مسرح، و أصبح النزلاء متفرجين، و أنا في وسط القاعة المتفرج عليه. لم أدر ما أعمل، أو أقول، بقيت جالساً على الكرسي مندهشاً، بلا حركة، و الجميع ينظرون إلي، و أنا أختلس النظرات، كما لو كنت أنظر في فراغ بعيد، و بشكل خجول. لم أستطع أن أتذكر الجميع باستثناء العدد القليل منهم، ربما لأنني لم أصادفهم أثناء وجودي في السجن، أو ربما لأنني انغمرت بهذا الاستقبال الذي لم أكن أتوقعه، فنظرت إليهم، و هم ينظرون إليّ، و طال الصمت المتبادل بيننا، و كنت محرجاً و خجلاً من الوضع الذي وجدت نفسي فيه. إنهم ينظرون إليّ كفرد كان معهم قبل أسابيع، و بأعجوبة حصل ظهوري في التلفزيون قبل أيام معدودة مع رئيس الجمهورية.

و إذا بأحدهم يرفع يده، مؤشراً نحوي و قائلاً: «أشّرت إليك من شفتَكْ في التلفزيون.» ثم ساد سكون. و إذا بنزيل آخر يعيد الكلمات نفسها و يؤشر، و بثالث و رابع و خامس حتى عمّ الأمر بين الكثير من الجالسين.

اختنقتُ بالعَبَرات، و لكن تمالكت نفسي، و لم أسمح لعينيّ بأن تغرورقا بالدموع، و لكني لم أستطع الكلام و لا حتى سماع ما كان يوجه إلي من أسئلة في البداية. تمالكت بعد برهة نفسي و أجبت عن بعضها. منهم من طلب مني أن أكلم السلطات بأنهم مظلومون، عسى أن يصدر العفو عليهم، أجبتهم بأنني سأحاول و كنت أعلم في أعماق نفسي بأنني غير قادر على ذلك، و إن أثرت قضيتهم فلا يوجد من يسمع، أو لا يسمح له بالأصل بالسماع عنها. فلم تكن أجوبتي أكثر من تهدئة و كلام لطيف و وعود فارغة. و إن كانت بيضاء.

Twitter: @ketab_n

قيل لي بأنه حينما رآني حمدان في التلفزيون مع الرئيس صدام، قال : «من فنه كان يقرأ و يكتب، كان يتحضر.» و يقصد بذلك سبب القراءة و الكتابة المتواصلين اللذين كنت أمارسهما، و لم يجد حمدان مبرراً لهما آنذاك باعتبار أن «لا أحد يقرأ و لا يكتب بَـرّة» حسب تعبيره، و اعتبر أنني كنت أتهيأ لهذا الظهور التلفزيوني مع الرئيس.

مررتُ في طريقي إلى خارج أبواب السجن، بغرفة المدير و كان في انتظاري فلح، موظف الأمن، فأخذ يتوسل لكي أتوسط له بعدم نقله إلى مدينة السليمانية، لأنه إذا نقل هناك، فسيقتله الأكراد، حسب ادعائه. لم أتمكن من كتم نفوري منه. كان يتوسل بخضوع، فأجبته: ليس في وسعي مساعدتك!

***

قررتُ بعد أشهر أن أقضي إجازة لمدة شهر في لندن، فسلمت جوازي إلى الإدارة في أمانة العاصمة لمتابعة معاملة الحصول على موافقة السفر. و سفر المواطن العراقي إلى خارج العراق أمر معوّق بالممنوعات المتنوعة، لا في هذا العهد فحسب، بل في كل العهود و إن في درجات متفاوتة، و لمسببات، تبتكرها مختلف السلطات و مختلف العهود السياسية. فقد تم منع سفري من قبل خليل كنة حينما كان وزيراً للداخلية في منتصف الخمسينيات، و كان منعي من السفر و حجز أموالي من بين المراسيم الأولى التي أصدرها عبد السلام عارف حينما أصبح رئيساً للجمهورية، في أوائل الستينيات.

تأخر إنجاز الحصول على موافقة السفر، بالرغم مما يتمتع به سمير الشيخلي من موقع إداري و سياسي حزبي آنذاك، فلم يتمكن من

Twitter: @ketab_n

إنجاز معاملة السفر، و ظهر أن سبب تأخير المعاملة هو إصرار على منعي من السفر من قبل الدائرة الأمنية المختصة، و ظهر أن العقبة في رفع منع السفر هي وزارة الداخلية، و وزير الداخلية بالذات. و بالرغم من المخابرات الهاتفية المتعددة من قبل سمير الشيخلي مع وزير الداخلية، الذي كان آنذاك سعدون شاكر، لم تنته المعاملة. فاضطر سمير الشيخلي إلى مفاتحة القصر الذي أمر بإنهاء الموضوع، فصدر أمر برفع المنع عني، و تسلمت أمانة العاصمة صورة من أمر رفع المنع، و ظهر أن هناك خمسة أوامر منع متتالية، كان أولها في ٦ كانون الأول ١٩٧٨ حينما كنت في زنزانات المخابرات و ألحقت بقرار منع سفر آخر في ٢٤ كانون الثاني ١٩٨٠ حينما كنت في سجن «أبو غريب». ثم ألحقت بقرار ثالث في ١٢ أيلول ١٩٨٠ و هو اليوم نفسه الذي ظهرت فيه على شاشة التلفزيون مع الرئيس صدام. و يظهر أن أحداً كان يترصدني و يواصل من مكتبه في وزارة الداخلية إصدار أوامر منع السفر بشأني فيذكرني باستمرار. و لعله الشخص نفسه الذي أصدر منعاً إضافياً تأكيدياً في أول حزيران ١٩٨١ و ألحقه بمنع خامس. و ربما جاء المنع الأخير إرضاءً لحالة نفسية لمن أصدره!

زارني، قبل أن أسافر، أحد المسؤولين في نقابة المهندسين، و معه استمارة الانتساب إلى النقابة، فطلب مني توقيعها لأن النقابة أصدرت أمراً بفصلي باعتباري سجيناً «مجرماً». امتنعت عن توقيعها، و بيّنت له أنني لا أريد أن أكون عضواً في نقابة خاضعة لسلطات أمنية، لأن تصوري أنه يتعين على النقابة أن يكون همها الأول هو الدفاع عن أعضائها و ليس الخضوع لأوامر السلطة. فأجابني مازحاً و ربما متعاطفاً، و لكن بجدية و حزم، بأنه: لا يجوز لي ممارسة المهنة من

Twitter: @ketab_n

دون أن يكون الممارس عضواً في النقابة، و أنت تمارسها الآن. فأجبته: النقابة تابعة للسلطة، و ليست منظمة مستقلة. و أضفت قولي: «أقول هذا، و أنا جِدّيّ، لقد قررت ألا أنتمي إلى النقابة ما دامت تابعةً للسلطة.» و بقيتُ في عملي حتى غادرت العراق في أواخر عام ١٩٨٢.

رفعة الجادرجي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بلقيس شرارة

وُلدت في النجف عام ١٩٣٣ . حصلت على بكالوريوس في الأدب الإنكليزي من «جامعة بغداد» عام ١٩٥٦ . تمارس الكتابة و تقيم في إنكلترا.

رفعة الجادرجي

وُلد في بغداد عام ١٩٢٦ . درس العمارة في لندن، و مارس مهنة اختصاصه في العراق و بعض البلدان العربية. شغل وظائف متعددة في الدولة العراقية. التحق بـ«جامعة هارفرد» كأستاذ زائر. يمارس الكتابة و يقيم في إنكلترا.

Twitter: @ketab_n

صدر لبلقيس شرارة

مقدمة لرواية «إذا الأيام أغسقت» لحياة شرارة، ٢٠٠٠، المؤسسة العربية للدراسات و النشر.

صدر لرفعة الجادرجي

صورة أب، ١٩٨٥، مؤسسة الأبحاث العربية؛

شارع طه و هامرسمث، ١٩٨٥، مؤسسة الأبحاث العربية؛

ملف ١٢ أجية لرسوم معمارية، ١٩٨٥؛

ملف ٨ أجيات لتصاوير كامل الجادرجي، ١٩٨٥؛

مفاهيم و مؤثرات، ١٩٨٦، KPI؛

التصوير الفوتوغرافي لكامل الجادرجي، ١٩٩١، LAAM؛

الأخيضر و القصر البلوري، ١٩٩١، رياض الريس للكتب و النشر؛

حوار في بنيوية الفن و العمارة، ١٩٩٥، رياض الريس للكتب و النشر؛

المسؤولية الاجتماعية لدور المعمار، أو المعمار المسؤول، ١٩٩٩، نشر خاص بالاشتراك مع نقابة المهندسين، بيروت، لبنان؛

مقام الجلوس في بيت عارف آغا، دراسة أنثروبولجية؛

المقدمة لمذكرات كامل الجادرجي و تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي، ٢٠٠٢، منشورات الجمل.

Twitter: @ketab_n

تعرَّضنا، نحن و عائلتنا و أصدقاؤنا لمحنة دامت عشرين شهراً، كانت تجربة قاسية و محنة لا يمكن للذاكرة أن تتغاضى عنها و تنكرها.

و بعد أكثر من خمس عشرة سنة، قررنا أن ندوِّن تلك الأحداث لكي لا تضيع في متاهات النسيان و الزمن.

في أحداث تلك المحنة كان يفصلنا جدار غير قابل للاختراق، جعل كلاً منا في ظلمة بمعزل عن الآخر. لذا قررنا أن يكتب كل منا من موقعه من ذلك الجدار الذي فصلنا.

لم نقدم على تحريك كلمة «الظلمة» التي جاءت في عنوان الكتاب، فيمكن أن تُقرأ بدلالة معنيين: الظَّلم: الليل شديد الظَّلام و ظَلِمَ، أظلم الليل و اسودّ، الظُّلْمَة: ذهاب النور، بينما دلالة الظُّلم: ظلَمَ، هي عدم الإنصاف، و انتقاص الحق، و الجَور.

فالظُّلمة هي دلالة على سلطوية النظام و انتقاص حق الفرد، مما يجعل معيش أفراد المجتمع ظُلمة، شديدة العتمة و البؤس، لذا يتداخل المعنيان في تكملة متممة، فدلالتهما هي ظُلمة السلطة و عتمة الحياة.

ISBN 1 85516 760 3

DAR
AL SAQI
دار الساقي